ابن مقرب العيوني

شاعر الخليج العربي في العصور الإسلامية

حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز المناعي

جامعة قطر

الطبعـــة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ابن مقرب العيوني

شاعر الخليج العربي في العصور الإسلامية

حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز المناعي

جامعة قطر

الطبعـــة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ابن مقرب العيونى هو أحد شعراء الخليج العربى القدامى الذين لم ينالوا ما هم جديرون به من العناية الكبيرة والدرس المستفيض ، رغم ما تحلى به هذا الشاعر من موهبة شعرية متعددة الجوانب ، وبراعة واقتدار كبيرين رفعاه الى مصاف كبار الشعراء .

ولعل للباحثين والدارسين — سواء من هذه المنطقة أو غيرها — عذرا فيما يبدو من قلة الجهد المبذول وضآلة العناية الموجهة لابن مقرب وأمثاله من شعراء المنطقة القدماء . ومرد ذلك العذر الى قلة ما اشتملت عليه المصادر والمراجع من أخبار تكشف لنا عن كل ما يتعلق بحياة هؤلاء الشعراء ، وقد يكون سبب ذلك فيما يتصل بابن مقرب هو العزلة التى كان يعيش فيها اقاليم البحرين وطن الشاعر فى القرن السابع الهجرى بسبب بعده عن بغداد مركز الخلافة فى ذلك الوقت ، مما حدا بالمؤرخين الى الانصراف عنه الى حواضر الخلافة ، يسجلون فيها كل خطرة لشاعر أو لفظة لأديب .

ورغم هذه الصعوبة فقد استعنت بالله ، وشحذت القلم لأكتب هذا البحث عن ابن مقرب ومما دفعنى الى ذلك عدة أمور :

أولا : كون ابن مقرب يمثل — ظاهرة متفردة فى عصره — اذ أنه عاش فى القرن السابع الهجرى ، وهو زمن كانت فيه الجزيرة

العربية فى منتهى العقم الفكرى والتخبط فى دياجير الظلم والجهل ، كما كان الشعر يغلب عليه المحسنات اللفظية والزخارف البلاغية دون الاهتمام بالمضمون ، فجاء ابن المقرب ليجدد هذا الشعر ، ويعيد له صولجانه القديم ، فكان بحق ظاهرة متفردة فى عصره تستأهل العناية والاهتمام •

ثانيا : بيان منزلة ابن مقرب الشعرية ولفت الأنظار اليه ، والى ما تحلى به من موهبة شعرية ، وما دبجه من قصائد رصينة أعادت الى شرق الجزيرة العربية اعتبارها ومكانتها وأمجادها الشعرية التليدة ، ولعل ذلك يعوض بعض ما أصاب هذا الشاعر من ظلم واجحاف نتيجة اهمال الدارسين •

ثالثا : أن الواجب يتطلب منا نحن أبناء المنطقة أن نسعى بكل جهد الى ابراز تراثها وتعريف العالم من حولنا بأدبائها خصوصا وأن منطقتنا تشهد نهضة علمية وحضارية تحتم على كل واحد منا ألا يبخل عليها بأى عطاء •

وقد اقتضانى هذا البحث أن أقسمه الى ستة فصول :

فى الفصل الأول درست عصر الشاعر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية وذلك بشكل موجز •

وفى الفصل الثانى درست حياة الشاعر نفسه وبينت طبيعة علاقته بأسرته ومجتمعه ، وتحدثت عن رحلاته واتصالاته بأمراء ورجالات وعلماء عصره ، وألقيت الضوء على حقيقة الخلاف حول معتقده ، ثم أفردت جزءا من الفصل للحديث عن تاريخ وطنه وأهم رجالاته وحكامه •

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن ديوانه ، وأوردت نسخه المخطوطة ، والمطبوعة حسب ترتيبها الزمنى •

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن أهم الأغراض التى قـال فيها شعرا ، وتناولت ذلك بالتحليل والدراسة الفنية •

وفى الفصل الخامس درست خصائص شعر ابن مقرب ، وبينت أهم ما تميز به هذا الشعر من سمات وخصائص فنية ، ثم عرضت لآراء النقاد والأدباء فى شعره •

أما الفصل السادس فقد قارنت فيه بين شـاعرنا وبين شـاعر العربية الكبير المتنبى ، نظرا لمـا بين شعر الرجلين من تشابه وتقارب ملحوظين •

ولعلى بهذا الجهد المتواضع أكون قد أديت لهذه المنطقة التى نشأت وترعرعت فيها بعض ما على من دين وأمانة ، وقدمت للمكتبة الأدبيـة وللمهتمين بالمنطقة وأدبها ما يفيد ويغنى •

ولا أنسى فى الختام أن أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذى الفاضل الدكتور حسن جاد حسن على ما أولانى من العناية والتشجيع ما دفعنى على الاستمرار وبذل الجهد حتى ظهر هذا البحث فى هذه الصـورة التى هو عليها •

واللـه من وراء القصـد •

سامى قاسم عبد العزيز المناعى

الفصل الأول

عصر الشاعر

* الحياة الساسية
* الحياة الاجتماعية
* الحياة الأدبية

... سأحاول فى هذا الفصل أن ألقى بعض الأضواء على عصر الشاعر من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية بصورة موجزة وبقدر ما يكشف لنا عن الظروف والملابسات التى أحاطت بالشاعر فأثرت فيه وتأثر بها ، وكان لها صدى فيما نظمه من شعر وما دبجه من قصائد ، وذلك فى الفترة التى عاشها من سنة ٥٧٢ هـ الى سنة ٦٣٠ هـ .

الحيـاة السياسـية :

(١)

شهدت هذه الفترة من الناحية السياسية أحداثا جساما أثرت فى مستقبل الدولة الاسلامية العريضة ردحا من الزمن ، ومن أخطر هذه الحوادث على الاطلاق ، الحروب الصليبية من الغرب ، والغزو المغولى من الشرق . وأظهرت هذه الحوادث من ناحية أخرى مدى التفكك والانقسام اللذين استشريا فى جسم الدولة العباسية كما سنرى . ففى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى زالت الدولة السلجوقية من العراق نهائيا ، وبالتحديد فى سنة ٥٩٠ هـ ، ويعتبر السلطان مسعود آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، اذ أنه لما توفى هذا السلطان سنة ٥٤٧ هـ ، لم يعد هناك من سلاطين السلاجقة فى العراق من يستطيع أن يشغل الفراغ الذى خلفه ، لذلك تعتبر وفاته بداية لإنحلال البيت السلجوقى فى العراق[1] ، وكانت الخلافة العباسية آنذاك فى أوج ضعفها ، اذ أن السلطة الحقيقية كانت بيد المتغلبين على عاصمة الخلافة من سلاجقة أو بويهيين قبلهم . وقد استمر السلاجقة فى الحكم حتى قضى عليهم الخوارزميون بسنة ٥٩٠ هـ ، وذلك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ .

أن الخليفة العباسى الناصر استعان بخوارزم شاه تكسن ضد طغرلبك (آخر سلاطين السلاجقة فى العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التى بيده ان هو استطاع القضاء عليه[٢] ، وقد استطاع خوارزم شاه فعلا أن يقتل طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ[٣] . وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائيا من العراق بعد أن حكموا ما يزيد على القرن من الزمان (٤٤٧ هـ — ٥٩٠ هـ) .

وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية ، أو هكذا ظن خلفاء بنى عباس ، فقد حسبوا أنه بزوال السلاجقة سيبدأ عهد جديد فى حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذى يتمثل فى آل سلجوق ، ولكن الخوارزميين الذين تحمسوا لازالة الدولة السلجوقية كانوا فى الواقع يعملون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم ، فقد بدأوا يتطلعون الى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية ، وعملوا جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسى فى الحاضرة الاسلامية ، وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين مع سياسة الخلفاء العباسيين أن قام بين الفريقين صراع طويل[٤] انتهى بانتهاء القوتين معا على يد المغول كما سيأتى .

كما أدى زوال السلاجقة الى انقسام دولتهم الواسعة الى الدويلات الأتابكية[٥] ، وبالتالى الى وصول الشرق الاسلامى الى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون .

---

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ، ص ٩٤ .

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك .

(٤) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى — دار الفكر العربى . ص ٤٨ .

(٥) د. حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٠٢ ، والأتابك : كلمة مكونة من مقطعين : « بك » ومعناه امير و « أتا » معناه أب ، والأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك .

وأشهر دول الأتابكة جميعا هي أتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكي نظرا لاتساع المسرح الجغرافي الذى كانت تشغله في شمال بلاد ما بين النهرين وفي بلاد الشام ، هذا فضلاً عن عظم الدور الذى لعبه عماد الدين زنكي وأبناؤه من بعده في حرب الصليبيين، وكان عماد الدين من كبار القواد السلجوقيين المقيمين في بغداد ، ثم أرسله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه واليا على الموصل سنة ٥٢٢ هـ ، وما زالت جيوشه تستولى على البلاد المجاورة واحدة بعد الأخرى حتى ملكها جميعا ومنها حلب ، ثم حدث أن قتل عماد الدين على يد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ ، وسار ابنه نور الدين محمود الى حلب وملكها وعظم شأنه فيما بعد ونال شهرة كبيرة في حروبه مع الصليبيين ، وبقيت حلب في آل زنكي الى أن ملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ(٦) .

(٢)

هذا عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، أما مصر فقد كانت في هذه الفترة تحت حكم الدولة الفاطمية الآخذة في التدهور والانحلال نتيجة الثورات التى قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل الى أيديهم ، وما صاحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة وفي وسط الاضطراب الذى انتشر في قلب الدولة السلجوقية والشام ومصر ، ظهر عدو أنكى وأشد هو الخطر الصليبي ، اذ أنه في سنة ٤٩٠ هـ ، سارت الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ(٧) . وقد ظلت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدى الصليبيين ، كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بسبب ما بلغه الفاطميون

---

(٦) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ، ص ١١٧ .

من ضعف ، ولولا ظهور عماد الدين زنكي ومقاومته للصليبيين كما قلنا لكانت مصر من البلاد التي يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها .

وكان استيلاء عماد الدين زنكي علي (الرها) التي كانت تسيطر علي الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض المتوسط سنة ٥٣٩ هـ بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب علي ذلك قدوم الحملة الصليبية الثانية الي بلاد الشام سنة ٥٤٢ هـ في عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، ولكن هذه الحملة فشلت فعادت من حيث أتت . ونظرا لأهمية مصر وموقعها وخيراتها ، فقد تسابق الصليبيون ونور الدين للاستيلاء عليها ، واستطاع نور الدين فعلا أن يستولى عليها بمساعدة أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤ هـ ، الذى اتخذه الخليفة الفاطمى العاضد وزيرا له ، ولكنه لم ينعم بمنصب الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام[٨] ، فاختار العاضد مكانه صلاح الدين الأيوبى فى هذا المنصب ، كما قبل العاضد حماية نور الدين على مصر من الصليبيين .

ومنذ آلت السلطة الي صلاح الدين فى مصر ، أخذ يعمل على ازالة الدولة الفاطمية نهائيا ، فكان أن خطب للخليفة العباسي المستضيء سنة ٥٦٧ هـ ، وكان الخليفة العاضد فى ذلك الوقت على فراش الموت ، وعندما توفى انتقل حكم مصر الى صلاح الدين انتقالا هادئا[٩] .

وفى بداية حكمه بدأ صلاح الدين بتوطيد أقدامه فى البلاد المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد القوى المعادية ، فقضى على بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده نور الدين ، كما تحصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية ، ثم أخذ يعمل على توحيد جميع القوى الاسلامية الموجودة فى الشرق الأدنى

---

(٨) المرجع السابق — ج ١١ ، ص ١٥٣ .

(٩) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٤ .

تحت سلطانه ، حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجمعة ضد هدفه الأساسى وهو الصليبيين ، وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، لا ينازعه منازع فى هذا المسرح التاريخى[١٠] .

وهكذا سار صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ الى بلاد الشام ، وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل التى خضعت له عام ٥٨٢ هـ ، واستطاع أن يمد نفوذه الى حلب ، وبذلك أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذى استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الاسلامية مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، وألحق بهم أول هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، واسترد بيت المقدس من أيديهم ، وأدى ذلك الى قيام حروب الصليبيين الثالثة ، ولكنها لم تستمر طويلا بسبب اختلاف قادة الحملة الصليبية ، فاضطروا الى عقد صلح مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ[١١] ، وتوفى صلاح الدين فى دمشق فى السنة التالية أى فى سنة ٥٨٩ هـ .

ما أن توفى صلاح الدين حتى أصبحت الدولة الأيوبية المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال ، لأسباب أهمها اختلاف البيت الأيوبى على نفسه ، اذ أراد أبناء صلاح الدين واخوته أن يقتسموا التركة الهائلة التى تركها من بعده[١٢] ، وعلى الرغم من انقسام هذه البلاد فيما بين أفراد الأسرة الأيوبية فيما بعد فان النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة[١٣] .

الا أن العادل أخا صلاح الدين استطاع بفضل شخصيته القوية أن يفرض سيطرته على مصر سنة ٥٩٦ هـ ، الى جانب أملاكه فى البلاد

---

(١٠) المصدر السابق — ص ١٨٠ .
(١١) ابن الأثير : الكامل — ج ١٢ ، ص ٤٠ .
(١٢) حافظ احمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٢٧ .
(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥١ .

الشامية ، فأصبح بذلك سيدا على معظم أملاك صلاح الدين ، فأدى للعالم الاسلامى بتوحيد تلك الامارات أجل الخدمات ، واستطاع أن ينقذ الدولة الأيوبية من الانقسام وأن يجنبها النهاية التى آلت اليهـا الدولة السلجوقية من قبل ، هذا وقد ورد ذكر الحروب الصليبية فى شعر ابن مقرب العيونى حينمـا وصلته أنباء انتصـارات الملك موسى الأشرف الأيوبى فى دمياط فقال مشيدا بشجاعته(١٤) :

سـل الكفـر من أودى بدميـاط ركنـه
وقصـر أعـلى فرعـه وهـو باسـق
يخبرك صـدقا أن موسـى هـو الـذى
بصـارمه بـاقت عليـه البـوائق
وقـد جـاءت الافرنـج من كل وجهـة
كـأن تداعيهـا السـيول الـدوافق(١٥)

الى أن يقـول :

فلـولاه لم ينطـق بدميـاط داعيـا
الى كلمـة التوحيـد والعـدل نـاطق

(٣)

أما البحرين وطن الشاعر فقد كانت فى ذلك الوقت تحت حـكم الأسرة العيونية التى ينتمى اليها شاعرنا ، وذلك منذ أن أسـتولى عبد الله بن على العيونى على الحكم وقضى على القرامطة سنة ٤٦٨ هـ ،

---

(١٤) ديوان ابن مقرب ـ طبعة الاحساء ، ص ٣٠٠ .

(١٥) الديوان ـ طبعة الاحساء ص ٣٠٠ ، دمياط : مدينة قديمـة تقع على الفرع الشرقى للنيل المسمى بفرع دمياط ، وقد كانت قديما تشرف على البحر الأبيض المتوسط ، أما الآن فقد طما النيـل وامتدت الأرض بعدها مسافات كبيرة . وباسق : عال مرتفـع باقت عليهم البوائق : أصابتهم الشرور والدواهى .

وبعد أن حكم عبد الله بن على مدة من الزمن توفى فخلفه أبناؤه من بعده ، ولكن أمراء الأسرة العيونية ظلوا فى نزاعات وخلافات مستمرة فيما بينهم مما أدى الى ضعفهم وطمع الأعادى فى انتزاع الحكم منهم، وهكذا استولى بنو عصفور على حكم البحرين فى حوالى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى بعد أن حكمها العيونيون قرابة القرنين من الزمن(١٦) .

وكانت الدولة العيونية تدين بالولاء — ولو رمزيا — لبغداد مركز الخلافة الاسلامية شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الاسلامية الأخرى ، وكانت العلاقات بين العيونيين وبين الخليفة العباسى علاقات حسنة وتقوم على الود والتعاون ، يدلنا على ذلك ما كان بين الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، والأمير محمد بن الحسين العيونى من احترام متبادل، حتى أن الخليفة من تعظيمه وتشريفه لهذا الأمير فرض له فى كل سنة من بغداد ألفا ومائتى ثوب من عمل مصر أكثرها ابريسيم . وفرض له فى البصرة كل سنة ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز مدة حياته .

وافتخر ابن مقرب بذلك فقال :

منا الذى كل عام بالعراق له
رسم سنى الى أن ضمن الرجما(١٧)

وحدث فى احدى السنين أن خرجت بعض قبائل الجزيرة العربية عن طاعة الخليفة وقاموا بمهاجمة قوافل الحجيج ، فشكا الحاج الى الخليفة الذى أرسل من فوره الى الأمير محمد بن الحسين يأمره بمعاقبة هؤلاء الخارجين عن الطاعة جزاء ما فعلوه بقوافل الحجيج الآمنين ، فقام الأمير محمد بجمع قبائل البحرين معه وشن حملات مظفرة على

---

(١٦) سنذكر بالتفصيل تاريخ الأسرة العيونية فى الفصل الخاص بحياة الشاعر .
(١٧) الديوان — طبعة الأحساء ، ص ٥٤٩ .

هؤلاء الأعراب وأدبهم وأثخن فيهـم ، وقبض على زعيمهم وأرسله مقيدا الى الخليفة يأمر فيه بأمره .

ولما قتل الأمير محمد بن الحسين على يد أصهاره ، استنجد ابنه الأمير فضل بن محمد بالخليفة للانتقام من قتلة أبيه ، فأمده الخليفة بخزينة كاملة فيها من العتاد والسلاح والأموال الشىء الكثير ، وحمل كل ذلك الشاعر ابن المقرب الذى كان فى ذلك الوقت فى بغداد ، واستطاع الأمير فضل بذلك أن ينتقم من أعداء أبيه ويقتلهم جميعا ، وذكر ابن مقرب قصة الطريقة فى شعره فقال :

رضى الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين أبناء النبيت وقيذر
وأمده بخزائن لو صبحت
ذات العماد لآذنت بتدعثر (١٨)

(٤)

عرفنا مما تقدم أن مصر وبلاد الشام كانت فى حالة ضعف شديدة نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الاسلامى وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم بعض الفترات التى كانت تبدو فيها البلاد متماسكة ، وقد زاد هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسى واقتصادى فى هذا المسرح التاريخى فجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من انحلال ، فلم يستطع حكام مصر وبلاد الشام أن يوحدوا كلمتهم بحيث يستطيعون الوقوف الى جانب الخوارزميين ثم الى جانب

---

(١٨) الديوان : ص ٢٢٣ ، النبيت : أبو حى من اليمن واسمه عمرو ابن مالك . وقيذار بن اسماعيل أبو العرب ، ولعله عنى بهذا عرب الشمال والجنوب .

الخلافة العباسية فى بغداد عندها هم المغـول باجتياح هاتين القوتين الواحدة تلو الأخرى(١٩) .

وقد توالت الغزوات المغولية على أقاليم الشرق الاسلامى منـذ بداية القرن السابع الهجرى ، واستطاعوا اكتساح الدولة الخوارزمية فى سهولة ويسر واخضاع أراضيها فى مدة لا تزيد على أربع سـنوات وتم لهم ذلك سنة ٦٢٠ هـ(٢٠) .

وظهر خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية فى عهد مانجوخان (٦٤٦ هـ — ٦٥٨ هـ) الذى جهز حملتين كبيرتين احداهما بقيادة أخيه كوبلاى خان كان هدفها اتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند قيادتها الى أخيه الأصغر هولاكو ، كان الغرض منها القضاء على طائفة الاسماعيلية فى فارس ، ثم الإسـتيلاء على بغداد حاضرة الخـلافة العباسـية .

وفى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ ، أرسل هولاكو رسالة الى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه فيها الى التسليم ، الا أن الخليفة لم يهتم فكانت النتيجة أن حاصر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم بعد استسلام الخليفة أعمل فيها النهب والسلب والتخريب(٢١) .

وبعد سقوط بغداد اتجه التتار نحو الغرب مكتسحين ما بقى من بلاد ما بين النهرين ، ثم خربوا حلب سنة ٦٥٨ هـ ، وقبل أن يتـم اخضاع البلاد السورية عاد هولاكو الى بلاده وخلف وراءه قائده كتبغا لغزو مصر ، فاتجه هذا الأخير الى البلاد المصرية فى نحو عشرة آلاف مقاتل ، ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، وتمكن الظـاهر بيبرس من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

---

(١٩) حافظ احمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٣٤ .
(٢٠) المصدر السابق . ص ١٤٠ .
(٢١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

هذا وقد ذكر ابن مقرب التتار والافرنج عرضا فى قصيدة يمدح بها الأمير بدر الدين لؤلؤ ومنها :

فقاد الى الافرنج جيشا زهاؤه
عديد الحصا ذا أزمل وزمازم

وجيشا يوارى الشمس ريعان نقعه
الى الترك اذ جاءوا لهتك المحارم

اذا التتر الباغون ذاقوا لقاءه
تمنوا بأن كانوا دما فى المشائم(٢٢)

وكل هذه الشواهد تدل على أن شاعرنا لم يكن غائبا عن الساحة السياسية ولا عن هذه الحوادث الجسام التى شغلت الناس وأخذت بلبهم وأثرت فى مستقبلهم أيما تأثير .

(٥)

وللتدليل على ما وصلت اليه حال العالم الاسلامى من تفكك وانحلال فى تلك الفترة فقد أوردنا بيان بحال الامبراطورية الاسلامية الواسعة وقت سقوط الدولة العباسية فكانت حالتها على الشكل التالى(٢٣) :

١ ــ كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر ، والقائم بأمرها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ هـ ــ ٦٧١ هـ) .

---

(٢٢) الديوان ، ص ٥١٧ ، الأزمل : الصوت المختلط ، والزمزمة : الصوت البعيد له دوى ، ريعان الشىء : أوله وشدته ، والنقع : الغبار ، والمشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة .

(٢٣) المستشرقة يوجينا غيانه : تاريخ الدولة الاسلامية ــ طبعة بيروت ، ص ٣٥٧ .

٢ — بشمالى أفريقيا دولة الموحدين ، والقائم بأمرهم أبو حفص عمر المرتضى من نسل عبد المؤمن (٦٤٦ هـ — ٦٦٥ هـ) .

٣ — بالجزائر الدولة الزيانية ، والقائم بأمرها يغمر أسن بن زيان (٦٣٣ هـ — ٦٨١ هـ) .

٤ — بتونس الدولة الحفصية ، والقائم بأمرها ، أبو عبد الله محمد المستنصر بالله (٦٤٧ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٥ — بمراكش ، الدولة المرينية ، والقائم بأمرها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥١ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٦ — بمصر ، دولة المماليك البحرية ، والقائم بأمرها المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ هـ — ٦٥٨ هـ) .

٧ — باليمن الدولة الرسولية والقائم بأمرها المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ هـ — ٦٧٤ هـ) .

٨ — بصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥١ هـ — ٦٨٠ هـ) .

٩ — بالروم من السلاجقة ركن الدولة قلج أرسلان الرابع (٦٥٥ هـ — ٦٦٦ هـ) .

١٠ — بماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١١ — بفارس من الأتابكية أبو بكر بن سعد بن زنكى (٦٣٣ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١٢ — ببلورستان من الأتابكية دكلى بن هزارسب (٦٥٠ هـ — ٦٥٧ هـ).

١٣ — بكرمان من دولة قتلغ خان ، قتلغ حاقون (٦٥٥ هـ — ٦٨١ هـ) .

... ألا وأن حال العالم الاسلامى بهذا الشكل ألا يحق لشاعرنا بعد ذلك أن يشكو من زمانه ونوائب دهره ؟ .

الحيــاة الإجتماعية :

(١)

... خضعت البلاد العربية والاسلامية ما بين القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق مشاهدتها فى العالم الاسلامى ، حيث كانت نظما طارئة أساسها الاقطاع الذى ساد العصور الوسطى فى أوروبا ، وكان طبيعيا والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلا بين طبقات الشعب المختلفة ، كما كان سواد الناس يتعرضون لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة فى صورة مجاعات مخيفة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساحا .

ونتيجة هذه الاضطرابات فى المجتمع وعدم التوازن فى الدخول لجأ بعض الناس الى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وكان الأدب وسيلة من وسائل الرزق — وكانت موضوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء[٢٤] ، كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق ، وظهرت جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة الا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وايوائهم ، وربما كانت الحروب الصليبية التى هددت كيان الشرق الاسلامى أول هزة عنيفة أعقبت عصر الاقطاع الذى أوجده نظام الملك منذ عهد السلاجقة وهزتهم وأثارت فيهم النخوة والحمية وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ، ويعتبرون ما يجرى على أرضهم شيئا يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم .

وكان المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت يتكون من خليط امشاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة فى طبائعها وأخلاقها من العرب والترك والفرس والروم والأرض ومن سلالات أوروبية استوطنت وتأقلمت ، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى ،

---

(٢٤) د. محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى — ص ٤٩ .

ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعا أنبت أشياء كثيرة وجديدة فى نظم المجتمع وفى العادات والتقاليد وفى الأدب والفكر والدين .

وكان العنصر البارز فى هذه الجماعات هو العنصر التركى ثم الكردى ، وقد بدأ العنصر التركى يظهر عاملا فعالا فى العالم الاسلامى منذ أيام المعتصم الخليفة العباسى ، وكان الأتراك يجلبون غلمانا من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة على أطراف الدولة الاسلامية يخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس ، وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان والاستعداد الحربى الممتاز ، مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الاكثار منهم لاستعمالهم خدما أو حرسا خاصا . وقد سبب تزايدهم اضطرابا فى المجتمع الاسلامى نظرا لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد[٢٥] .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائيا فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وان ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن متفرقة فى العراق ومصر ، ولا ننسى بلاد البحرين التى كانت تحت حكم العيونيين وهم عرب خلص أبا عن جد .

(٢)

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر مصبوغة بلون قاتم ، الا أننا لا ينبغى أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة فانه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد فقد قامت كثير من الأعمال الانشائية والعمرانية على أيدى بعض الشخصيات القوية الممتازة أمثال نظام الملك الوزير السلجوقى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، فنظام الملك هو مؤسس أول جامعة اسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية التى سميت باسمه فى بغداد ، وقد خرجت كثيرا من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد أنشأ نور الدين

---

(٢٥) حافظ حمدى ـ الدولة الخوارزمية ، ص ٣٦ .

محمود كثيرا من المنشآت النافعة فى مدن الشام ، وفى حلب ودمشق خاصة ، منها قلعة حلب العظيمة وبعض المدارس وكذلك البيمارستان وربط الصوفية والخانقاه فى دمشق • وكان لصلاح الدين نصيب وافر فى التعمير والاصلاح فى أنحاء متفرقة وبلاد كثيرة فى مصر والشام ، وأهم منشآته بمصر القلعة المعروفة باسمه على المقطم ، ثم بناء سور القاهرة الكبير وبناء المدارس الكثيرة بها ، وقد فعل بدمشق مثلما فعل فى القاهرة •

وبالرغم من أن كثرة الحروب قد أثقلت كاهل الناس والسلاطين الا أن المؤرخين يذكرون لنا من الأخبار الشىء الكثير عن مظاهر البذخ والعظمة التى صاحبت أفراحهم ومناسباتهم[٢٦] •

وقد نشطت حركة التجارة بصفة عامة فى هذا العصر على الرغم مما كان يسوده من اضطراب نتيجة للحروب المستمرة بين الشرق والغرب ، وكان لهذه التجارة أثر كبير فى حياة الناس وفى أحوال معيشتهم وفى ميزانيات الحكومات ومشروعاتها ، كذلك حصلت المكوس (الضرائب) الكثيرة على التجارة العابرة مما زاد موردها وحسن حالتها المالية بصفة عامة ، وقد ذكر الشعراء (المكوس) وتحصيلها وشكوا من الحاح المحصلين وتعنتهم ومن هؤلاء ابن التعاويذى الشاعر المعروف فى ذلك الوقت[٢٧] ، ولابن مقرب أبياتا شعرية فى هذا الجانب قالها فى هجاء ضامن المكوس بواسط لما عارضه فى بضاعة كانت معه وفيها يقول :

أسرفت فى ظلم العباد أما
للبعث فى ناديك من ذكر

وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر

---

(٢٦) راجع مفرج الكروب — ج ٣ ، ص ٢١٤ ، تحقيق د. الشيال •
(٢٧) راجع ديوان ابن التعاويذى ص ١٩٥ •

نصــف البضـــاعة حـين تظفرهـــا
مــكس لقــد بالغــت فى النـــكر

خنــت الخايفـــة فى رعيتـــه
وعصــيته فى الســــر والجهــر (٢٨)

على أن بعض الحكام العادلين لاحظوا ما يقاسيه الناس ، ويعانيه التجار من فداحة المكوس ، أو ما قد ينتج عنها من وقف نشاط التجارة أو ركودها ، أو ما قد تسببه من مضايقات لحجاج بيت الله الحرام فرفعوا بعض أنواعها وخفضوا البعض الآخر ، وممن استن هذه السنة الحميدة فى الشام نور الدين محمود ، كما أمر صلاح الدين بتخفيضها كثيرا فى سنة ٥٦٧ هـ .

وعلى الرغم من هذا كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تؤدى بالكثيرين وتؤدى الى المجاعات وانتشار الكساد ثم الأوبئة ، ولعــل أهم ما حدث فى مصر والجزيرة والموصل والشام من غــلاء ومجاعات ما كان سنة ٥٧٤ هـ ، قال ابن الأثير : « وفى سنة ٥٧٤ هـ اشتد الغلاء وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام ، وغير ذلك من البلاد ودامت الى أن انقضت السنة »(٢٩) . وفى احدى السنين أصاب « القطيف » وهى من بلاد البحرين سنة مجدبة ممحلة شـــديدة القحط ، فكانت الطيور فى البلاد تميل عن البر لفقدها الغذاء وكان أمير القطيف آنذاك أبا مقدم شكر بن أبى على الحسن بن عبد الله بن على العيونى ، وبلغ من كرم هذا الأمير أن جعل لكل جنس من الطير شيئا من مأكوله ، فللغراب التمر ، وللفواخت وغيرها الحنطة وأجناس الحبوب وينثر ذلك فى الأماكن التى تقع فيها ، ويمنع الصيادين من صيدها . وقال ابن مقرب عن ذلك :

---

(٢٨) ديوان ابن مؤب — ص ٢٢٧ ، التجار : جمع التاجر والسفر : الجماعة المســافرون .

(٢٩) ابن الأثير — الكامل ، جـ ٤ فى تلك السنة .

ومطعم الطير عام المحل فاسم بنة
هنا اذا ضن خلف الغيث فانصرما[٣٠]

(٣)

وكان للعناصر التى تكون منها المجتمع الاسلامى والتى أشرنا اليها أثر فى ظهور بعض العادات والتقاليد الغريبة عن الاسلام والعرب ، كما أن الحالة السياسية التى كان يحكم بها الناس أظهرت بعض المظالم والمفاسد الاجتماعية ، وبرزت أخلاق الملق والرياء وطغت على غيرها بين العامة والخاصة وكثر الدس ، وانتشرت الخيانة والوقيعة لدرجة تدفع بالخليفة أن ينادى (من سعى بأحد أبيح ماله) ، وفى ديوان ابن مقرب أشعارا كثيرة فى ذم أهل زمانه وأخلاقهم المرذولة[٣١] .

ومن البدع السيئة التى ابتدعها القرامطة فى البحرين وجعلوها دينا بدعة (الماشوش) : وهى أن يجتمع الرجال والنساء فى ليلة معلومة عندهم فى السنة (الليلة العاشرة من محرم وأول ليلة من برج الحمل المسمى بالنيروز) ويشعلون الشمع ويقومون ويرقصون ويختلطون ، وفيهم أخوات الرجل وأمه وبناته وعماته وخالاته ، فاذا استكفوا من الرقص أطفأوا الشمع واختلطوا وقبض كل رجل منهم يد امرأة من الجمع وواقعها سواء كانت من محارمه أو أجنبية ، ولما ملك عبد الله بن على العيونى البحرين وصارت تلك الليلة ركب الأمير أبو شكر المبارك ، وركب معه غلمانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ، فقال أحدهم : والله ما نحن فى شىء مما يضر بدولتكم انما هذا مذهب نراه فى ديننا ، فقال له الأمير : لئن اجتمع منكم اثنان على هذا الأمر لأعملن فيكم السيف لا العصا ، فأماتت هذه البدعة من البحرين فما بقيت تعرف . وقال ابن مقرب عن هذا :

---

(٣٠) ديوان ابن مقرب ، ص ٥٤٤ .
(٣١) المصدر السابق ص ١٣ ، ص ٣٥ ، ص ١٤٠ .

هـــذا الذى أبطل المانشـــوش فانقطعت
آثاره وانمحى فى الناس واتشـــما[٣٢]

وهناك جانب آخر من حياة المجتمع فى هذا العصر هو حيـــاة الرقيق من الجوارى والغلمان والاكرة عبيد الأرض ، وكانت تجــارة الرقيق رائجة يقــوم عليها جماعة من تجــار الرقيق من أهل جنــوة والبندقية[٣٣] ، وكان أثرياء الناس يتهــافتون على اقتناء الجــوارى والغلمان ليكونوا زينة لقصورهم ونتمة لأبهتها ورونقها ، وقد أثر الرقيق فى حياة المجتمع الاسلامى والعربى فى ذلك الوقت ، وزاد منه كثرة سبى الحروب الصليبية الذى أضاف الى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة أجناسا أخرى من الأرض الأوروبية واليونان وغيرهم ، وقــد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديدة ، وكان من الطبيعى أن يظهر أثر ذلك كله على أدب العصر كما سنرى ان شاء الله .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل أيضا هى ظهور ألوان جــديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل ، وكانت نتيجة طبيعية للاختلاط بين هذه الأجناس والشعوب وبين أمشاج العقائد والديانات بين المسلمين من سنيين وشــيعة ودروز وباطنية ، وحشيشــية ويهود ونصارى ووثنيين وبقايا عقائد قديمة حملتها فئات من الشعوب ذات الحضارات القديمة كالهنود والفرس الذين تركزت فى عقــولهم بعض عقائدهم كالمانوية والزرادشتية وغيرها .

هذا وقد عرف السلاجقة السنيون بتشجيعهم على بناء المدارس ودور الحديث لبث الثقافة الاسلامية السنية ، وكانت المساجد تفتــح طوال النهار لأداء فريضة الصلاة ولتعليم الدين ولقراء القرآن الكريم ، وأولى الأيوبيين عنايتهم للعلوم الاسلامية والعربية كالفقه والحــديث

---

(٣٢) الديوان ، ص ٥٥٠ .

(٣٣) وفيات الأعيان جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

والسيرة النبوية ، ويروى أن صاحب (اربل) بلغ من تعظيمه لسيرة النبى عليه الصلاة والسلام أنه دفع لأحد علماء الأندلس ألفى دينار عندما ألف له كتابا فى السيرة النبوية وهو كتاب (التنوير فى مولد السراج المنير)[٣٤] ، وقد أدى هذا كله الى وجود محصول كبير من الكتب الاسلامية التى ألفت فى هذا العصر • كما حرص المسلمون على أن يحيطوا احتفالاتهم وأعيادهم الدينية بمظاهر البهجة والسرور ، وكانوا يتبادلون التهانى ويلبسون الثياب الجديدة ويتزاورون وتزدان المدن وتزخر ما بها من مرافق دينية بجماعات المسلمين ينشدون الأناشيد الدينية ويرتلون القرآن الكريم ويقيمون الأذكار •

(٤)

هذا جانب مشرق من جوانب الحياة الدينية ، ولكن هناك جانبا آخر أقل اشراقا ، وهو ما انتاب هذه الحياة من خلافات عقيدية ومذهبية بين المسلمين أنفسهم من أتباع المذاهب المختلفة ، وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة وجهل العامة فلعبت بعقولهم ، وحاولت اجتذابهم الى بعض المبادىء الهدامة المخربة مما جعلها تنتشر فى هذا الوقت كدعوة الاسماعيلية التى استفحلت فى القرن السادس الهجرى حتى قضى عليها التتار عند اجتياحهم للشرق الاسلامى[٣٥] ، وكدعوة القرامطة قبلها التى زعزعت أركان الدولة العباسية وساعدت على سرعة زوالها[٣٦] • وكان للشعور الدينى الذى غلب على الناس فى هذا العصر أثره كذلك على الأسماء والألقاب التى تسمى بها الناس مضافة الى الدين مثل : زين الدين وصلاح الدين ونور الدين وهكذا ، ومن الظواهر التى انتشرت فى هذا العصر أيضا ظاهرة التصوف ، وهى

---

(٣٤) وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٢٢ •

(٣٥) راجع الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى — حافظ حمدى ، ص ٦٧ •

(٣٦) انظر كتاب القرامطة لمحمود شاكر ، طبعة المكتب الاسلامى ببيروت •

ظاهرة طغت على ماسواها من مذاهب ، وساعد على ظهورها وانتشارها سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى عرفناها سابقا ، وقد ساعد على انتشارها أيضا تشجيع الحكام لها سواء عن رغبة حقيقية وعقيدة عند بعضهم ، أو عن رغبة خفية ماكرة لمجرد مسايرة الشعور العام ، ولأن هذه الدعوة فى صالحهم فهى تصرف العامة عن تتبعهم وحسابهم على ما يفعلون •

وكان من الصوفية فى هذا العصر علماء ألفوا فى التصوف ، ومنهم الامام القشيرى صاحب « الرسالة القشيرية » ، والشيخ الانصارى فى « كتاب الأسرار » ، والسلامى فى « طبقات الصوفية » ، والهجويرى فى كتاب « كشف المحجوب » بالفارسية وغيرهم كثير ، ومن شيوخهم المشهورين فى القرنين السادس والسابع : نجم الدين كبرى(٣٧) ، ومحب الدين البغدادى الذى توفى سنة ٦٠٦ هـ(٣٨) •

ومن شعرائهم المشهورين عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ •

والخلاصة أن عصر ابن مقرب كما رأينا حفل بشتى الطوائف والنحل سواء الدينية منها أو التى اتخذت من الدين ستارا لتحقيق أطماعها ومآربها المشبوهة ، وكان من نتيجة اختلاط الأجناس المختلفة فى الدولة الاسلامية أن تولدت العلوم والمعارف كظاهرة ايجابية ، والعادات والأخلاق المذمومة كظاهرة سلبية وهذا كله انعكس بدوره على الأدب والفكر بشكل عام والشعر بشكل خاص •

* * *

---

(٣٧) فوات الوفيات — لابن شاكر — طبعة محى الدين ، جـ٢ ، ص٥

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

الحياة الأدبية :

(١)

اذا وصفنا هذا العصر من الناحية الأدبية بأنه العصر الفضى للأدب وأن العصر السابق عليه هو العصر الذهبى ، واذا قلنا عنه أيضا بأنه لم يكن يمتاز بالابداع والعبقرية بقدر ما كان يمتاز به من براعة الصنعة والمهارة الفنية التى غلبت الى وقت كبير على العبقرية والابتكار ، فان كلامنا هذا لا يخلو من الحقيقة[٣٩] . فالأدب فى عصرنا هذا كان حقا أدب صنعة فى أكثره وان لم يخل الأمر بطبيعة الحال من الطبع والحس الرقيق وهو أدب ترف مسخر فى أساليبه وموضوعاته لخدمة الطبقة الحاكمة والوزراء والولاة ، على أنه فى كثير من حالاته كذلك كان أدب تسلية وقطع للوقت وفيه الكثير من اللعب باللفظ والمعنى والمهارة فى اللغز والتعمية بقصد السمر والدعابة ، وكان على الشاعر فى ذلك الزمن أن يبدع فى هذا كله والا لم يكن مقربا من نفوس الرؤساء ، ومن معالم هذا الأدب فى النثر والرسائل كثرة ألفاظ المديح والاطراء ، كما أنه عرف بالافتتاحيات التى تزخر بمعانى الخضوع والذلة كقولهم مثلا : « الخادم يقبل الأرض بين يدى المولى »[٤٠] . وفرض ذوق العصر ورفاهيته على الأدب ألوانا من التعبير عمادها استخدام الخواص الصوتية للعبارات لا الألفاظ المفردة وحدها ، كما أن الشعراء برعوا فى توليد الأوزان الخفيفة التى تميل فى نغماتها الى التوقيع الراقص ، وهذا الميل أو الذوق العام لهذا اللون من الأدب جعلهم ينحرفون عن الأنماط القديمة له ، ويبتعدون عن أساليبه وفنونه ، كما نفروا من روح البداوة كل النفور ، ورقوا فى أدبهم كما رقوا فى أخلاقهم وعاداتهم ، وكل هذا ظهر فى أدابهم كما سنرى وبما أن الأدب يشمل الشعر والنثر فيلزمنا أن نستعرض هنا بشكل موجز صفات كل من هذين الفنين على

---

(٣٩) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ١٦٨ .
(٤٠) المصدر السابق .

جدة من ناحية الشكل والمضمون والموضوعات التي تطرقا اليها ومدى تعبير كل منهما عن هذه الفترة التي نتحدث عنها .

(٢)

وبادىء ذى بدء نقول أن النثر تفوق على الشعر في هذا العصر واقتحم عليه ميادينه وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء ، وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن حمل رايته الشعراء دهورا طويلة من قبل . أما الموضوعات فقد كانت هى الموضوعات التقليدية نفسها للأدب العربى ، الا أنه زادت فى هذا العصر فنون جديدة وترعرعت فنون كانت معروفة من قبل ، وقد كان هذا العصر عصر حروب متصلة بين المسلمين والصليبيين وكانت تلك الحروب سببا فى ظهور لون من الأدب يعبر عنها هو أدب القتال وما يستتبعه من وصف الجيوش وآلات الحرب والحصون ، وكان هذا مشتركا بين الشعراء والكتاب ، ومن أمثلة هذا فى النثر كثير ، وللقاضى الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة للحروب والحصون ، منذ ذلك وصفه لحصن منيع سقط فى يد المسلمين : « هو شجى فى الحناجر ، وقذى فى المحاجر ، وقد أخذ من الآمال بمخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار رئيا للدهر فى ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك — يسر الله الآخر » — كبيت الواصف للأسدين :

ما مر يوم الا وعندهما
لحم رجال أو يولغان دما(٤١)

أما المعركة التى وقع فيها حصن الكرك فقد وصفها على النحو التالى : « أما الكرك فكفأت المنجنيقات متظافرة عليه ، وحجارتها على من فيه حاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وأسبلت قناع الستائر

---

(٤١) الروضتين — لأبى شامة ج ٢ ، ص ٥٥ .

وجوهها المتبرجة ، وكل جوانبها وغرة المرتقى ، التى تتعادى فيها الهمم ، ويناشر حرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم »(٤٢) ، ومما يدخل فى أدب القتال الكتب التى ألفت فى أحوال الحرب والسلاح ، قال ابن خلكان فى « ابن صابر » المنجنيقى : « كان ابن صابر جنديا فى ابتداء أمره ، مقدما على المنجنيقيين بمدينة السلام ، ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، واشتهر بذلك ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه فى درايته وفهمه لذلك ، وصنف فيه كتابا سماه (عدة السالك فى سياسة الممالك) ولم يتمه ، وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب ، وتعبئتها ، وفتح الثغور ، وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة، والمصابرة على الحصاد والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها »(٤٣) وجمع القاضى ابن شداد لصلاح الدين كتابا فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين(٤٤).

والى جانب ذلك سجل النثر فى هذا العصر معالم الحياة والمجتمع . فكتب الكتاب عن الاضطراب الاجتماعى ووصف الأدب ارتفاع الناس وسقوطهم ، وتقلب أحوال الناس بين المجد والانحدار ، وهى أشياء ومظاهر كانت عادية ومعهودة ، حتى أن كاتبا مثل القفطى يؤلف كتابا فى : « من ألوت الأيام عليه فرفعته ، ثم التوت عليه فوضعته »(٤٥).

ومن بين الموضوعات الطريفة التى تناولها النثر أيضا موضوعات من صميم الحياة التى قد لا نجد الأدب القديم يعنى بها مثل وصف الحمامات العامة ، أو ذم بعض العادات الشاذة ، ونقد أحوال العمال والموظفين فى الدولة مثل عمال المكوس كما مر من أمثلة . ومن غريب

---

(٤٢) الروضتين — لأبى شامة .
(٤٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان — ص ٦ ، ص ٣٦ .
(٤٤) المصدر السابق — ص ٨٥ .
(٤٥) ارشاد الأديب — لياقوت الحموى — جـ ٥ ، ص ٤٨٣ .

الموضوعات موضوع ذم المدن أو مدحها ، أو هجاء الأقاليم ، وألفت كتب فى ذكر فضائل الشام ودمشق ومصر ، وربما قامت بين الأدباء مناظرات أو منافرات موضوعها المدن ، كالتى قامت بين أدباء مصر والشام حول فضائل الاقليمين ، وقد أورد أبو شامة[٤٦] أمثلة لهذه المناظرات فى الروضتين ، ونال النيل فى مصر نصيبه من انتاج الأدباء شعراء وكتابا ، وممن جرى قلمهم بوصفه ضياء الدين بن الأثير ، والقاضى الفاضل أيضا رسالة فى النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى فى كتاب « الثمرات »[٤٧] ، ومن المواضيع الأخرى كثرة ما قيل فى السيف والقلم ، ومع قدم هذا الموضوع الا أن الشعراء والكتاب قد أكثروا فيه .

ومن كتب الأقدمين التى نالت اهتمام أدباء هذه الفترة كتاب « الحماسة » لأبى تمام ، وكان له مكانة خاصة فى النفوس ، فكانوا يقرؤونه ويحفظونه ويستشهدون بأبيات منه فى كتبهم ورسائلهم ، وقد تناوله بالشرح جماعة من أعلام اللغويين كالخطيب التبريزى[٤٨] ، والبيهقى ، وغيرهم ، وبجانب « الحماسة » يأتى كتاب « ديوان أبى الطيب المتنبى » ، وكان عدة الأدباء وزاد الشعراء ، وكتاب « مقامات الحريرى » وكان يحفظه الأدباء والعلماء ولهم عليه شروح كثيرة .

وصور الأدب النثرى وفنونه فى ذلك الوقت هى نفسها تقريبا الصور والفنون التى عرفت من قبل فى الأدب العربى ، ونعنى بها الخطب والرسائل ، وزادت عليها المقامات وهى أحدثها ظهورا فى الأدب النثرى ، وكان لمقامات الهمذانى والحريرى أثر واضح فى انتشار هذا الفن الجديد ، وقوى أيضا فن القصص ، وفن الخطابة الدينية خاصة ، وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة منهم ابن الجوزى الذى كان يعظ

---

(٤٦) الروضتين — لأبى شامة — جـ ٢ ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

(٤٧) ثمرات الأوراق — لابن حجة الحموى — ص ١٣٢ .

(٤٨) الارشاد — للحموى — ص ٢٨٧ ، وص ٢١٣ .

الناس ببغداد[٤٩] ، وابن الزكى[٥٠] . وأشهر كتاب النثر فى هذه الفترة رشـيد الدين الوطواط فى الشرق ، وكان شـاعر البلاط فى دولة الخوارزميين[٥١] ، وفى الشام عماد الدين الأصبهانى المعروف بالعمـاد الكاتب الأصبهانى الذى خدم الأيوبيين بالشام ، وفى مصر نجد القاضى الفاضل الذى كان كاتب صلاح الدين وقد أوردنا أمثلة من كتاباته ، ومن كتاب النثر المشهورين أيضا ضياء الدين بن الأثير المتوفى فى بغداد سنة ٦٣٧ هـ . هذا وقد امتاز كتاب النثر بالتطويل فى كتاباتهم ، وكذلك غلب عليهم طابع السجع ، وعمدوا اليه عمدا ، وغلب على سجعهم التكلف والتصنع ، وكانوا يحاولون بكثرة لجوئهم الى التعقيـد والاسراف فى الصنعة أن يوجدوا فنا جديدا يضارع الشـعر ويفوقه ، أو كما يرى بروكلمان فى مقامات الحريرى : أنها تمثل محاولة أخيرة من جـانب الروح العربى الى التماس فن ملائم من القول خارج نطاق الشـعر التقليدى[٥٢] ، على أن هناك كتابا شذوا عن هذه القاعدة وجنحـوا فى كتاباتهم الى السلاسة والسهولة والوضوح ومنهم أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » الذى وصف فيه مغامراته فى الحرب والسلم بعبارات قصصية مبسطة[٥٣] .

(٣)

هذا عن النثر ، أما الشعر فانه بدوره سجل أحداث العصر ، وكان صورة لها وعكس مراحل الحروب الصليبية وما حصل عليه المسلمون من انتصارات ، وما نكبوا به من هزائم ، وخلد الشعر حوادث التتار المروعة وما جروه على بلاد المسلمين من تخريب واحراق وخاصة فى أواخـر

---

(٤٩) راجع رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٥٠) وفيات الأعيان — ج ٣ — ص ٣٦٥ ، ص ٣٧١ .
(٥١) الدولة الخوارزمية — ص ٨٧ .
(٥٢) بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية — ج ٢ — ص ١٧٢ .
(٥٣) المصدر السابق — ص ٢٣٣ .

القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وللأنورى الشاعر الفارسى قصيدة بسماها « دموع خراسان » يبكى فيها خراسان بعد غارة التتار ، وتدميرهم لها وقتل أهلها واشتعال النار فيها[٥٤] ، كما سطر الشعر بأبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ممن تصدوا للتتار البرابرة أو للصليبيين المغيرين وعلى رأس هؤلاء الأبطال صلاح الدين الأيوبى ونور الدين محمود ، وكان لقادة صلاح الدين وجنوده نصيب من الشعر لما أبدوه من ضروب الفروسية والشجاعة ، وقد ذكر (الغزى) الشاعر أبياتا فى جند صلاح الدين من الأتراك فقال :

فى فتيـة من جيوش التـرك ما تركت
للرعـد كـراتهم صـوتا ولا صـيتا
قـوم اذا قوبلوا كانـوا ملائـكة
حسـنا ، وان قوتلوا كانوا عفاريتا[٥٥]

وكقصيدة ابن مقرب العيونى فى مدح الملك الأشرف الأيوبى لما هزم الصليبيين فى دمياط ومطلعها :

أبر شـهودى أننى لـك عاشـق
سـهادى وسقمى والدموع الذوافق[٥٦]

ولم يكن المديح مقصورا على الأشخاص المعاصرين ، بل ان الشعراء تعرضوا فى مدائحهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى طريقها الى الشعر العربى بشكل واضح ، ومن أشهر أصحاب المدائح الامام البوصيرى ، وقصائده فى هذا المجال معروفة وأشهرها البردة والهمزية .

---

(٥٤) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٢٣٤ .
(٥٥) الجامع المختصر — ج ٣ / ٤ .
(٥٦) الديوان — ص ٢٩٢ .

أما غرض الهجاء فاتخذ فى هذا العصر طابعا مختلفا عن الهجاء التقليدى القديم فى خصائصه ومادته ، فكما تعرض الهجاء فى هذه الفترة للأشخاص تعرض أيضا للبلاد والأشياء الأخرى ، ومن أشهر الهجائين « ابن الهبارية » و « ابن عنين » ولعل الفساد الاجتماعى هو الذى ساعد على ازدهار غرض الهجاء فى هذا العصر ، وهذا العامل هو الذى دعا شاعرنا ابن مقرب الى التعريض بصفات أهل زمانه الذميمة واستكانتهم للظلم فقال :

أرى الناس مذ كانوا عبيدا لغاشم
وخضما لمغلوب وجندا لغالب(٥٧)

وظلت بعض الموضوعات التقليدية التى اعتاد الشعراء القول فيها مجالا للشعر فى ذلك العصر كذلك . ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس الشراب ، وبرع فيها جماعة مثل ابن النبيه(٥٨) ، وقد عاش فى هذا العصر جماعة من الخلعاء وأصحاب المجون من الشعراء ممن اتخذوا خلعاء العصر العباسى فى القرنين الثانى والثالث أئمة يحتذون على منوالهم ، ومن هؤلاء أبو القاسم الاسطر لأبى المتوفى سنة ٥٣٢ هـ ، ويقول عنه ابن خلكان : « وكان كثير الخلاعة ، يستعمل المجون فى أشعاره ، حتى يفضى به الى الفحش فى اللفظ »(٥٩) .

ومن موضوعات الشعر الألغاز ، وكان الشعراء يتراسلون بها ، ويقضون أوقاتهم فى عملها وحلها ، وهى تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، ونبغ فيها جماعة ، وألف فيها آخرون كتبا جمعوا فيها ما وقعوا عليه منها مثل على بن عدلان الربعى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، وله فى ذلك كتاب « عقلة المجتاز فى حل الألغاز »(٦٠) .

---

(٥٧) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٥٨) فوات الوفيات ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .
(٥٩) وفيات الأعيان ج ٣ — ص ١٠١ .
(٦٠) فوات الوفيات ، ج ٢ — ص ١٢٢ .

ونجد فى هذا العصر كذلك نماذج من الشعر الانسانى الجياش بالعواطف الانسانية العميقة ، الى جانب الألوان التى أشرنا اليها ومنهم طائفة غلبت عليهم العاطفة الدينية فصاروا ينظمون أبيات النسك والزهد بدلا من الغزل والصبابة ، ويدعون غيرهم بترك الطرق المعوجة والتزام الطريق المستقيمة كقول الشاعر :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى
ولَلمشترى دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه
بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وخاض الشعر فى العقائد ، وأصبحنا نرى شعراء المذاهب والنحل يتجادلون فى عقائدهم ومذاهبهم ، ويردون حجج المعارضين ويدلون بحججهم ، فشعراء أهل السنة يندون بالمعتزلة والشيعة الباطنية ، وهؤلاء بدورهم يردون عليهم وينتصرون لمذاهبهم ، واتخذوا من الشعر منبرا لنشر الآراء حتى تذيع بين الناس ويسهل تناقلها لسرعة تعلق الشعر بأذهان العامة .

(٤)

ولشعر هذا العصر ملامحه الأسلوبية التى تكون الصورة والشكل الفنى الذى ظهرت فيه تلك الموضوعات . وقد تنوعت المذاهب الفنية فى شعر العصر ، فنرى بعض الشعراء قد انتحوا ناحية القديم ينهجون نهجه ويصطنعون أساليبه ومعانيه ، والتزم آخرون مذهب الصنعة والبديع وجمع فريق ثالث بين المنهجين فأخذوا من القديم معانيه ، ومن الجديد أساليبه ، ومن خصائص المذهب الأول بالاضافة الى قوة الألفاظ والرصانة والنزوع الى الأغراب ، كثرة الصور البدوية ، وتعمد البدء بالنسيب على الطريقة البدوية ، واشتقاق الصور والتشبيهات والمعانى من الصحراء ومظاهرها .

وكان شعراء هذا المذهب أو أكثرهم ينفرون من الاتجاه الجديد فى الشعر والأخذ بطريقة أصحاب البديع والرقة والسهولة ، ومن أشهر أصحاب هذا الاتجاه الشاعر الطغرائى[٦١] ، والشاعر الحيص بيص[٦٢] وابن التعاويذى والأبيوردى وغيرهم ، على أن المذهب الثانى وهو مذهب البديعيين كان أكثر شيوعا ، وأصحابه كانوا هم الكثرة الغالبة فى ذلك العصر ، ومذهبهم المذهب المفضل المختار الذى يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق مع أهواءهم ، واتخذ البديعيون من الحريرى وطريقته فى المقامات نموذجا يحتذى وأكثروا فى أشعارهم من ألوان التلاعب اللفظى حتى غلب عليه التعقيد والاسراف ، الا أن كثيرا من شعراء هذا العصر الذين أعجبوا بالبديع لونا فنيا لم يغرقوا هذا الاغراق وانما تناولوا بعض فنونه بحذر وحيطة ، وهؤلاء هم أصحاب الاتجاه الثالث ، ومن أشهرهم فى ذلك العصر ابن منير الطرابلسى ، ومعاصره ابن القيسرانى وكانا من شعراء الشام ، وجرت بينهما وقائع ونوادر ، ولزما السلطان نور الدين محمود ، ولهما فيه قصائد طنانة فى المدح ، وكان يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ، ومن شعر ابن القيسرانى فى نور الدين محمود رحمه الله ، قوله :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب
وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

... هذه حالة الأدب فى تلك الفترة .

---

(٦١) انظر اتابكة الموصل — ص ٤٢ .

(٦٢) ارشاد الأريب — لياقوت الحموى ، ج ٤ — ص ٢٣٣ .

الفصل الثاني

حيـــاة الشـــــاعر

---

* اسمه ونسبه ·
* ولادتـــه ونشأته ·
* رحلاته واتصالاته ·
* ثقافتـــــه ·
* شخصيته وخلقـــه ·
* معتقـــــــده ·
* وفاتــــــه ·
* نبذة تاريخية عن وطن الشاعر ·

أسمه ونسبه وكنيته :

اتفق الرواة ومن ترجموا الشاعر فيما يتعلق باسمه واسم أبيه ، ولكنهم اختلفوا فى ترتيب أسماء آبائه وأجداده بعد ذلك حتى الجد الأعلى للعشيرة[١] ، بل اختلفوا فى الأسماء نفسها ولكننا مع ذلك يمكننا الاطمئنان الى تعريف واحد ممن ترجموا له ، وهو ابن الشعار الموصلى، وذلك لسبب ظاهر وهو أنه استقى هذا التعريف من الشاعر نفسه حيث التقى به فى بغداد سنة ٦٢٤هـ [٢] . يقول ابن الشعار بعد أن يعرف الشاعر (هكذا أملى على نسبه من حفظه)[٣] .

فعلى ذلك نقول أن شاعرنا هو : على بن مقرب بن منصور بن المقرب بن عزيز ، بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد الربعى البحرانى العيونى[٤] .

وكما اختلف الرواة والمترجمون حول نسب الشاعر ، اختلفوا أيضا حول لقبه وكنيته فنرى بعضهم يلقبه بجمال الدين[٥] ، والبعض الآخر يلقبه بموفق الدين[٦] ، وبينما يكنيه البعض بأبى عبد الله[٧] ، نرى

---

(١) انظر ابن الفوطى ـ تلخيص مجمع الآداب ـ والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن ماكولا فى الاكمال .

(٢) عمران العمران ـ ابن مقرب ـ دراسة ، ص ١٥ .

(٣) ابن الشعار الموصلى ـ قلائد الجمان فى شعراء الزمان ـ مصور بمعهد المخطوطات .

(٤) عمران العمران ـ دراسة عن ابن مقرب ـ ص ١٩ .

(٥) ديوان ابن مقرب ـ طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ ، وانظر ايضا (مخطوطات الموصل) للدكتور داود الحلبى ص ٤١ .

(٦) ابن الفوطى ـ تلخيص مجمع الآداب .

(٧) الديوان ـ طبعة الهند ، والصفدى فى الوافى بالوفيات ـ ج ٢٢، ورقة ٨٩ .

الآخر يكنيه بأبى الحسن[٨] ، وغيره يكنيه بأبى القاسم[٩] ، وهناك من يكتيه بأبى منصور[١٠] ، وعلى كل حال فانه من الجائز أن يحمل المرء أكثر من لقب وأكثر من كنيه ، وليس من اليسير بالنظر الى الاختلافات السابقة حول لقب الشاعر وكنيته الجزم بلقب واحد وكنية واحدة دون غيرهما ، ثم قصرهما على الشاعر ، ولكن بالنظر الى أن أغلب من ترجموا له لقبه بجمال الدين ، وأغلبهم أيضا كناه بأبى الحسن فيمكننا على ذلك أن نطمئن ونرتاح لهذا اللقب وهذه الكنية .

ولادتـــــه :

ولد ابن مقرب فى بلدة « العيون » من نواحى الاحســـاء شرق الجزيرة العربية ، وذلك سنة ٥٧٢ هـ[١١] ، الموافقـــة لسنة ١١٧٦ م ، وهو ينتسب الى أسرة العيونيين الذين حكموا منطقة البحرين [١٢] حينا من الدهر ، وتسمي دولتهم الدولة العيونية ومؤسسها هو عبد الله بن علي العيونى الذى قضى على القرامطة فى البحرين ، وأزال دولتهم نهائيا سنة ٤٦٨ هـ ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه ان شاء الله .

نشـــأته :

من الممكن اعتبار الفترة الأولى من حياة ابن مقرب وبالتحديد منذ مولده وحتى مطلع القرن السابع الهجرى ــ وبلوغه الثلاثين من عمره

---

(٨) ابن ماكولا في الاكمال ، وابن نقطة فى المستدرك ــ مادة ضبار ، والحافظ المنذرى فى التكملة وفيات سنة ٦٢٩ .

(٩) ابن الفوطى ــ تلخيص مجمع الآداب .

(١٠) د. داود الحلبى ــ مخطوطات الموصل ص ٤١ .

(١١) ابن الشعاد الموصلى ــ قلائد الجمان ــ والحافظ المنذرى فى التكملة ــ وفيات سنة ٦٢٩ هـ .

(١٢) كانت البحرين قديما تضم جزر اوال وساحل الاحساء كله ، أما الآن فيطلق الاسم على البحرين المعروفة فقط .

صفحات مجهولة أو شبه مجهولة فى بطن التاريخ ، ذلك لأن كتب التاريخ والتراجم تغفل الحديث تماما عن هذه الفترة من حياته ، ولا تعطينا أى معلومات تشفى غليل الباحث .

وحتى ديوان الشاعر نفسه لا يعطينا سوى معلومات قليلة جدا لا تلقى بالضوء الكافى على هذه الفترة المظلمة من حياته ، ويقول أحد شراح ديوانه عن هذا : (وهكذا كان حظ ابن المقرب بخسا فى ذكر المؤرخين له ، كما كان حظ بلاده)(١٣) ، ولو استعرضنا ما جاء فى كتب التراجم عنه من نتف قليلة لتبين لنا صدق هذا الكلام(١٤) ، وعلى أنه

---

(١٣) مقدمة الديوان — طبعة الاحساء ، ١٩٦٣ م تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو . ص ١٧ .

(١٤) ما جاء فى كتب التراجم عن ابن مقرب :

أ — ذكره ياقوت الحموى فى معجم البلدان ح٦/ص٢٥٩ بقوله « وبالبحرين موضع يقال له العيون ، ينسب اليه شاعر قدم الموصل وانها بها ، اسمه على بن المقرب بن الحسن) يذكر اسمه ..

« لقيته بالموصل فى سنة ٦١٧ ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان ، ونفق فأرفدوه وأكرموه » ثم يذكر شيئا من شعره .

ب — وذكره ابن نقطة فى كتابه « المستدرك على ابن ماكولا » فقال فى مادة ع ى ن : « واما العيونى فهو على بن المقرب بن الحسن — ثم يذكر نسبه — .. قدم علينابغداد ، شاعر محسن سمعنا منه شيئا من شعره » وذكره فى مادة (ض ب ر) فقال : « واما ضبار — بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء المعجمة بواحدة وآخره راء — فهو ابو الحسن على بن المقرب — ويذكر نسبه — ثم يقول تقدم ذكره » .

جـ — وذكره ابن الشعار الموصلى فى كتابه « قلائد الجمان فى شعراء الزمان » فقال بعد ان ذكر نسبه : (هكذا املى على نسبه من حفظه ، وهو موضع بالبحرين يقال له العيون ، أخبرنى انه ولد به فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وتوفى به فى اواخر المحرم سنة ثلاثين وستمائة ، وكان شاعرا
=

يمكن القول أن شاعرنا نشأ وترعرع بين قومه أمراء البحرين ، وغذى بلبان الشهامة والبطولة منذ نعومة أظفاره ، وشب عزيز النفس ، شديد البأس ، صلب القناة ، حاد الطبع ، وهبه الله جنابا ثابتا ، وفؤادا يقظا ، ونفسا تائقة الى معالى الأمور ، أبعدته عن مواطن الريب ، ودفعته الى طريق الأمجاد وقضى أيام شبابه وصباه فى تلك الربوع ، وكانت له أيام سعيدة فى أماكن كثيرة من بلاد البحرين مثل الثليم والجرعاء والجديد والمصلى والحصنين — ظل يتغنى بها فى كثير من مناسباته الشعرية ، ولولا أنه ذكرها فى شعره لغابت عنا كما غاب غيرها من المعلومات عن نشأته ومن حديثه عن ذلك قوله :

رعى الله (الثليم) وساكنيه
وأجراعا تكنفها الثلام

وجاد من (الجديد) الى (المصلى)
الى (الحصنين) وكاف ركام

فمسرح لذتى ومراح لهوى
هنالكم وجدتى الكرام(١٥)

=
مجودا منتجعا ، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه — وبعد أن يذكر بعض صفاته يقول : — شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وانشدنى الكثير من قوله ، ومعظم شعره يحفظه ويردده ، ولم يتوقف فى ايراده ولا يجد بذلك سامة ولا ضجر) .

ثم يورد ابن الشعار طرفا من اشعار ابن مقرب فى المدح وينتهى . وعلى هذه الشاكلة ذكرته كتب التراجم الآتية .

د — الحافظ المنذرى — « التكملة لوفيات النقلة » — وفيات ٦٢٩ هـ .

هـ — ابن الفوطى — « تلخيص مجمع الآداب » .

و — الصفدى — « الوافى بالوفيات » ... هذا كل ما جاء عنه .

(١٥) الديوان — طبعة الاحساء ص ٥٦٣ — والثلم : أن ينثلم حرف الوادى ، وكف المطر : انهل وانصب وركام : بعضه فوق بعض .

ويقول فى موضع آخر :

يامنزل الحى (بالجرعـــاء) لابرحت
تهمى بـك المـزن منهـلا عزاليهـــا

كـم لى بمغنـــاك من يـوم نعمت به
وليـلة تعـدل الدنيـا ومـا فيهـا(١٦)

كما قضى شطرا من أيام الشباب والصـبا فى أماكن من منطقـة اليمامة ذكرها فى شعره مثل (حجر) وهى قصبة اليمامة و (اجله) وهى أرض بها فقال :

للـــه أيـــام الصـــبا اذ دارنـــا
(حجر) القرى ولنـــا (باجـلة) معهد

وهذه الأيام كانت أيام صبوة وأنس ومرح :

اذ لمتـى تحـــكى الغــداف وانمـــا
أشــهى الشــعور الى العيــون الأسود

والخـــد من مـــاء الشـــباب كأنمـا
فيــه لأحـــداق الــكواعب مـــورد

كـم ليـــلة طالـــت فقصـر طـولهـا
شـــدو المزاهـر والغـــزال الأغيـــد

وترنـــم الأوتـــار فى يـــد قينـــة
غنج يدين لها (الغريض) و (معبد)(١٧)

---

(١٦) الديوان — ص ٦٥١ — الجرعاء : الرملة الطيبة المنبت ، همى المطر : سال بغزارة ، العزلاء : مصب الماء من القربة ، ويقال أنزلت السماء عزاليها ، اشارة الى شدة وقع المطر .

(١٧) الديوان طبعة ١٨ حساء ص ١٦٠ (الغداف : يطلق على غراب القيظ والشعر الاسود الزهر : العود ، الأغيد : الوسنان المائل العنق ، والغنج : الجارية ، والغريض ومعبد : مغنيان مشهوران) .

هذا ما استطعنا معرفته عن نشأته أخذا من شعره نفسه ، ولما شب عن الطوق ، تحركت فى نفسه روح الطموح الى المجد ، وظهرت عليه مخايل النباهة والنجابة ، ووشت شاعريته بمواهب عظيمة وآمال بعيدة توجب حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، فلا عجب أن نراه بعد ذلك شاعرا مغلقا ، تورى كلماته نار الحرب ، وتهز قصائده فؤاد الجبان ، فلماذا هو مقدم على الهول ثابت عند اليأس ، ولقد أثار هذا كله التفات الناس ودهشتهم ، وخاف أمراء الأسرة العيونية على ملكهم من هذا الشاعر الفارس ، ونقم عليه الأعداء والوشاة ، وأوغروا صدر أبناء عمه واستعدوهم عليه ، فاجتاحوا أمواله ووضعوا العقبات فى طريقه ، بل وصل الأمر الى القائه فى السجن •

ونقرأ فى مقدمة احدى النسخ المخطوطة لديوان الشاعر هذا الكلام : (وما كان من مقاله فى آل أبى المنصور على بن عبد الله بن على فهو مصانعة منه واستدراج ، وكف لعادية شرورهم ، واقطاع ، ولم يكن ليمدحهم على اختيار ، ولا وقع ما وجد فيهم من شعره على ايثار ، والسبب فى ذلك أن الأمير الاجل محمد بن على بن عبد الله ، لما ملك الاحساء ، وهى البلدة التى بها وطنه وفيها مملكته وسكنه ، اجتاح جميع أملاكه من طريف وتالد ، وحاز الصامت والناطق ارضاء للعدو الحاسد، ولم يبق له صفراء ولا بيضاء ، ولا راعى فيه حق النسب والولاء ، ثم لم ينفعه ما صنع بثرائه وسلب من نعمته وغنائه ، بل ضيق عليه فى السجن والأصفاد ، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرصاد ، وبالغ فى مكروهه وأذاه ، ولم يكن لأمر جنته يداه ، وانما وشى به حساد بيته حرصا على اطفاء فضله وصيته ، وسعى به الى آل أبى المنصور أعادى مساعيهم ، وأرادوا اخماد شرفهم بالاساءة الى مواليهم ، وأقام فى السجن مدة ، وأخرج عنه بعد جهد وشدة ، ليث فى البلاد على غاية

من انكسار القلب لما أولاه من الأذى أهل القرب ، كما قال طرفة : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة — على المرء من وقع الحسام المهنــد • ثم خرج عن الاحساء الى ناحية العراق ، وكان بعض ما لقى منهم يوجب النأى عنهم)[١٨] بالاضافة الى وشاية الأعداء فان هناك سببا آخر جعل أبناء عمه يعادوه ويكيدوا له ، وهذا السبب هو انتقاداته الدائمة لهم ولأسلوبهم فى معالجة الأمور وتهاونهم مع الأعداء الطامعين ، ذلك أن ابن مقرب عاصر الفترة التى ضعف خلالها الحـكم العيونى وتعرض للمنافسات الداخلية ، والفساد وللأطماع الخارجية ، وخاصة من جانب الأعجــام الطامعين فى الســيطرة على البــلاد ، وقــد شــاهد بأم عينه مدى التناحر والانشــقاق فى الأسرة العيونية وطمع كل أمير فى الاستئثار بالملك حتى تجزأت بــلاد البحرين الى امارات بين أسرته ، وظل كل أمير يثب على ابن عمه أو أخيه فيغتاله أو يقتله دون مراعاة لروابط القربى[١٩] ، فبازاء هذا الوضع وقف الشاعر موقف الناصح لقومه وعشيرته يحاول أن ينبههم الى ما يحيط بهم من أخطاء مذكرا لهم بماضيهم التليد ومآثرهم الخالدة ، وأمجادهم القديمة ، لكن حديثه هذا يذهب أدراج الرياح ، ليس هذا فقط ، بل يجلب عليه نقمة أمراء أسرته فيقدمون أعداءه ويؤخرونه ، ويأخذون برأيهم فى حرمانه ونفيه ، ويشير الى هذا السبب أحد الكتاب بقوله : (وبالرغم من أن ابن المقرب ينتمى الى أسرة الأمراء العيونيين ، فانه رفض مجاراتهم ، ووقف منهم موقف الناقد الناصح المعارض ثم موقف الثائر المتمرد عندما لم ينفع نقــده ونصحه •••) ثم يقول (وبسبب هذا الموقف تعرض ابن المقرب للسجن فى شبابه المبكر ، وعندما خرج من السجن كان شعلة من الثورة ضــد الأوضاع الفاسدة فحاربوه وسدوا أمامه كل سبل العيش الشريف ،

---

(١٨) الديوان — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ، ٥٢٢ ادب .

(١٩) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود — ط ٣ ، ص ٢٧٦.

فاضطر الى المهاجرة من وطنه الى العراق ، حيث بقى مدة طويلة)[٢٠]، وبعد خروج ابن مقرب من السجن وحيال التضييق عليه لم يجد أمامه مندوحة من مغادرة الوطن فرحل عن الاحساء على مضض الى القطيف ، ثم سافر الى البصرة وواسط وبغداد وديار بكر ، وأخذ يتصل بالولاة والأمراء هنا وهناك ، وأنشد فيهم الأشعار فأكرموه وأحلوه مكانا طيبا من مجالسهم ، ثم دفع به الحنين الى العـودة الى وطنه الاحسـاء ، وأنشد القصائد فى بنى عمه الأمراء آملا فى استجابتهم وترك الاصغاء الى الواشين ولكنهم لم يصيخوا له سمعا ، ومن شعره فيهم قوله من قصيدة يخاطب بها الأمير محمد بن ماجد ويستعطفه كى يرد عليه أملاكه المسلوبة :

أبـا ماجـد أنظـر الى ذى قرابـــة
بعين رضـــا يغضى لهـا الخائن الخب

فان الـوداد المحـض مـالا يشـــوبه
اختلاب وبعض القـوم شـيمته الخلب

الى أن يقول :

فصـن حـر وجهـى عن سـؤال فانـه
على ولـو عـاش ابن زائـدة صـعب

ورد كثـيرا من يسـير تقت بـــه
فراخا قد استولى على ربعها الجدب[٢١]

---

(٢٠) محمد جابر الانصارى ــ لمحات من الخليج العربى ــ طبعـة أولى ، ص ٣١ــ٣٢ .

(٢١) الديوان ــ طبعة الاحساء ص ٣٣ ــ والخب : الخداع ، الاختلاب والخلب : الخديعة . معن بن زائدة : من اشهر اجواد العرب ، الجدب : القحـط .

فوعده الأمير محمد وعدا جميلا وتكفل له بقضاء حاجته ورد ما أخذ منه ، ثم أبطا بالوفاء ، فاستنجزه وعده وإستعطفه بقصيدة ثانية مطلعها :

أمن دمنــة بــين اللــوى والدكـــادك
شــغفت بتذراف الدمــوع السوافك(٢٢)

ولكن الأمير بتأثير الحساد والوشاة ماطله فى وعوده ولم يف له بشىء ، ثم ان الشاعر خاف على نفسه ، فخرج الى القطيف ، وهناك أخذ ينظم الشعر محاولا أن ينفى عن نفسه شجونها فقال :

الى كـم مناجــاة الهمــوم العـــوازب
وحتى م تأميــل الظنـــون الــكواذب

أمــا حــان للعضــب اليمانى أن يــرى
بيمنـــاك كالمخــراق فى كف لاعب(٢٣)

ثم انه مدح والى القطيف الأمير فضل بن محمد عله يصــل من ورائه الى شىء من أملاكه المغتصبة فمدحه بقصيدة مطلعها :

تجــاف عن العتبى فمــا الذنب واجــد
وهــب لصروف الدهــر مــا أنت واجد

اذا خانــك الأدنى الــذى أنت حزبــه
فــلا عجبــا ان أسـلمتك الأباعــد(٢٤)

---

(٢٢) ديوان ابن مقرب — طبعة الاحساء ، ص ٣٠٥ ، والدكدك من الرمل : الأرض التى فيها غلظ .

(٢٣) المصدر السابق — ص ٦٤ ، والعوازب : البعيدة ، العضب : السيف القاطع ، المخراق : المنديل يلف ليضرب به .

(٢٤) نفس المصدر — ص ١٤٠ .

على أنه لم يحظ منه بطائل فعاد الى الاحساء ، ثم غادرها الى الموصل من بلاد العراق ، وهكذا قضى ابن مقرب آخر عمره كالطـريد الشريد محروما من أمواله وأملاكه وشاهد معاول الهدم فى كيان الدولة العيونية تعمل عملها فنصح قومه وحذرهم لكن أحـدا لم يعره أدنى اهتمـام .

ومن صرخاته فيهم :

ايـه بقايـا عبـد قيس انـه
لا خـير فى مـاض بـكف جبـان

لا تسـقطن من هامـكم وأنوفـكم
همـم الرجـال وغـيرة الفتيـان(٢٥)

وغير هذا كثير الا أن أحـدا من قومه لم يستمع له ولم يأخـذ تحذيراته مأخذ الجد والاهتمام .

رحـلاته واتصـالاته :

كان حتما على الأمير ابن مقرب صاحب الهمة والطموح وقد وقف منه قومه موقف العداء والمجافاة أن ينأى عنهم ويبتعد بنفسه لا حبا فى الغربة ولا قلى عن الأهل والأوطان بل بسبب ما ذكرنا ، ولذلك كثرت رحلاته وتنقلاته بين بلده وما جاورها من أمصار طلبا للحرية وابتعادا عن الضيم والذل :

مـالى أجمجـم فى صـدرى بلابـله
ومنـكب الأرض ذو منـأى ومتسـع

---

(٢٥) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٦٣٦ ، ايه : كلمة استزادة ، واستنطاق .

وكـــل أرض اذا يممتهـــا وطـــن
وكل قـوم اذا صـاحبتهم شـيعى(٢٦)

ويقـــول :

أقيمـا على حـر المـدى ، أو ترحـلا
فلسـت براض منـزل الهـون منـزلا

ولا تسـألانى أيـن ترمـى ركائبـى
فمـا لكمـا أن تسـألمانى وتسـألا

فقـد سـئمت نفسى المقـام وشـاقنى
ركـوب الفيـافى مجهـلا ثـم مجهـلا

وكيف مقـامى بـين أوباش قـرية
أرى الرأس فيها من بها كان أسفلا(٢٧)

ويشرح سبب بغضه وابتعاده عن الأوطان فان الحب والبغض لابد لهما من سبب :

لا تحسـبوا بغضى الأوطـان من مـلل
لابـد للـود والبغضـاء من سبب

قـل ، وذل ، وخـذلان وضـيم عـدى
مقـام مثـلى على هـذا من العجب(٢٨)

---

(٢٦) المصدر السابق — ص ٢٧٧ — الجمجمة : إخفـاء الشىء فى الصدر ، والبلبال : البرحاء فى الصدد ، والمنكب : ناحية كل شىء ، ويممتها : قصدتها ، شيعى : أنصارى .

(٢٧) نفس المصدر — ص ٣٦٤ — والمدى : جمع مدية وهى السكين ، والهون : الذلة والضعف .

(٢٨) الديوان — ص ٧٦ ، وقل : بكسر القاف قلة المال ، وبضمها : الفرد لا أحد له .

فليرحل لحياة العز أو لموت كريم :

سأرحل رحلة تذر المطايا
وشارفها الخدية كالاهان
فاما أن أعيش مصاد عز
لجنى عليه أو لجانى
واما أن أموت وما عليها
سوى من خافنى أو من رجانى[٢٩]

وكانت أولى رحلاته خارج البحرين الى أرض (اليمامة) قام بها وهو صغير وقضى هناك شطرا من أيام الصبا ، وأشار الى ذلك فى شعره بقوله :

لله أيام الصبا اذ دارنا
(حجر) القرى ولنا (باجله) معهد[٣٠]

وهذه الرحلة لم يتصل فيها بأحد من الأمراء أو الأعيان ، أما بعد ما كبر ، وحدث له ما حدث من جفاء وعداء مع قومه اضطر الى الرحيل فاتجه الى (بغداد) عاصمة الخلافة الاسلامية و (مكث بمدينة السلام أشهرا معدودة على طريقة من الخير مرضية محمودة ، لم تتنكرها نفسه الأبية ، وهمته العلية اللوذعية ، ولا تعرض لأحد بمديح ، ولا توخى منحة من ذى وجه صبيح ، ولا دنس عرضه بسؤال ، ولا تعرض لأجل المال ، لأنه يرى أن قدره يجل عن التعريض للنوال والقيام بين يدى عراقى وغيره بنطق مقال ، ثم عاد الى هجر البحرين من تلك الناحية

---

(٢٩) المصدر السابق — ص ٦٢٦ ، الشارف من الابل : المسن ، وحذى البعير : أسرع ، والاهان : العرجون ، والمصاد : الهضبة العالية .

(٣٠) الديوان — ص ١٦٠ .

مؤملا زوال الشحناء الجارية ..)[٣١] ، عاد ابن مقرب من بغداد يحدوه الأمل الوطيد بأن الفتنة قد انتهت ، وأن أوار الأحقاد قد انطفأ وأن صفحة من الحب والصفاء قد فتحت لتحل محل صفحات البغض والخصام ، وهذا التفاؤل كان بسبب أن السلطة قد انتقلت من بنى عمه آل على بن عبد الله — وهم الذين اضطهدوه — الى بنى عمه آل فضل ابن عبد الله ، وهؤلاء كانوا معه على وفاق ومودة ، ولذلك فان شاعرنا حالما وطئت قدماه أرض الاحساء قصد أميرها محمد بن ماجد آل فضل وأنشده قصيدته البائية ومطلعها :

خـــذوا عن يمـــين المنحنى أيهـــا الركب
لنسأل ذاك الحى : ما صنع السرب ؟[٣٢]

وفيها يستعطف الأمير أن يرد اليه أملاكه ، فوعده هذا وعدا جميلا بأن يرد اليه أملاكه ولكن ابن مقرب طال انتظاره ، فأنشد قصيدة أخرى يستنجز الأمير وعده اياه :

أمن دمنـــة بين اللـــــوى والدكــــادك
شـــغفت بتذراف الدمـــوع السوافك[٣٣]

ورغم ذلك لم يحظ من الأمير بشىء ، بل طالت مماطلة هذا الأخير على مدى الأيام ، وكان ذلك بسبب الوشاة أيضا ، فقد أوعزوا صــدر الأمير عليه وأوهموه بأن مطالب الشاعر بعيدة المرامى ، وأن مطالبته برد أمواله وأملاكه ستعقبها مطالب أخرى لا نهاية لها ، وهكذا فان الأمير محمد بن ماجد استمع لهم وانصاع لرأيهم ولم يف للشــاعر بشىء ،

---

(٣١) مقدمة الديوان — طبعة الهند ، وطبعة الاحساء ص ٧ .

(٣٢) الديوان — ص ٢٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ، والدكدك من الرمل : الأرض التى فيها غلظ .

ورغم ذلك فان ابن مقرب ضرب صفحا عن هجو هؤلاء الوشاة احتقارا لقدرهم واستصغارا لشأنهم ، ثم انه خاف على نفسه منهم فرحل الى القطيف ، وهناك امتدح الأمير فضل بن محمد العيونى بقصيدتين ، وأقام هناك مدة ، ولكنه أيضا لم يظفر من ورائه بطائل ، فعاد مرة أخرى الى الاحساء ، ولكنه هذه المرة لم يراجع الأمير محمد بن ماجد بشىء ثم ان أبو القاسم محمد بن مسعود العيونى قتل ابن أخيه محمد بن ماجد وصعد على أريكة الحكم مكانه ، فمدحه ابن مقرب بقصيدتين عصماوين ، كما امتدح ولده الفضل بقصيدتين من عيون شعره ، غير أن الفضل هذا فى أواخر أيامه بات مستبدا غشوما أحزق التصرفات ، فعاث فى أملاك عشيرته ، وأقطعها للأباعد والغرباء ، فعاتبه ابن المقرب على هذه السياسة الرعناء عتابا شديدا ، ثم رأى أن يبتعد عنه كلية ، فرحل الى (العراق) مرة ثانية ، وحالما وصل الى هناك جاءته الأنباء بأن الامير على بن ماجد قد ثار على قتلة أخيه ، واسترد السلطة فى الاحساء ، فعاد ابن مقرب مسرعا الى بلده ، وامتدح اميرها الجديد بقصيدة منها :

صدت فجذت حبل وصلك زينب
تيها ، وأعجبها الشباب المعجب(٣٤)

ولم يمدحه الا قطعا لألسنة الحساء حتى لا يقولوا انه لم يمتدحك مثلما مدح اخوتك والذين من قبلك(٣٥) ، وبعد أن زال عرش هذا الأمير كحال من سبقه ، وتولى بعده الأمير مقدم بن غرير العيونى لم يمتدحه الشاعر بشىء ، وذلك لسوء طباعه وخسة أخلاقه ، ومن ثم شد ابن مقرب رحاله قاصدا العراق وذلك للمرة الثالثة ، وتوجه صوب (الموصل) وديار بكر ، وكانت نيته أن يفد على الملك الأشرف بن العادل الأيوبى(٣٦)

---

(٣٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٨٤ ، وجذ الحبل : قطعه .
(٣٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٩ .
(٣٦) الملك الأشرف : هو موسى بن محمد العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، توفى سنة ٦٣٥ هـ .

صاحب الجزيرة الفراتية ، ووصل الى الموصل سنة ٦١٨ هـ ، ويبقى بها حيث سمع أن الملك الأشرف قد غادر بلاده عندما استصرخ داعي الجهاد نخوته الاسلامية ، فنهض هو واخوته وجنوده للقاء الأفرنج ونزل (دمياط) فبعدت الشقة بينه وبين الشاعر الذى كان يمنى نفسه بلقاء هذا الملك والحضور عنده لما بلغه من الولوع بذكره والحرص على أن يمتدحه بشيء من أشعاره[٣٧] ، ولما وردت عليه وهو بالموصل أنباء انتصارات الملك الأشرف على الصليبيين فى دمياط نظم قصيدة بهذه المناسبة أشاد فيها ببطولة هذا الملك وكفاحه ومما جاء فيها :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرعه وهو باسق

يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق

وقد جاءت الأفرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق[٣٨]

وقبل ذلك انتصل فى الموصل بواليها بدر الدين لؤلؤ[٣٩] وامتدحه بقصيدة مطلعها :

حطوا الرحال فقد أودى بها الرحل
ما كلفت سيرها خيل ولا ابل[٤٠]

وقد أشار الى هذه الرحلة ــ الرحالة العربى (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان ، وذكر أنه لقى الشاعر بالموصل فى تلك السنة ، وسمع

---

(٣٧) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ١٠ .
(٣٨) المصدر السابق ــ ص ٣٠٠ .
(٣٩) هو لؤلؤ بن عبد الله الاتابكى ، أمير الموصل ، كان عالى الهمة وقد طالت أيام حكمه، توفى سنة ٦٥٧ هـ .
(٤٠) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٤٣٩ .

شيئا من شعره[٤١] ، وعندما هم ابن مقرب بمغادرة الموصل ودع بدر الدين بقصيدة من عيون شعره مطلعها :

انـــزل لتـــلثم ذا الصـــــعيد مقبـــــلا
شـــرنا واجـــلالا لمـــــولى ذا الملا[٤٢]

وفى احدى سفراته الى بغداد التقى بالنقيب تاج الدين اسماعيل ابن النقيب جعفر العـــلوى الحســـنى وحضر مجلسه ، فخلـــع عليه ابن النقيب بخلعة ثمينة وامتدحه ابن مقرب بقصيدة :

(تخفى الصــــبابة والألحــــاظ تبديها
وتظهر الزهد بين النـــاس تمويها[٤٣])

ومن الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم شاعرنا واتصل بهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله احمد بن المستضىء[٤٤] ، اتصل به فى بغداد سنة ٦١٣ هـ ، وخصه بجليل العبارة ورفيـــع الخطاب ، وكان ينشـــده قصائده بين الحين والآخر ، ومن مظاهر صلتهما القوية أن الشاعر فى احدى سفراته ، حمـــل خزينة من الخليفة العباسى الى الأمير فضـــل ابن محمد العيونى ليضرب على أيدى المفسدين ويؤدب الخارجين على الدولة وينتقم من قتلة أبيه . ومن أجود مدائح ابن المقرب فى الخليفة الناصر قصيدة :

أمـــارات ســـــر الحـــب مالا يـــــكتم
وأبـــين شـــــىء ما يجـــــن المتيـــــم

(٤١) معجم البلدان ــ لياقوت الحموى ــ ج ٦ ــ مادة « العيون » ص ٢٥٩ .
(٤٢) الديوان ــ ص ٤٢٢ .
(٤٣) المصدر السابق ــ ص ٦٤٩ .
(٤٤) الخليفة الناصر ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة ٥٧٥ ، وطالت مدة خلافته ــ توفى سنة ٦٢٢ هـ .
(٤٥) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٤٤٨ ، أبين شىء : اظهره ، ويجن : يســـتر .

وأخـــرى :

أرتهـــا المـــآقى مـــا تـــكن الجـــوانـــح
فبـــح فالمعنـــى بالصـــبابة بائـــح[٤٦]

وثالثة مطلعها :

الام أناجـــى قـــلب حـــيران واجـــم
وأنظـــر عـــودى بين لاح وعاجم ؟[٤٧]

وفى بغداد أيضا اتصل بأحد رجالات الخليفة الناصر المبرزين وهو فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدوامى ، وذلك سنة ٦١٤هـ ومدحه بقصيدة مطلعها :

دعـــوه فخـــير الرأى أن لا يعنفـــا
فلو كان يشـــفى داءه اللوم لاشتفى[٤٨]

ومن أعلام الأدب المشهورين الذين التقى بهم فى بغداد الأديب البارز (ابن الشعار الموصلى) صاحب كتاب « قلائد الجمان فى شعراء الزمان » وذلك سنة ٦٢٣ هـ ، وذكره ابن الشعار بعد ذلك فى كتابه آنف الذكر وأشاد بفضله وذكر طرفا من أشعاره .

ومر فى احدى رحلاته ببلدة (واسط) واتصـــل بعاملها الأديب عميد الدين أحمد بن جعفر المعروف بابن الدبيثى ، فمدحه أول الأمر ، ثم عاد فصب عليه جام غضبه بهجاء لاذع ، وذلك بسبب واقعة بينهما ، حيث تروى الأنباء أن ابن مقرب كان مارا ببلدة واسط ومعه بضاعة من حديد ، ففرض ابن الدبيثى عليها — بواسطة عماله — مكوسا عالية ،

---

(٤٦) المصدر السابق — ص ١٢٠ .
(٤٧) نفس المصدر — ص ٤٩٠ ، لحا العود : قشره ، وعجم العود : اختبـــره .
(٤٨) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

مما أغضب الشاعر ، فهو ما كان يتوقع هذه المعاملة من ابن الدبيثى خصوصا وأنه مدحه بقصائد من شعره ، وازاء هذا الصنيع هجاه ابن مقرب بقصائد مقذعة لاذعة ، يقول فى احداها :

بع (واسطا) بالنأى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
لرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها على الكفر

ومثله لا يستحق المدح :

ألا فمثلك لا أجود له
بالمدح فى نظم ولا نثر

ويطلب منه أن يرد عليه مدائحه فيه :

أردد على بلا مراجعة
ما خاننى فى نظمه فكرى(٤٩)

ومن أشهر أمراء عصره الذين كانت تربطه بهم صلات قوية أمير البصرة (شمس الدين باتكين)(٥٠) فكان يفد عليه كلما مر بالبصرة وقد قال فيه قصائد كثيرة منها قصيدة مطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه من الغمض السهادا(٥١)

---

(٤٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٤ ، وصبأ : خرج من دين لآخر .

(٥٠) هو باتكين بن عبد الله الرومى الناصرى ، كان واليا من الشعراء العلماء توفى فى بغداد سنة ٦٤٠ هـ .

(٥١) الديوان : ص ١٨٢ .

وأخرى مطلعهـا :

كــره اللـه مـا أحـب الأعــادى
وأبى مــا أراد أهــل العنــاد(٥٢)

وقال يودعه حين أراد الخروج من البصرة :

أبـا شـجاع رعـاك اللـه من مـلك
سـما فمـا مثـله فى الناس من أحـد
أمـا الفــراق فتأتينــا رواحـلـه
غـدا ويحـدجن للترحـال بعـد غـد
واللـــه يعـــلم أنى لا أســربه
لكن أخـاف شـقاء الأهـل والولد(٥٣)

وعدا هؤلاء الأمراء والأعيان والملوك الذين التقى بهم الشاعر فقد كان على صلةوثيقة بعلماء واسط بغداد كالفقيه العالم الشافعى محب الدين الواسطى(٥٤) ، ومدحه ابن مقرب بشعر له ، وكالأديب البغدادى ابن نقطة صاحب كتابى (التقييد) و (المستدرك على الاكمال) وقد ذكر هذا الأديب شاعرنا فى كتابه الأخير مثنيا عليه ، والتقى أيضا بالعالم الحنبلى عبد الله بن الحسين العكبرى(٥٤) لواء أهل العربية والأدب والفرائض ببغداد ، وقد حكم لابن مقرب بالتفوق فى الشعر .

والخلاصة التى نخرج بها من كل هذا هى أنه وان كانت الظروف القهرية قد دفعت بابن مقرب الى النأى والهجران الى خارج وطنه الا

(٥٢) المصدر السابق — ص ١٩١ .
(٥٣) الديوان — ص ١٥٩ ، وحدج الراحلة : شد عليها الحدج وهو شىء كالمحفة لحمل النساء .
(٥٤) من اهل واسط ، وكان خيرا دينا ، وله معرفة تامة بمذهب الشافعى والفراض والحساب ، توفى سنة ٦١٩ هـ .
(٥٥) من ائمة اللغة واشتغل بالأدب والفرائض والحساب ، وهو شارح ديوان المتنبى — توفى فى بغداد سنة ٦١٦ هـ .

أن هذا التقلب فى البلاد المختلفة أفاده جدا ودفع به الى مجالس العلم ومحافل الأدب مما عاد على شاعريته بأنفع الأثر وأقواه ، وأكسبه هذا التنقل أيضا خبرة ومشاهدات انعكست بدورها على شعره بشكل كبير •
ومن الناحية التاريخية فان شعره هذا يتيح لنا الوقوف على مدى الروابط بين قطرى البحرين والعراق فى ذلك الزمن الذى انقطعت فيه الصلات أو كادت بين أجزاء العالم الاسلامى •

ثقافته :

بقيت مصادر الثقافة الأساسية فى القرن السادس والسابع الهجريين هى هى لم تتغير عما قبل ، وأهمها القرآن الكريم والحديث وعلوم السيرة النبوية واللغة العربية وآدابها وتاريخ العرب وأيامهم ، والشاعر ابن مقرب استقى من جميع هذه المنابع الشىء الكثير ، هذا الحكم نقرره بعد القاء نظرة بسيطة سريعة على شعره الذى بين أيدينا الذى نشك أنه يمثل كل شعره •

وعلى الرغم من أن ابن مقرب لا يذكر لنا فى شعره شيئا عن أساتذته أو من تتلمذ عليهم ان كان ذلك الا أننا نستطيع الاستنتاج بأنه تتلمذ على يد أساتذة ومربين وذلك من عدة أمور :

أولاها :

معرفتنا أنه أمير من أسرة مالكة ، وجرت العادة أن الملوك والأمراء كانوا يأتون بالأساتذة والمربين المشاهير فى عصرهم لتأديب أولادهم •

وثانيا :

أمر واضح فى شعره وهو سعة اطلاعه على تاريخ بلاد البحرين وتاريخ أسرته ومواقف رجالاتها كما يتبدى بكثرة فى مدائحه لهم • وهذه النقطة بالذات تدفع الباحث الى الجزم بأنه أخذ هذا التاريخ عن الملمين بهذه الناحية حتى ولو كان والده على الأقل •

على أن أبرز معالم الثقافة عند ابن مقرب تضلعه فى علوم العربية وآدابها ويتبدى ذلك فى مراعاة قواعد العربية بكل دقة وأيضا فانه أشار فى شعره الى أن أحد ألوية العربية وأئمة اللغة والأدب فى زمانه قد شهد له بالتفوق والسبق على من تقدمه وهذا الامــام هو الشيخ العــلامة أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى الحنبلى، وما كان هذا العلامة ليشهد للشاعر بذلك لو لم يكن الأخير مبرزا فيها ، ويقول ابن مقرب فى ذلك :

لقــــد تقدمـت ســـبقا من تقــدمنى
ســــنا وأدرك شــــأوى فارط الأول

بذاك قـــدوة أهــل العــلم قاطبــــة
أبو البقــاء محب الدين يشــهد لى[٥٦]

والمجال الثقافى الآخر الذى برز فيه شاعرنا هو التاريخ وأيــام العرب الماضية ، سواء ما كان يختص بتاريخ بلاده وأسرته أو التاريخ العربى والاسلامى عموما فهو يذكر فى قصــائده الشىء الكثير من هذه المعلومات التاريخية مما يشهد بتبريزه فى هذا المجال[٥٧] . ولا شك أن المامه بالتاريخ أفاده فى ترصيع مدائحه لأمــراء أسرته وغيرهم بذكر مواقفهم السالفة والاشادة بها .

وكذلك له بعض الاقتباسات من القرآن الكريم تشهد بأنه استقى من هذا النبع العظيم كمصدر للثقافة من ذلك قوله :

ولا تهنـــوا واستشعروا الصــبر جنـــة
وعزمــا فمــا للحرب الا اعترامهــــا

---

(٥٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٨٢ ، الشأو : المـــدى والغاية ، فارط الأول : بعيدة .

(٥٧) راجع الديوان ص ٢١٩ ، ص ٣٥٠ ، ص ٥٢٦ .

فانكم ان تألموا فعدوكم
كذاك وللأمر العظيم عظامها(٥٨)

وقوله :

العابد المجيى قياما ليله
اذ ناشئات الليل أقوم قيلا(٥٩)

وكما قلنا فان كثرة رحلات الشاعر وتقلباته فى مجالس الأدب والعلم كان مصدرا آخر من مصادر اكتسابه العلم والخبرة ، والاحتكاك بالناس زوده بالتجارب التى انعكس أثرها على شعرب فصقلته وزادته قوة على قوة . وهكذا فان ابن مقرب أخذ من ثقافة عصره وزمانه أوفاها وأعظمها ، وبرز فى نواحيها المختلفة بشهادة علماء عصره وأهل زمانه ، وبشهادة شعره الذى بين أيدينا ، والذى يعطينا الدليل تلو الدليل على طول باع صاحبه فى مجال الثقافة والأدب كلاهما .

شخصيته وخلقه :

ان من يقرأ شعر ابن مقرب يتبادر الى ذهنه لأول وهلة أن وراء هذا الشعر شخصية متميزة تأسر القارىء وتفرض نفسها عليه ، وللحق فأن شعره يمثل نفسيته أوضح تمثيل ، ويعبر عن حقيقته أصدق تعبير ، ان هذا الشعر يمثل صاحبه من ناحية العزة والقوة وسمو القدر وصدق الرجولة وبعد الهمة ، كيف لا وهو القائل :

لا صاحبتنى نفس لا تبلغنى
مراتب العز لو فى ناظر السبع
سيصحب الدهر منى ماجد نجد
لو داس عزنين أنف الموت لم يرع

(٥٨) الديوان — ص ٤٦٣ ، ولا تهنوا : لا تضعفوا ، وجنة : وقاية .
(٥٩) المصدر السابق ص ٤٠٨ .

وبين جنبيه عزم وهمم لا يسعها هذا الدهر :

وبـــين جنبـــى عـــزم يقتضى هممـــا
لو ضمها صدر هذا الدهر لم يسع(٦٠)

وعنده صبر الكهول والقدرة على تحمل نوائب الدهر :

كـم عايــن الدهـــر منى صـــبر مكتهل
اذ ليس يوجـــد صـــبر العود فى الجذع
وكم ســـــــقانى من كأس على ظمـــأ
أمر فى الطعم من صـــاب ومن ســـلع

ومن شيمه الوفاء للأخلاء والصفح عن المسيئين :

ســـل الأخـــلاء عنى هـــل صـــحبتهم
يوما من الدهـــر الا والوفـــاء معـــى
ألقى مسيئهم بالبشـــــــر مبتســـــما
حتى كأن لم يخن عهـــدا ولم يضـــــع

وكل ذنبه عندهم أنه يتورع عما يفعلون من سيئات الأمور :

لقـــد تفـــكرت فى شـــأنى وشـــأنهم
فبـــان لى أن ذنبى عنـــدهم ورعـــى(٦١)

ومن صفاته البارزة نفوره من الظلم وأنفته من الذل والاستكانة للضـــــيم :

وللمـــــوت أحيـــــا من حيـــاة بيلـــدة
يرى الحـــر فيهـــا الغبن من لا يشـــاكله

---

(٦٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٣ — ناظر السبع : عينه النجد : الشجاع ، عرنين الأنف : ما صلب من عظمه ، لم يرع : لم يخف .

(٦١) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٢٧٤ ، والمكتهل : المتناهى والعود : المسن من الابل ، والجذع صغيرها ، الصاب : شجر مر ، والسلع : نوع من الصـــبر .

وما غربة عن دار ذل بغربة
لو أن الفتى أكدى وغثث مآكله(٦٢)

وهو تقى حليم يؤدى الفروض والنوافل :

ألست أوفاكم عهدا وأحلمكم
عقدا ، وأقومكم بالفرض والنفل(٦٣)

مما تقدم يتضح لنا بعض جوانب شخصية ابن مقرب فلقد كان عزيزا فى نفسه ، عاليا فى همته ، طموحا الى المجد ، تواقا الى المعالى ، أنوفا عن الذل ، صبورا على حوادث الدهر مع كثرة ما ابتلاه به دهره فهو كما قال :

منيت من الزمان بعنقفيز
قليل عندها حز الشفار
فراق أحبة ، وذهاب مال
وضيم أقارب ، وأذاة جار
فلا والله لا وجد كوجدى
ولا عرف اصطبار كاصطبارى(٦٤)

وهو يرى أن المعالى تناديه وتطالبه بالنهوض ، فاذا أراد ذلك قعدت به أسباب خارجة عن ارادته ، منها قلة المال وكثرة الأعداء ، وعدم مناصرة أبناء العم :

كم تقاضانى المعالى عزمة
يهتف الشادى بها فى كل ناد

---

(٦٢) المصدر السابق — ص ٣٣٠ ، الغبن : الظلم ، لا يشاكله : لا يشابهه .

(٦٣) نفس المصدر — ص ٣٨١ .

(٦٤) الديوان — ص ٢١٥ — والعنقفيز : الداهية ..

فاذا رمت نهوضا قعدت
بى أمور أنا منها فى جهاد
قلة المال وكثر فى العدى
وابن عم رأيه غير السداد(٦٥)

ولكنه يقسم بالله الذى أجرى الماء رزقا للعباد أنه لن يخضع للذل والاستكانة فهو ذو قلب شجاع فينبغى على العدو ألا ينخدع بهدوئه الظاهر :

أحذار الموت أبقى هكذا
لا ومجرى الماء رزقا للعباد
ان ترى شخصى لأمر ساكنا
فلعمرى ان قلبى فى طراد
رب ذى هم تراه مطرقا
وهو فى اطراقه حية واد

ويقول معبرا عن شجاعته ومضاء صارمه :

ما اعتذارى والوغى تعرفنى
والعوالى والمواضى والهوادى
قد تساوى فى مضاء صارمى
وسنانى ولسانى وفؤادى
فارم بى ما شئت واعلم أننى
ليث غاب ، وشهاب ذو انتقاد(٦٦)

ان ابن مقرب كثير الحديث عن نفسه ، شديد الاعجاب بمواهبه وبنسبه وبشجاعته ، كما أنه مؤمنا أشد الايمان بعدالة قضيته ، وبالرغم من أن قومه ناصبوه العداء وأبعدوه وتحدوا مشاعره وضايقوه فى

---

(٦٥) المصدر السابق — ص ١٧٨ .
(٦٦) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ١٨١ .

معيشته ، الا أنه ما نسى صلة القرابة وحق العشيرة ، وكان لهم اللسان الذرب المعبر عن أمجادهم ، المنافح عن حوزتهم بشعره وبيانه فكان لهم بمثابة الناطق الرسمى أو الصحافة اليومية الحزبية ، حتى أن أطول قصيدة فى ديوانه وعدد أبياتها (١٥٠) بيتا ، قالها كلها فى غرض واحد هو الافتخار بآبائه وأهل بيته ومطلعها :

قم فاشـــدد العيـــس للترحـــال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطـــب قد فقما(٦٧)

وكان فى غربته حفيا بأبنائهم ومسائلا عن أحوالهم ، وكان ببخل بمودتهم عن قطع الرحم ، معتدا بالواحد منهم ، يحسبه سيفه البتار فى مواجهة الحياة والناس :

وانــــى حفـــى عنهـــم ومســـــائل
بهم حيث يثوى الســفر أو ينزل الركب
وانــــى بقـــومى للضـــنين وانـنــى
على بعـــد دارى والتنـــائى بهم حـــدب
ولى فيهمـــو ســـيف اذا مـــا انتضــيته
على الدهر أضحى وهو من خيفة كلب(٦٨)

فاذا عرفنا هذا الوفاء من ابن مقرب لعشيرته مع ما لاقاه منهم من جحود وجفاء ، أدركنا نبل أخلاقه ، ومدى التصاقه بصفات أسلافه النجباء الذين اعتزوا بآبائهم وأهلهم بالرغم من كل شىء •

ومن صفات ابن مقرب وأخلاقه عطفه على الضعفاء واحسانه الى المحتاجين على الرغم مما علمت عن ظروفه وقسوة الحياة عليه :

---

(٦٧) المصدر السابق — ص ٥٢٦ ، فقم الخطب : عظم .

(٦٨) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣١ ، السفر : الجمــاعة المسافرون ، ويثوى السفر : يقيم ، اضحى من خيفة كلب : اى انى اذا استعنت بأقاربى على الدهر فانه سيخافنى .

فــلا رعى اللــه أرضــا لا أكون بهــا
سـما لمسـتنكف غيثـا لمنتجـع[٦٩]

والمنتجع هو طالب الكلأ أو المعروف ، أى أن الشاعر يدعو اللــه على أرض لا يكون ــ اذا حل بها ــ غوثا وعونا لطالب العون وذو الفاقة المحتاج ، ومن ذلك أيضا قوله وهو يتحدث عن قبيلته :

ولســـت بهجـلم على مـا يســوءها
ولا ناطــق بالعيب منى لهـــا فـــم
ولا قابضــى فضـــل الغنــى عن فقيرها
ولا باســـط كفالهــا حـين أعـــدم
وانـــى لأقصــــاها اذا ثــاب مغنـــم
وانـــى لأدناهــا اذا نــاب مغــرم[٧٠]

ويقول ابن مقرب انه لا يتحدث عن أهله بسوء ، ولا ينطق لسانه عنهم بعيب ، واذا أسعفه الدهر بغنى وسعة فى المال فهو لا يمسك بفضل هذا المال عن فقير من أهله ، واذا حدث وأصابته فاقة وعدم فلا يمد يده بالسؤال وطلب النوال لأحد منهم ، ثم ان البيت الثالث يذكرنا فى معناه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا الأنصار رضوان الله عليهم: « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

ولو أردنا الاستطراد وراء الشواهد الكثيرة من شعره لكى ندل على صفاته وأخلاقه فلن ننتهى الى حد لكثرة ذلك فى ديوانه ، ولكن نختتم هذه الفقرات بقول أحد شراح ديوانه القدماء عن مناقبه وخلاله :

(وقــد أعطى الله الأمير الأجــل جمال الدين أبا عبد الله على ابن مقرب....، ــ من هذه الحلة أفضل الانصبا وخصه بخصائص لم ينلها

(٦٩) المصدر السابق ــ ص ٢٧٤ .
(٧٠) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٤٤٩ ، اعدم : افتقر ، اقصاها: ابعدها ، ثاب مغنم : عاد واجتمع .

أحدا من الأدباء ، حتى طار فريد دهره ، ومقدما فى هذا الشأن على كثير من سابقى عصره ، وشهد له بالسبق كل ناقد أريب ، وملكه زمام الفضل كل فاضل أديب ، مع ما يناسبه الى هذه الرتبة الجليلة من شرف البيت ، وجميل الأحدوثة والصيت ، وكرم النفس المتوافر ، ونزاهتها ومجدها المتكاثر ، والتمسك بالدين والعفاف ، وحسن الخلق والانصاف ، فلم يقصر عن الكمال بفوت فضيلة ، ولا دنس عرضه بارتكاب رذيلة ، بل كمل فضلا وخلقا ، وأخذ من كل نفيس حظا وحقا)(٧١) .

فابن مقرب حقا كما قال عن نفسه :

هل جـاء قومى وأخداتى الذين هـم
ان ارم من قبـل الرامين لا قبـلى
بأننـى لم أرد وردا أعـاب بـه
ولم أقف ذات يـوم موقف الخجل ؟(٧٢)

هذه هى أخلاق ابن مقرب وصفاته .

معتقـده :

ابن مقرب مسلم سنى المعتقد ، ولا مجـل لمن يرى من مؤرخى الشيعة أنه شيعى المعتقد لمجرد أن ديوانه احتوى على قصيدة قالها فى آل البيت ، وهى قصـيدة تزخر بشتيت من صور التشـيع ، وفيها استرسال فى رثاء الحسـين بن على رضى الله عنهما ووصف لمقتله فى موقعة كربلاء ، وفيض من اللعنات على قاتليه ، وكثير من الندب واللهفات والأحزان والحسرات عليه ومطلعها :

يـا باكيـا لدمنـة وأربـع
ابـك علـى آل النبـى أودع(٧٣)

---

(٧١) المصدر السابق — ص ٤ .
(٧٢) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٤ .
(٧٣) المصدر السابق — ص ٢٥٩ .

اذ أغلب الظن أن هذه القصيدة مقحمة على الديوان ، لأن روح القصيدة يخالف الطابع الفكرى لابن مقرب كما هو فى باقى شعره ، وأيضا لأن ابن مقرب وأسرته وأبناء عمه العيدينيين ساروا فى معتقدهم وفى أحكامهم وتطبيقهم لحدود الشريعة وفق مذهب أهل السنة ، وكانت لهم مواقف خالدة فى احياء ما اندرس من السنة ، يقول أحد شراح ديوانه حول القصيدة آنفة الذكر شاكا فى نسبتها اليه : (وهى قصيدة أكبر الظن أنها مقحمة على الديوان منسوبة الى الشاعر ، والا لسرى هذا اللون الى قصائده كلها ، أو الى كثرتها ، ويؤيد هذا الظن ما نجده فى نهاية القصيدة من نسبتها الى الشاعر بطريقة تقوى الشك فيها ...)[٧٤] ، والذى أشار اليه من طريقة نسبة القصيدة الى الشاعر ما قاله الناظم فى آخرها :

اليكم بنفثة مصدور أتت
من مقحم الشعر الى مصقع

مقربى ، عربى طبعه
ونجره ، وليس بالمدرع[٧٥]

فنسبتها اليه بهذه الطريقة هو سبب آخر للشك فيها .

وعدا هذا فان هناك أسبابا أخرى تجعلنا نجزم بأن هذه القصيدة ليست من نظم ابن مقرب بل هى ملصقة بديوانه مقحمة عليه ومنها :

(أ) أن القصيدة انفردت بها نسخة خطية واحدة دون سائر نسخ الديوان المخطوطة الأخرى على كثرتها .

(ب) ليس فى شعر ابن مقرب على سعته وكثرته أى صورة من صور التشيع ، وهذا من شأنه زيادة الشك فى نسبة القصيدة اليه ،

---

(٧٤) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ١٢ .
(٧٥) المصدر السابق — ص ٢٦٦ .

اذ لو كانت القصيدة من شعره حقيقة لرأينا فى قصائده الأخرى شيئا من سمات هذا اللون الذى اتصفت به القصيدة .

على أن من نسبوا اليه التشيع استدلوا على ذلك بأدلة أخرى فى زعمهم ، منها رحلاته المتتابعة الى العراق ، وهناك كما هو معلوم مشاهد الشيعة المقدسة ، ومنها أيضا أنه مدح آل البيت رضوان الله عليهم فى شعره ، وهى حجج واهية فى أغلبها ، ذلك أنه كما علمنا لما وقعت الجفوة بين ابن مقرب وبين قومه للأسباب التى ذكرناها ، لم يجد غير بـــلاد العراق ملجأ وملاذا لأنها أقرب البلدان الى وطنه ، ولأن فى العراق من الولاة والأمـــراء من يلتجىء الى حمـــاهم ويلوذ بكنفهم ، ولأن بغداد لا تزال العاصمة — ولو رمزا — للعالم الاسلامى ، ولا يزال بنو العباس فيها يتوارثون منصب الخلافة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان التاريخ لم يثبت لنا اطلاقا أن ابن مقرب قد عرج على الأماكن المقدسة عند الشيعة ، اذ لو حدث ذلك لظهر أثره فى شعره بكل تأكيد . أما مدحه لآل البيت فان حبهم ليس وقفا على الشيعة دون أهل السنة ، فان أهل السنة يجلون أهل البيت ويكنون صادق الحب لهم واذا كانت السياسات والحكام فى بعض فترات التاريخ قد عملوا على أن يكبت الناس حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدورهم خوف الاضطهاد فان هذا لا يعنى أن هذه العاطفة مقصورة على طائفة الشيعة وحدهم ، وزيادة على ذلك فان صلة ابن مقرب بعلماء السنة ومدائحه الكثيرة لهم تنفى عنه أيضا تهمة التشيع ، وكذلك مدائحه للأمير باتكين لأنه أحيا سنن الامام مالك وأبى حنيفة والشافعى . كل هذا ينفى الشـــك فى معتقد الشاعر ويؤكد ما قلناه عنه فى هذا الموضوع وما ذهبنا اليه .

ومن وصفه لمعاهد العلم التى أنشـــأها الأمير باتكين فى البصرة قولـــــه :

أحيى بهـــا للشـــافعى ومالـــك
وأبى حنيفـــة أحرفـــا وفصـــولا

وبجـامـع بـذ الجـوامـع كلهـا
حسـنا وعرضـا فى البناء وطولا[٧٦]

وكذلك مدح علماء السنة ومنهم الشيخ محب الدين الواسطى وكان عالما خيرا دنيا ، وله معرفة تامة بمذهب الامام الشافعى أصولا وفروعا، فقال يودعه عند خروجه الى الحج :

ألقـت اليـك مقـادها الأيـام
وأمـدك الاجـلال والاعظـام
ومشى اليـك الدهـر مشـية خاضـع
وقضـى بمـا تختـاره العـلام
وبقيـت مـا بقـى الزمـان مخـلدا
فى حيث تقعـد والأنـام قيـام

ومدحه بأنه أحيا بزهده ذكرى بعض الأولياء الصالحين من أمثال بشر والجنيد وعامر وكلهم كانوا على طريقة أهل السنة والحديث فقال :

بـك يا محـب الدين طـالت فاعتـلت
شـرفا على الخطيـة الأقـلام
أحييـت بشـرا والجنيـد وعامـرا
زهـدا وكـل اذ يعـد امـام

وبأنه عمل على اظهار واشهار المذهب الشـافعى بما أقام له من حجـج :

وأقمـت للقرشـى فى آرائـه
حججـا يقصـد دونهـا النظـام[٧٧]

---

(٧٦) الديوان ــ طبعة الاحساء ، ص ٤١٠ ، وبذ : فاق .
(٧٧) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٥٦٩ ــ والقرشى هو الامام الشافعى رضى الله عنه .

وهذا عن الشيخ الواسطى أما الشيخ العالم الحنبلى أبو البقاء محب الدين العكبرى صاحب كتاب (التلخيص فى الفرائض) فقد مدحه ابن مقرب بقوله :

هــو الامـام الــذى كــل لــه تبـــع
من كل حــاف على الدنيــا ومنتعــل[٧٨]

وبعد فأرجو أن أكون فيما سقته من أدلة عن معتقد ابن مقــرب مــا يكفى للرد على مزاعم من يقول انه من الشيعة لمجرد أنه مــدح آل البيت رضوان الله عليهم ، إذ أن حب آل البيت ـــ كما قلت ـــ ليس مقصورا على طائفة الشيعة ، وان كانت مجريات الحوادث التاريخية قد ألصقت هذه الصفة بهم ، فصــاروا يعرفون ويشتهرون بهــا أكثر من غيرهم ولكن الحقيقة غير ذلك .

وفـــــاته :

اختلف أصحاب التراجم حول سنة وفاة الشاعر ومكانها ، فمن قائل انه توفى سنة ٦٣٠ هـ [٧٩] ، وغيره يؤرخ وفاته سنة ٦٣١ هـ[٨٠] ، وحددها ابن الفوطى فى كتابه (تلخيص مجمع الآداب) بالمحــرم من سنة ٦٣١ هـ ، وترجم له الحافظ المنذرى فى كتاب « التكملة » فى وفيات سنة ٦٢٩ هـ .

وأما عن مكان وفاته ، فقال ابن الفوطى فى كتابه الآنف الذكر انها فى البحرين ، وغيره يقول انه توفى فى بغداد [٨١] . على أن شيئا من ذلك غير صحيح لأن ابن مقرب توفى فى قرية من بلاد عمان تسمى (طيوى) مر بها فى أخريات أيامه ولما نزلها سماها (طيبى)[٨٢] ، نص على ذلك

---

(٧٨) المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .
(٧٩) ابن الشعار ـــ الموصلى ـــ قلائد الجمان فى شعراء الزمان .
(٨٠) الصفدى ـــ الوافى بالوفيات .
(٨١) خير الدين الزركلى ـــ الاعلام ، ج ٥ .
(٨٢) عمران العمران ـــ ابن مقرب ـــ دراسة ، ص ٢٣ .

أحد المؤلفين من القرن العاشر الهجرى فى احدى المخطوطات التاريخية « وذكر انه مر بتلك القرية وهو فى طريقه الى الهند »[٨٣] .

ومهما يكن من اختلاف حول سنة وفاة الشاعر ، فانه توفى بعد عمر لا يقل عن سبعة وخمسين عاما ، قضاها — أو أكثرها — فى صراع مرير مع دهره ورجالاته ، واذا كان هذا الصراع قد أرهق صاحبه — وهذا لا شك فيه — فانه من ناحية أخرى عاد على الأدب العربى بثروة شعرية كبيرة ، وانتاج بيانى ضخم .

نبذة تاريخية عن وطن الشاعر وأسرته :

البحرين هى وطن الشاعر ابن مقرب العيونى ، فيها مولده ونشأته ، وهى وطن آبائه وأجداده ، فقد سكنتها فى الجاهلية قبائل عبد القيس العدنانية التى تنتسب اليها أسرة الشاعر[٨٤] ، وكان لهم فى معظم الأحيان السيادة والملك ، واذا كان بعض المؤرخين ينسب ابن مقرب الى غير البحرين فهذا خطأ[٨٥] ، فابن مقرب احسائى من البحرين من قرية العيون ، وهى فى الطرف الشمالى للاحساء ، وسنحاول فيما يلى أن نلم ببعض تاريخ البحرين حتى نلقى الأضواء على حياة الشاعر من جميع جوانبها .

البحرين فى الاصطلاح التاريخى — يطلق على البلاد الواقعة على الساحل الغربى للخليج العربى ، من البصرة شمالا حتى عمان جنوبا ، وكانت عاصمة البحرين قديما (هجر) أو الاحساء ، ثم تلاشى اسم البحرين عن هذه المناطق الواسعة تدريجيا مع الزمن ، وأصبح اطلاقه مقصورا على مجموعة من الجزر الصغيرة أكبرها جزيرة (أوال) ولا زالت تعرف بهذه التسمية حتى يومنا الحاضر .

---

(٨٣) مخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ — دار الكتب المصرية ، ص٣٥٨ .
(٨٤) محمود بهجت سنان — البحرين درة الخليج — ص ١٣ .
(٨٥) جاء فى النسخة المخطوطة الموجودة بمكتبة محافظة الاسكندرية (هذا ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى) .

وقد تحدث عنها جغرافيو العرب القدماء فى كتبهم • فقال عنها « ياقوت الحموى » فى معجم البلدان (البحرين اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر ، الواقع بين جزيرة العرب وبلاد فارس ، تمتد من البصرة شمالا الى عمان جنوبا ، ومن الدهناء غربا الى البحر شرقا[٨٦] وقال « الأزهرى » عن سبب تسميتها بهذا الاسم :

(وانما سموا البحرين لأن فى ناحية قراها بحيرة على باب الاحساء وقرى هجر ، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ)[٨٧] وقال عنها الادريس فى كتاب « نزهة المشتاق » : (وسميت الجهة بالبحرين ، بجزيرة أوال ، وذلك أن جزيرة أوال بينها وبين فارس مجرى ، وبينها الى بر العرب مجرى ، هى ستة أميال طولا ، وعرضا كذلك)[٨٨] •

والبحرين غنية عن التعريف فهى بلاد عريقة فى الحضارة ، حتى قال أحد المؤرخين بأن الخليج العربى هو مهد الحضارة الانسانية بل مهد الجنس البشرى نفسه ، وأن سكان جزره وساحله الغربى هم أول من رفع شراعا فى البحر ، واقتحموا لججه وأخطاره ، فكانت بلادهم بمثابة حلقة اتصال بين الشرق والغرب وقال بعض المؤرخين أن الفينيقيين هم من هذه الربوع ، وأنهم سكنوها قبل نزوحهم الى سواحل لبنان على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وقد نقلوا معهم مبادىء الأبجدية وجوانب خالدة من الحضارة[٨٩] ، والحق أن بالبحرين اليوم من الأدلة المادية الملموسة ما يثبت « فينيقية الخليج » والفينيقيون عرب فى أصح الروايات ، ولأغراض تجارية حاول كثير من ملوك آشور

---

(٨٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان ، وانظر تاريخ الاحساء ، لمحمد عبد الله الانصارى ص ٣ .

(٨٧) الأزهرى — تهذيب اللغة — ٥ — ٤٠ .

(٨٨) العرب — مجلة شهرية تصدر عن دار اليمامة بالرياض — عدد مايو — يونيو ١٩٧٩ — ص ٩٨ .

(٨٩) البحرين درة الخليج — بهجت سنان ، وانظر دراسة عمران العمران عن ابن مقرب ، ص ٣٨ .

وبابل واليونان اخضاعهم لنفوذهم ، ومن هؤلاء الاسكندر المقدونى الذى جهز أسطولا هائلا طمعا فى الاستيلاء عليها ، ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه ، ومنذ قديم الأزل التقى على أرض البحرين الهندى والافريقى والكلدانى والفارسى والبابلى والآرامى والفرعونى والاغريقى وأجناس غيرهم مما يدل على مجدها التجارى والحضارى •

وكانت السيادة فى العصر الجاهلى فى البحرين للعرب ، وزعم بعض مؤرخى الشعوبيين أن الفرس قد استعمروها بعض الوقت قبيل الاسلام وفى السنوات الأولى للبعثة ، ولكنهم اعترفوا بأن ولاتها كانوا من العرب •

وبعد ظهور الاسلام ، أرسل عرب البحرين وفدا برئاسة الأشج من عبد القيس ليفاوض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى اقنعهم بدخول الاسلام ، فعادوا الى البحرين وأسلم كثير من أهلها(٩٠) ، ثم قدم عليهم العلاء الحضرمى معلما ومرشدا ، ولما بلغ أهل البحرين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب ، ارتدت طائفة منهم بضاحية البحرين ، فجهز لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمى(٩١) ولكنه لم يتمكن من اخضاعهم ، فجاءه المدد من اليمامة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه ، بعد أن قمع بنى حنيفة ، ففر المرتدون الى جزيرة دارين وتحصنوا بها ، وهناك أطبق عليهم العلاء بجيوشه ، فأخضعهم وردهم الى الاسلام • وظلت البحرين اسلامية تحت حكم الخلفاء الراشدين ثم الأمويين حتى عهد عبد الملك بن مروان ، حتى ثار أحد الخوارج بجزيرة أوال ، ولكن جيوش عبد الملك تمكنت من اخماد الثورة فى المهد ، وفى سنة ٨٦ هـ ، تمكن مسعود بن أبى زينب العبدى من غلبة العامل الأموى ، والاستيلاء على البحرين

---

(٩٠) تاريخ الاحساء — للشيخ عبد الله الانصارى — ص ٦٠ •

(٩١) انظر تاريخ الطبرى — جـ٢ — ص ٥٢١ •

لمدة تسعة عشر عاما ثم استعادها الأمويون ، وأنجبت البحرين أثناء العصر الجاهلى عددا من فطاحلة العقل والشعر أمثال سعيد بن مالك والمرقشان والمتلمس وطرفه بن العبد ، وفى أثناء العصر الاسلامى والأموى عددا من رجال الفكر والشعر أشهرهم قطرى بن الفجاءة والصلتان العبدى وعيسى بن فاتك الخطى ، ثم دخلت البحرين فى حوزة بنى العباس حتى سنة ٢٤٩ حيث استولى عليها صاحب الزنج الذى ادعى النبوة لنفسه ، وبعد حروب دامية قتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ ، فعادت البلاد الى الخلافة العباسية مرة أخرى .

وخلال هذه الفترة ازدهرت الحياة العلمية والأدبية فى البحرين ، وبرز علماء أفذاذ فى الفقه واللغة والفلسفة كالشيخ كمال الدين ميثم[٩٢] وغيره ، كما برز آخرون فى نقد الشعر وتاريخ الأدب مثل موفق الدين الأربلى ، وكان للشعر فى هذا العصر دولة سامقة الفروع ساعد على ازدهارها شعراء مجيدون أمثال ، معاذ الأزرق ، وأحمد بن منصور القطيفى وغيرهما .

ظهور القرامطة ودور العيونيين فى القضاء عليهم :

أشرنا فيما سبق الى أن أسرة الشاعر وأجداده العيونيون هم الذين قضوا على القرامطة بقيادة جده الأعلى عبد الله بن على العيونى[٩٣] وعن ذلك قال ابن مقرب مفتخرا :

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا ، وغادرهم بعد العلا خدما

من بعد أن جل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما

---

(٩٢) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ١٣٨ .

(٩٣) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ .

وبعد أن وصف معارك جده مع القرامطة قال :

فسلم الأمر أهل الأمر وانتزحوا
عن سورة الملك لازهدا ولا كرما

وأصبحت آل عبد القيس قد ثلجت
صدورها ، فترى الموتور مبتسما[٩٤]

والوقوف على تفصيل هذه الأمور يستلزم منا الرجوع الى بداية ظهور القرامطة فى البحرين وما أحدثوه فيها وفيما جاروها من أحداث وانتهاك لحرمات الله حتى نهايتهم وتخليص الناس من شرورهم .

فبعد القضاء على حركة صاحب الزنج بفترة من الزمن وبالتحديد سنة ٢٨٦هـ[٩٥]،ابتدأت حركة القرامطة فى البحرين على يد رجل يسمى أبو سعيد الجنابى ، وكان سبب ظهور أبى سعيد أن رجلا يعرف بيحيى ابن المهدى نزل البحرين وأظهر التشيع فى بداية الأمر ، ثم أعلن أنه المهدى المنتظر ، فظهر أمره وأجابه عدد كبير من الناس ، وكانت الدولة العباسية قد بدأت فى مراحل ضعفها ، وشغلت بالكثير من المشكلات والجنود هم الذين يسيطرون عليها ، ولا يهمهم سوى مصلحتهم وتأمين أهوائهم والسير وراءها ، وباقى الناس فى ترف فكرى ، مشتغلين بعلم الكلام ، وزاد ترفهم القعود عن الجهاد واهمال الحكام لهم ، لذا كان العوام يسيرون وراء كل من يحقق لهم مصالحهم أو يدعى أنه يفعل ذلك ، وكان من الذين اتبعوا يحيى بن المهدى أبو سعيد الجنابى ، وهو ينتسب الى « جنابه » من قرى فارس ، وقد نزل البحرين منفيا من بلاده ، ويعمل بالفراء ، وينتقل من البحرين الى سواد الكوفة ، وصحب أبو سعيد يحيى مدة من الزمن وتأثر به ، حتى اذا أفشى أمرهما الى الوالى هرب أبو سعيد الى (جنابه) مسقط رأسه ، وهناك بدأ يدعو

---

(٩٤) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ .

(٩٥) تاريخ الاحساء — ص ٨٤ ، (القرامطة) لمحمود شاكر — طبعة بيروت ص ٦٦ .

الى القرامطة[٩٦] • وعندما تجمع حوله عـــدد من الاتباع ، بدأ يعيث هو ورفاقه فى الأرض فسادا ، فقتلوا وسبوا فى بلاد الاحساء خلقا كثيرا سنة ٢٨٧ هـ ، ثم سار الى القطيف فقتـــل من بها ، وأظهـــر أنه يريد البصرة ، فجهز اليهم الخليفة العباسى جيشا كثيفا ، جعل عليه (العباس ابن عمر الغنوى) فانتصر عليه القرامطة ، وأسروا الجيش كله ، ثم استمر نشاطهم حتى سنة ٣٠١ هـ حيث قتل أبو سعيد الجنابى على يد خادمه فى الحمام[٩٧]،وكان قد عهد من بعده لابنه الأكبر (سعيد) الا أنه كان ضعيفا ، فغلبه على ذلك أخوه الأصغر (سليمان) الذى يكنى بأبى طاهر ، وكان فاتكا جريئا ، ودخل أبو طاهر هذا البصرة ، سنة ٣١١ هـ ، فى ألفين وسبعمائة رجل فقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وبقى فيها ثمانية عشر يوما يحمل منها ما يقدر على حمله من الأموال والأمتعة ، والنساء والصبيان ثم رجع الى بلده ، وفى ســـنة ٣١٢ هـ قطع أبو طاهـــر على الحجاج طريق عودتهم ، وأخذ منهم أزوادهم وأمتعتهم ، وترك من بقى منهم بلا ماء ولا طعام فمات أكثرهم ، ثم دخل الكوفة سنة ٣١٣ هـ ، وبقى فيها ستة أيام نقل خلالها أكثر ما فيها من مختلف المتاع ، ثم عاد ودخلها فى العام التالى وفعل فيها مثلما فعل فى السابق ، كما استولى على مدينة الأنبار وعين التمر ، وفى سنة ٣١٧ سار أبو طاهر القرمطى الى مكة ودخلها يوم التروية (٨ ذى الحجة) فقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، ونهب أموالهم ، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بســـيفه على بابها وهو يقول :

أنـــا باللـــــه ، وباللـــــه أنـــا
يخلــق الخـــلق وأفنيـــم أنـــا[٩٨]

---

(٩٦) ينتسب القرامطة الى رجل يدعى (قرمط) ولقب بهـــذا اللقب لقصد كان فيه — راجع المصدر الأخير ص ٥ .

(٩٧) تاريخ اخبار القرامطة — لابن سنان — تحقيق سهيل زكار — ص ٣٦ .

(٩٨) تاريخ الاحساء — الشيخ الانصارى ، ص ٩٠ .

وخلع الحجر الأسود وأخذه معه الى (هجر) ، ومات أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ ، فخلفه أخوته الثلاثة (سعيد أبو القاسم) و (أحمد أبو العباس) و (يوسف أبو يعقوب) ، وكانت كلمتهم متفقة ، وفى سنة ٣٣٩ هـ رد القرامطة الحجر الأسود الى مكانه بعد أن بقى عندهم اثنان وعشرين سنة .

وامتد نفوذ قرامطة البحرين[٩٩] الى نجد ، وكانت الدولة الأخيضرية هناك تحت اشرافهم ، كما أخضعوا الحجاز لهم ، ووصلوا الى بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ ، وكان أمرهم آنذاك الى الحسن بن أحمد ابن بهرام ، وقد دخل دمشق وولى عليها (وشاح السلمى) ، وعاد اليها مرة أخرى سنة ٣٦٠ هـ . ومنها سار الحسن الى الرملة ثم اتجه الى القاهرة ، الا أن جوهر الصقلى ردهم عنها وأخذ منهم دمشق بعد ذلك . ومات الحسن سنة ٣٦٦ هـ ، وقام على أمر القرامطة من بعده ابن عمه جعفر بن الحسن بن بهرام . وبدأ وضع القرامطة يضعف تدريجيا ، ولولا ضعف الدولة العباسية لانتهى أمرهم منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، الا أن التفكك الذى أصاب الدولة قد جعل أمرهم يطول ، أما الآن فقد أصبحت أوضاعهم مهلهلة ، والمناطق التى سيطروا عليها قد تجزأت ، حتى اذا كان العقد السادس من القرن الخامس ونتيجة ضعف القرامطة من ناحية ، ولما كان يعانى منه أهل البحرين من عسف وجور وامتهان للمشاعر والمقدسات من ناحية أخرى سنحت الظروف وأصبحت الفرصة مواتية للانقضاض والثورة وهب لقتال القرامطة ثلاثة من رجالات العرب بالبحرين وهم :

١ — الأمير عبد الله بن على العيونى ، فى الاحساء .

٢ — يحيى بن العياش فى القطيف .

٣ — أبو البهلول محمد بن يوسف الزجاج فى جزيرة أوال .

---

(٩٩) هناك ايضا قرامطة العراق وقرامطة اليمن .

أما الأمير عبد الله بن على العيونى فقد كاتب أبا الفتح جلال الدين السلجوقى ببغداد شارحا له أحوال البلاد وطالبا منه العون ، فأرسل اليه القائد اكسك سالار فى جيش كبير قوامه سبعة آلاف فارس، فتم لعبد الله بمساعدة هذه القوة تخليص الاحساء من براثن القرامطة بعد حروب طاحنة انتهت سنة ٤٦٨ هـ ، وأما أبو البهلول فقد استطاع منذ البداية أن يسحق قوة القرامطة فى جزيرة أوال وأن يطرد منها عمالهم ، وأن يخضعها لنفوذه بضع سنوات .

ونهض يحيى بن العياش فى القطيف وطرد منها عمال القرامطة ، وأخضعها لنفوذه ،ثم طمع فى جزيرة أوال وأراد أن ينتزعها من أبى البهلول فلم يتمكن ، ولما مات خلفه ابنه زكريا الذى واصل خطة أبيه فى الاستيلاء على جزر أوال فظفر بأبى البهلول وقتله واستولى على أوال وضمها الى ملكه فى القطيف ، ثم انه فكر بعد ذلك فى الاستيلاء على الاحساء آملا فى توحيد البحرين تحت تاجه ، فالتقى جيشه مع جيش الأمير عبد الله بن على العيونى فانهزم ابن العياش فى الموقعة الأولى ثم قتل هو نفسه فى الموقعة الثانية ، وتفرق جنده ، وتم استيلاء عبد الله ابن على على القطيف وجزيرة أوال وتم توحيد البحرين تحت علم الامارة العيونية .

وقد أشار ابن مقرب الى حروب جده الأمير عبد الله بن على مع ابن عياش فى معرض الافتخار فقال :

ولم ينج (ابن عياش) بمهجته
يم ، اذا ما رآه الناظر ارتسما
أتى مغيرا فوافى جو (ناظرة)
فعاين الموت منا دون ما زعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة الا السوط والقدما

فانصـــــاع نحــو (أوال) يبتغى عصما
اذ لم يجــد فى نواحى (الخط)معتصما
فأقحـم البحـر منــا خلفـه مــلك
ما زال ، مذ كان للأهـــوال مقتحمــا
فجـاز مـلك (أوال) بعـد مـا تـرك
(العكروت) بالسـيف للغبراء ملتزمـا
فصـــار مـلك (ابن عيــاش) ومــلك
(أبى البهلول) مع ملكنا عقـدا لنا نظما
من ذا يقاس بعبــد اللــه يــوم وغــى
فى بأســه أو يبــارى جوده كرمـا(١٠٠)

ولما استقر الأمر لعبد الله بن على على الاحساء قطع ما كان لرؤساء بنى عامر من العوائد والجرايات التى أجريت لهم أيام القرامطة فأجمعوا على حربه ، وأقبلوا ومعهم خلق كثير من البوادى يسوقون الابل أمامهم وهم خلفها ، وصــاحوا عليها فكانت تدق الجموع ، وخرج عبد اللــه ابن على لقتالهم ، ولما رأى ما تفعله الابل بالناس ، أمر بضرب الدبادب والأبواق فى وجوهها فنفرت ورجعت على أعقابها ، فحطمت من خلفها فانهزموا ، وحمل عليهم عبد الله بن على وقتلهم قتلا ذريعا ، ولم ينج منهم الا جماعة قليلة هربوا الى العراق ، ثم ان عبد الله بن على جهز نساءهم وذراريهم والضعفة منهم ، ووجههم الى عمان ، واستقر له الحكم بعد ذلك على البحرين كلها متينا ، قوى الأركان والدعائم .

---

(١٠٠) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٥٣٨ ، ارتسما : كبر وتعوذ ، ناظره : كثبان رمل شرقى الهفــوف ، العــكروت : أحــد قادة ابن عياش الشجعان .

الدولة العيونية :

استمر عبد الله بن على فى الحكم مدة ستين سنة وتوفى على رأس عام الخمسمائة تقريبا بعد أن حكم البحرين هذه المدة الطويلة ، وخلفه من بعده ثلاثة من الأبناء هم : الفضل ، وعلى ، وضبار •

وقد تعاقبوا على أريكة الحكم من بعدد الدهم هم وأبناؤهم وأحفادهم وسنعرض فيما يلى لسيرة البعض منهم حتى نهاية الدولة العيونية •

الفضل بن عبد الله بن على العيونى :

تولى الحكم بعد أبيه وكان شجاعا كريما بعيد الهمة كثير الأسفار والتنقلات والتجول فى البرارى ، لتعقب المفسدين ، والأخذ على أيدى الأعراب الذين يرتزقون من قطع الطرق وسلب المارة ، فأمنت البلاد فى عهده ، وقد حمى لابله وابل المستضعفين من رعيته من منطقة (ثاج) شمالا ، الى منطقة (يبرين) جنوبا ويروى أنه كان يتجول مرة فى الصحراء التى حماها فرأى أعرابيا يرعى غنمه فى الحمى ، واذا أعرابى آخر يقول له : أما علمت أن هذا حمى الفضل فقال :

وأين امرؤ فى (زاد برد) محله
وأغتام سودى بعيد مذاهبه[١٠١]

فما أتم البيت حتى ظهر عليه الفضل ، فبهت الأعرابى ، الا أن الفضل اكتفى بتحذيره من العودة ثانية ، وقد أشار ابن المقرب الى ذلك بقوله :

وان تفتخر بالفضل ، فضل بن عبدل
فيا بأبى أعراقه ومناسبه

---

(١٠١) زاد برد : موضع فى جزيرة أوال فيه تصور للأمير الفضل •

همــام حمــى البحــرين ســبعا ومثالها
ســنين ، وســارت فى الفيافى مواكبــه
ولم يرع من (ثاج) الى (الرمل) مصرم
على عهــده الا اســتبيحت حلائبـــه
زمــان يقــول العامــرى لمــن غــدى
يحــدثه عنـــه وذو الحمــق غالبـــه
متــى يلتقــى مــن زاد بــرد محـــله
وآخــر ســودى بعيــد مذاهبـــه
فلــم يســتتم القــول حتى اذا بـــه
يســايره والدهــر جــم عجائبـــه
فقــال لــه الآن التقينـــا فأرعـــدت
فرائصـــه ، والجهــل مــر عواقبه[١٠٢]

ومن كرمه أن تجارا ركبوا البحر فغرق مركبهم بين أوال والقطيف، فذهب ما كان معهم ، فأمر الفضل أن يكتب كل رجل ما غرق له ففعلوا ، فأعطى كل رجل ما يقابل ماله من نقود ، ودام ، حكم الفضـــل ســبع سنين ، وقيل أربع عشرة سنة[١٠٣] ، ومات مقتولا فى جزيرة تاروت على يد خدمــــه .

محمــد بن الفضـــل :

يكنى أبو سنان ، وكان يسكن جزيرة أوال ، وعرف بالكرم ، وكان ابن مقرب كثير الافتخار به وبشعره ، ويعتبر من أبرز أمــراء الدولة العيونية وأشدهم قوة ومنعة ، واستمر حكمه ثمانية عشر عاما ، وكان

---

(١٠٢) الديوان ــ طبعة الاحساء ، ص ٥٧ ، ثاج : قرية بالبحرين ، والرمل : رمل خارج بطريق عمان ورجل مصرم : صاحب عدد من الابل .

(١٠٣) المصدر السابق ــ ص ٥٨ ــ وانظر أيضـــا الديوان طبعة دمشق ص ٣٣ ، منشورات المكتب الاسلامى .

له وزيرا خاصا يسمى الحاج على بن الفارس الكازرونى ، ومات أبو سنان ، مقتولا على يد عميه أبى المنصور وأبى على ، وبعد مقتله بايع أهل القطيف والجند الذى فيه غرير بن محمد ، وبايع أهل الاحساء والجند الذى فيه على بن عبد الله لأنه أكبر أفراد الأسرة المالكة ، فتجهز غرير بن محمد لغزو عمه بالاحساء بجيش كبير ، فاستعد الأمير على ويكنى أبا منصور للحرب ، وفتح خزائن الأطعمه ، وفرقها على السكان ، وأعطى كل أهل بيت ما يكفيهم سنة ، وخرج أبو منصور بمن معه من الجنود لصد الأمير غرير ، فالتقى الجمعان بموضع فى الاحساء يعرف (بالسليمات) واشتد القتال ، وأخيرا قتل أبو منصور ، وانهزم جنده وقتل منهم ثمانون رجلا وأسر خمسماية وعشرون ، وتحصن أهل الاحساء بها ، ورجع غرير الى القطيف ، وبايع أهل الاحساء شكر ابن على •

شكر بن على بن عبد الله بن على العيونى :

يكنى أبو مقدم ، وكان عالما ، ورعا وشاعرا مجيدا ، وفارسة شجاعا ، وضع المكوس عن جميع رعيته ، وحينما تولى الاحساء خرج رجل يسمى (حماد النائلى) وجمع جمعا كثيرا من البوادى ، وأقبل يريد الاحساء ، وحاصرها ثلاثين يوما ، ثم حمل هو ومن معه على المدينة حملة شديدة واقتحموا أبوابها ، وكاد يتم لهم الظفر ، فتلقاهم أبو مقدم ومن معه من الجند وأهل البلاد فردهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، حتى أنتنت الأرض وسمى ذلك الموضع (الخائس) ، وفى عهد شكر بن على استقل آل على بن عبد الله بحكم الاحساء ونواحيه ، بينما اقتصر حكم آل فضل على القطيف ونواحيه ، ولكن سرعان ما استعاد آل فضل حكمهم لعموم البحرين •

ومع أن الشاعر لم يكن على وفاق تام مع آل فضل ، فان مدائحه لهم قد سببت زيادة التوتر أيضا فيما بينه وبين بنى عمه الآخرين ،

ويدل على ذلك ما جاء فى القصيدة التى عاتب بها الأمير مقدم ابن ماجد — وهو من آل فضل — ومطلعها :

أأســـكت عن مولى الورى أم أعاتبـه
وأهمـل وعـدى عنـده أم أعاتبـه ؟؟

وفيها يقول :

فلولا هـواكم ما شـقيت ولا غـدا
يصـك برجلى القيـد من لا أشاغبه(١٠٤)

ونأخذ من هذا أن من أسباب العداء المستحكم بين ابن مقرب وبين حكام عهده ناشئا من كونه قد مدح آل فضل بن عبد الله الذين ظلوا فى صراع مستمر مع بنى عمه الآخرين .

ولا يعنى اقتصار النزاع بين هذين الفرعين من الأسرة أن الفرع الثالث الذى ينتمى اليه الشاعر لم يتول أحد منهم الحكم فى البحرين فقد كان منه أمراء من أشهرهم الأمير الحسن بن غرير بن ضبار وابناه المبارك (أبو شكر) ومقرب ، الذى هو الأب الثالث للشاعر ابن مقرب ، ومات شكر بن على رحمه الله بعد منتصف القرن السادس .

محمد بن أحمد المكنى بأبى الحسين بن عبد الله بن على :

وكان هذا الأمير عالى الهمة ، صلب الارادة وفى أيامه استفحل ملك العيونيين ، وامتد نفوذهم الى نجد وبادية الشام ، وعهـد اليهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله بخفارة طريق الحجاج من بغداد حتى مكة ، وفى مقابل ذلك خصص الخليفة للأمير العيونى عونا ماديا يدفع له كل عام ، وقد قام الأمير محمد بن أبى الحسين بهذه المهمة خير قيام، وعمل على تأديب بادية الشام الذين اعتدوا على قوافل الحاج فأوقع

---

(١٠٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٥٩ — ٦١ .

بهم ايقاعا شديدا ، كما غـزا بنى مالك على مـاء الدجانى — فى غرب الدهناء — لخروجهم على طاعته سنة ٦٠١ هـ ، ويصف الشـاعر هذه الموقعة الأخيرة بقوله :

ألم يجـاب الجـود العتـاق شـوازيا
من « الخط » تتلوها المطـايا المراسـل
الى أن أناخـت « بالدجـانى » بعـدما
براهـا السـرى والأين فهـى نواحـل
فصـبحن حيـا لـم تصـبح حلالـه
قـديمـا ولا رامـت لقـاه الجحافـل
فكم قـرم قـوم غادرتـه مجـدلا
تقط شـواه الخامعات العواسـل
وكم من مـال نحام من القـوم أصبحت
تقسـم غصـبا جـله والعقائـل
وكـم عاتـق لم تترك الخـدر سـاعة
تقـايب كفيهـا لـه وهـى ثاكل (١٠٥)

وقد كان عهد محمد بن أبى الحسين عهد أمان واطمئنان نتيجة حزمه وضربه على أيدى المفسدين ، وقد قتـل هذا الأمير على يد أحد أصهاره وهو راشد بن عميره بن غفيلة رئيس بنى عامر وبمساعدة ابن عمه غرير بن شكر بن على العيونى ، ورثاه ابن مقرب بقصيدة مطلعها :

ضننت حسـودى حـين غالت غوائله
يريـع الى البقيـا وتطوى حبائله(١٠٦)

---

(١٠٥) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٣٥٤ ، الشارب : الخشن ، الخط : موضع بالبحرين ، الابل المراسل : السهلة السريعة ، الدجانى : اسم ماء فى الجانب الغربى من الدهناء ، الشوى : أطراف الانسان ، الخامعات: الضباع والذئاب ، العواسل : المضطربة والنحام : البخيل .

(١٠٦) الديوان — طبعة الاحسـاء — ص ٣٢٦ ، أراع الى البفيا : رجع ، حبائله : ما ينصبه مكرا وخديعة .

وكان للأمير محمد ثلاثة من الأبناء : الفضل وهو أكبرهم وماجد وأحمد ، فكتب الفضل للخليفة الناصر بذلك وطلب منه النصرة حتى يأخذ بثأر أبيه ، فبادر الخليفة بانجادة وأرسل اليه الأموال والأسلحة ووعده بارسال الجنود اذا احتاج اليها ، فبذل الفضل الأموال لرؤساء العشائر وكثر جمعه ، فتتبع قتلة أبيه وأعدم أكثرهم ، ومنهم غرير الذى لم يتمتع بحكم القطيف غير سنة واحدة .

فضل بن محمد بن أحمد أبى الحسين بن عبد الله بن على :

فى سنة ٦٠٦ هـ ، عقد الأمير فضل بن محمد صلحا بينه وبين ملك جزيرة « قيس » غياث الدين شاه بن تاج جمشيد ، على أن يكون للملك قيس جزيرة « أكل » وجزيرة «الجارم» وجزيرة « الطيور » وجميع مساكر الأسماك ، مضافا اليها مقاسم تاردت «الحسينى» و «الحساس» ومقسم القصر ، وبستان القصر ، وبستان المشعرى ودالية الدار ، والفايدية ، ونصف طراز الغاصة ، من مقاسم القطيف ، وخمسة وثلاثون بهارا عوضا عن بستان المصفاة بالاحساء ، وخمسمائة دينار تدفع لــه كضريبة سنوية ، وأن تكون المقاسم والخراج والحلقة وطراز الغاصة والطيور والعشور ، مناصفة بين ملك قيس وملك العرب محمد بن الفضل .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط كانت مجحفة للغاية الا أنها كانت بمثابة هدنة أوقفت الغارات التى — تشن على جزيرة أوال وعلى الحدود واذا تأملنا فى هذه الاتفاقية نفسها نجدها مجحفة جدا بالنسبة لدولة عربية ذات سيادة ، ويخيل الينا أن السيطرة الأجنبية قد فرضت نفسها حتى فى الشؤون الداخلية كما تنص بنود تلك الاتفاقية .

وهنا يقف ابن المقرب منددا بهذه المعاهدة التى لمس فيها الضعف والهوان والتدخل المباشر فى أمور الدولة ، ويعاتب الأمير الفضل ويغلظ له القول حتى أدت النتيجة الى تردى العلاقات بينهما فأبعده عنه ، ومما قاله فى ذلك :

اذا خانــك الأدنـــى الــذى أنت حزبــه
فواعجبـــا ان ســـــالمتك الأباعـــــد

ومنهـــا :

وان وَطــن ســائك أخــلاق أهـــله
فدعــه فمــا يغضى عــلى الضــيم ماجد
فمــا (هجــر) أم غذتـــك لبانهـــا
ولا (الخط) ان فارقتهـــا لك والـــد

ومنهـــا :

فلا تتــكل يا فضــل فى الفضــل والندى
على ســالف أســداه جـــد ووالـــد
فلا حمــد الا بالــذى يفعـــل الفتـــى
ولــو كثــرت فى أوليــاه المحامــد(١٠٧)

وبقى عمال ملك جزيرة قيس فى بلاد البحرين يجبون الضرائب حتى نهض على بن ماجد بن محمد بن الحسين ثائرا على الأوضاع السيئة التى انتهت اليها الدولة فى عهد عمه الفضل ، وبمساعدة قبيلة (العماير) ، استطاع تنحية عمه عن العرش ، وتولى مقاليد الحكم ، فاستتب الأمن فى البلاد وساد الاستقرار ، لاقت ثورة على بن ماجد صــدى طيبا فى نفس ابن مقرب فمدحه بقصيدة منها :

للـــه درك يا عـــلى فلـــم يعـــد
الاك فى هـــذا الزمـــان مهـــذب
أضــحت بــك الاحســـاء ســاكنة وقد
خفــت بمــن فيهـــا وكــادت تنقــلب

---

(١٠٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ١٤٠ — ١٤٨ .

لو لم تداركها وتراب صدعها
لغدت بها خيل الهلاك توثب
أحييتها بعد الممات وبعدما
قامت بواكيها تنوح وتندب(١٠٨)

ثم ان ابراهيم بن عبد الله بن أبى جروان أحد رؤساء بنى عبد القيس قام بمؤامرة للقبض على الأمير على بن ماجد الذى اضطر بدوره للهرب خارج البلاد ، فتم تنصيب مقدم بن غرير العيونى ، الذى نشأ نشأة بدوية جاهلا بشؤون السياسة حيث استغله رؤساء العشائر لسوء ادارته ، فأطلق لأيديهم العنان يتحكمون فى مقدرات الشعب ، وعند وصول ابن مقرب الى مدينة القطيف أطلقها صرخة مدوية ، وبعث بقصيدة الى ابن أبى جروان بالاحساء وهو الذى كان السبب فى تنصيب مقدم جاء فيها :

أرجال عبد القيس كم أدعوكم
فى كل حين للعلا وأوان
لا تسقطوا من هامكم وأنوفكم
همم الرجال وغيرة الفتيان
وذروا التحاسد والتنافس بينكم
فكلاهما نزغ من الشيطان
لم يبق مال تتقون به العدى
لربيعة فيها ولا قحطان

ثم خاطب ابن أبى جروان نفسه فى هذه القصيدة :

أتراك ترضى أن يحدث جاهل
أو عالم ، من نازح أو دان

---

(١٠٨) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٨٩ .

فيقــــول كــان خــراب دار ربيعـــــة
بعـد العمـــار بنــو أبــى جـــروان
يأبــى لــك الطبـع الـكريم ونخــوة
عربيـــة شــهدت لهــا الثقـــلان(١٠٩)

ثم رأى أهل الحل والعقد من الوززاء والرؤساء أن يولوا الأمر : محمد بن ماجد بن محمد بن أبى الحسين فنودى به ملكا على البحرين، ومدحه ابن مقرب بقصيدة مطلعها :

خـــذوا عن يمـين المنحنى أيهـا الركب
لنسأل ذلك الحى ما صــنع السرب(١١٠)

غير أن محمد بن ماجد لم يلبث فى الحكم طويلا ، اذ ثار عليه ابن عمه محمد بن مسعود وقتله ، واستولى على البلاد ، ثم أعقبه من بعده ابنه الفضل ، وفى عهد هذا الأخير زالت الدولة العيونية •

وتفصيل ذلك أن جلساء الأمير المذكور تواطئوا مع رؤساء قبيلة عقيل بن عامر على أن يشنوا على البلاد حربا ويحاصروها ، وهم بعد ذلك يشيرون على الأمير بطلب الصلح ، واذا طلب الصلح منهم يجيبونه الى ذلك بشرط أن يعطيهم جميع القصور والبساتين الخاصة بالأسرة المالكة ، واذا استشارهم أشاروا عليه بذلك ، فنفذ رؤساء بنى عقيل خطة المؤامرة ، وحاصروا الاحساء ، وأفسدوا ثمارها وزروعها ، وكان ذلك وقت الأرطاب ، فضاق الأمير بذلك ذرعا ، وجعل يتلمس الرأى من الجلساء والمستشارين ، فأشاروا عليه بطلب الصلح ، فأرسل الأمير الى رؤساء بنى عقيل وهم بنو عصفور يطلب منهم الصلح ، فأجابوه على شرط أن يسلم اليهم ما يرغبون فيه من القصور والبساتين الخاصــة بالأسرة المالكة ، فثقل عليه الشرط ، وعرض الأمر على أولئك النفر الذين

---

(١٠٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٣٧ — ٦٤١ .
(١١٠) المصدر السابق — ص ٢٦ .

دبروا المؤامرة ، فأشاروا عليه بقبول الشروط ، وقالوا ان ذلك أيسر من ذهاب البـلاد كلها ، فقبض على جميـع ما أرادوا من البسـاتين والقصور ، وسلمه الى رؤساء بنى عقيل ، وفكوا الحصار ، ودخلوا البلاد دخول الفاتحين ، وأصبحت الأسرة المالكة فقراء معدمين .

وقال ابن مقرب يصف هذه الفاجعة :

بعض الـذى نالنـا يا دهـر يكفينـا
فامنـن ببقيـا وأودعهـا يدا فينـا
ان كـان شـأنك ارضـاء العـدو بنا
فـدون هـذا بـه يرضـى معادينـا
الحمـد للـه حمـدا لا نفـاد لـه
اذ لم يـكن ضعفنـا الا بأيدينا(١١١)

وهى قصيدة طويلة يظهر فيها كيف أن الأسرة المالكة قد حقـدت على الملك لأخذه قصورهم ، وبساتينهم وتسليمها لرؤساء بنى عقيل ، فنفضت يدها من مناصرته ، فتلاشت سلطته وتقلص نفوذ العيونيين منذ ذلك الحين ، وانتقلت السلطة الى بنى عصفور من رؤساء بنى عقيل ، وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى .

هذا وقد دام حكم العيونيين على البحـرين قرابة القرنين من الزمان ، وكانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، ولولا الخلافات بين أفراد هذه الأسرة العربية ، ولولا الشـقاق والنزاع بين بعضهم البعض الأمر الذى أدى الى الاستعانة بالأجانب والأعادى والطامعين ، لكان لهذه الدولة شأن وأى شأن،ولكن الدول ـ كما يقول ابن خلدون ـ تهرم وتقضى نحبها ، وهذه سنة الحياة فى كل شىء ، ولا يبقى الا وجه الله ذو الجلال والاكرام .

* * *

(١١١) الديوان ـ طبعة الاحساء ـ ص ٦١١ .

الفصل الثالث

« مصـادر شـعره »

أهم مصدر لشعر ابن مقرب هو ديوانه الذى ضم أغلب شــعره ــ وان لم يكن كله ــ أما ما ورد له من أشعار قليلة فى ثنايا التراجم التى أشرنا اليها فهذا لا يعول عليه كثيرا ، وديوانه المطبوع لا يقل ضخامة عن دواوين علية الشعراء ، وفيه ما يربو على المئة قصيدة ، ويحتوى على أكثر من ٥٣١٤ بيتا •

وقد حفل بمقدمات وايضاحات تاريخية لأكثر القصائد لا كلها ، وأغلب الظن أنها من عمل شراح الديوان القدماء ، وقصــائد الديوان مرتبة حسب الحروف الأبجدية للقوافى ، هذا وللديوان عدة نســخ مخطوطة ومطبوعة نستعرضها فيما يلى حسب ترتيبها الزمنى :

أولا : النســخ المخطوطة[1] :

(أ) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٢٦ ــ أدب) وعدد أوراقها ١٦٩ ورقة ، مكتوبة بخط واضــح ، وقد كتبها بقلمه أمين حسن أبو القاسم وذلك فى سنة ١٠٦٧ هـ ، وسمى الناسخ شاعرنا محمد بن المقــرب ، ولكنه فى آخر صفحــة من المخطوطة يعود فيسميه على ابن محمد بن المقرب العيونى •

(ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠٩١ ــ أدب) وفى صدرها : « ديوان الشيخ الرئيس الســامى جمال الدين عــلى ابن المقرب النعمانى ، كافاه الله بما هو أهله ، وقد دخل تحت تصرف ابراهيم بن عبد الله باشا بن ثنيان آل سعود ، والاعتماد على الرب » • وتاريخ كتابة هذه النسخة سنة ١١٣٠ هـ فى ٤١ ورقة ، وتكمن أهميتها فى تسجيل بعض حوادث الجزيرة والخليج العربى فى القرون الأخيرة على الصفحات الأولى منها •

---

(١) راجع مقدمة ديوان الشاعر طبعة الاحساء •

(ج) نسخة بالمكتبة الماجدية بمكة المكرمة ، وهى تطابق نسخة الديوان المطبوعة فى الهند من بعض الوجوه ، الا أن فى المخطوطة بعض الزيادات على ما طبع ، ومع ذلك فانها تنقص فى عدد أبياتها عن عدد أبيات الطبعة الهندية وقد سقطت المقدمة من هذه النسخة ، ومعظم القصيدة الأولى التى مطلعها فى الديوان :

كم أرجع الزفرات فى أحشائى
وآلام فى دار الهوان ثوائى

وهى تبدأ فى المخطوطة كالتالى :

فلكل شاوى وراعى هجصة
جاف حديث العرف كالكشحاء

وسقط منها حوالى (٢٥) بيتا الأولى ، كما سقط من آخر النسخة بعض ورقات ، وهذه النسخة بخط ناصر بن حمد بن لاحق من تلاميذ الشيخ صالح العتيقى — من أهالى مدينة (المجمعة) بنجد وقد نسخها ابن لاحق بالاجازة من شيخه العتيقى ، وتعد هذه النسخة من أتقن نسخ الديوان المخطوطة ، وتم نسخها سنة ١١٩٤ هـ .

(د) نسخة خطية محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (٢٠٢٨ — ج) وهى مكتوبة بقلم عادى سنة ١٢٨٤هـ،وبلغ مجموع أبياتها ٤٨٣٧ بيتا ، وقد أتلف السوس كثيرا من أبياتها ، وهى خالية من المقدمة، وكتب فى صدرها : « ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى » ، وكتب فى صدر الصفحة الأولى منها : « هذا ديوان الشاعر الأديب ، والفصيح اللبيب ابن معشوق البغدادى عليه رحمة الهادى ، وهو من كتب الأدب المعتبرة فى البلاغة وغيرها ، ولله دره . ونسبة الشاعر بهذا الشكل تجعلنا نجزم بأنه خطأ من الناسخ لا شك .

(هـ) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٢٢ — أدب) مكتوبة بخط واضح سنة ١٢٨٦ هـ ، فى ١٢٥ ورقة ، وهذه النسخة تعتبر أكثر النسخ شمولا لشعر ابن مقرب .

(و) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٠١٧ — أدب) وكتابتها واضحة وعلى ورق جيد ، وكتبت سنة ١٢٩٣ هـ ، فى ١٢٢ ورقة، بقلم خليل الشبكشى ، وهى منقولة من النسخة (أ) .

أما باقى النسخ المخطوطة فهى غير مؤرخة ونذكرها فيما يلى :

(ز) ذكر الأستاذ محسن جمال الدين فى مجلة (الأديب) — البيروتية عدد يونيه سنة ١٩٥٥ ، أنه عثر على مخطوطة لديوان شعرى باسم ابن المقرب فى اسبانيا ، وهو من الحجم المتوسط ، وقد سقطت أوراقه الأولى ، وليس له مقدمة ، وذكر أن الديوان غير مبوب أو مرتب على الحروف الهجائية ، وتحتفظ به المكتبة الأهلية بمدريد تحت رقم ٥٢٤١ ، وأول القصائد فيه :

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد(٢)

وآخر الديوان :

ما أنصف الطلل العافى بماوانا
لم نشجه يوم سلمنا وأشجانا

(ح) ذكر الدكتور داوود الحلبى فى (مخطوطات الموصل) ص ٤١ — أن فى مكتبة المدرسة الاسلامية التابعة للنادى العلمى فى الموصل نسخة من ديوان (ابن مقرب العبدلى الأمير جمال الدين أبو منصور على ابن عبد الله بن المقرب) .

---

(٢) القصيدة موجودة فى الديوان — طبعة الاحساء فى ص ١٤٠ .

(ط) توجد فى مكتبة الحرم المكى نسخة مخطوطة تضم طائفة من أشعار ابن مقرب تبلغ (١١٣١) بيتا .

(ى) نسخة بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، وفيها كثير من الأبيات وبعض قصائد لم ترد فى النسخة المطبوعة فى الهند ، ونسبة الخطأ فيها قليلة .

(ك) نسخة بمكتبة فيض الله باسطمبول — بتركيا .

(ل) نسخة بمكتبة المتحف البريطانى — بلندن .

(م) نسخة بمكتبة برلين — ألمانيا(٣) .

ثانيا : طبعات الديوان :

الطبعة الأولى :

طبع الديوان لأول مرة بمكة المكرمة فى أيام العثمانيين سنة ١٣٠٧هـ، وهذه الطبعة خالية من الشرح والضبط ، وهى رديئة وسقيمة وغير محققة ، ولذا جاءت مشحونة بكثير من الأخطاء المطبعية والاملائية وعدم الدقة والاتقان فى اخراجها ، ولايمكن الاعتماد عليها .

وقد كتب على صدرها : «هذا ديوان الشاعر اللبيب الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن على بن المقرب بن المنصور بن مقرب بن على ابن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد القليونى الاحسائى بل الله ثراه » ، ومقدمة النسخة مبتورة ، وقد زيدت عليها اضافات تخرج بها عن موضوع الديوان ، وقام بطبعها على نفقته عبد الله بن سعيد باخطمة،

---

(٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب — ص ٣٣ .

الطبعة الثانية :

وكانت بالهند بمطبعة ديرت ساد سنة ١٣١٠ هـ ، وهى أوفى من الطبعة المكية ومشروحة ولكن شارحها مجهول ، ويقال أن الذى جمع قصائدها هو الشيخ حمد بن خليفة العيونى ، وليس من المؤكد ما اذا كان هذا الشخص ينتسب الى أسرة الشاعر أم انها مجرد نسبة الى بلدة العيون بالاحساء(٤) ، وهذه النسخة طبعت على نفقة الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، وكانت بخط رئيس المحررين بالهند يومذاك مـلا محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكينى الشافعي ، ورغم أن هذه الطبعة أيضا لم تخل من الأخطاء وعدم العناية الا أنها فى هذا الجانب أخف من الطبعة الأولى ، فهى مثلا لم تستكمل بعض قصائد الشاعر ، فالقصيدة البائية التى مطلعها :

خذوا عن يمـين المنحنى أيهـا الركـب
لنسأل ذاك الحـى ما صـنع السرب(٥)

ليس موجودا منها بطبعة الهند سوى (٥٨) بيتا ، بينما بلغت فى الطبعة المكية (٨٢٠) بيتا ، على أن مجموع أبيات الطبعة الهندية يبلغ (٤٥٧٠) والطبعة المكية نحوا من نصف هذا العدد ، وزيادة على ذلك فإن الطبعة الثانية تمتاز باحتوائها على مقدمة تاريخية تلقي بعض الضوء على حياة الشاعر وأخلاقه ورحلاته ، وعلى معلومات تاريخية عن منطقة البحرين عامة وأسرة الشاعر خاصـة ، فهى من هذه الناحيـة عظيمة الأهمية .

---

(٤) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ، ص ٣٠ .
(٥) موجود بالديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٦ .

الطبعة الثالثة :

وهى على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثانى — حاكم قطر السابق — وذلك سنة ١٣٨١ هـ ، ويشرح الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، ونشرها المكتب الاسلامى بدمشق ، وهــذه الطبعة بدورها لا تخلو من الأخطاء اذ سقطت منها أبيات كثيرة ، الا أن الناشر أتبعها بملحق ضم أكثر ما سقط منها من أبيــات ، ووعد الناشر فى المقدمة أن يعيد طباعة الديوان مرة أخرى بصورة أكثر اتقانا من سابقتها ، ووفى بوعده ، وأعاد طباعة الديوان سنة ١٩٦٨ م ، ولكن للأسف لم يصدر منه الا الجزء الأول فقط وضم حوالى (٥٣) قصيدة فقط ، وقال الناشر فى آخر صفحة من هذا الجــزء : « انتهى الجزء الأول من ديــوان ابن المقرب ويليه الجزء الثانى وأوله قافية اللام » الا أن هذا الجزء لم يصدر حتى الآن •

الطبعــة الرابعة :

وهى بشرح وتحقيق الأستاذ محمد الحلو ، وطبع الديوان ونشره (مكتبة التعاون الثقافى) بالاحساء على نفقة صاحبها الشيخ عبد الله الملا ، سنة ١٩٦٣ م ، وهذه الطبعة جيده وبذل فيها المحقق جهدا ملحوظا ، وقام بتحشية الديوان ببعض الشروح وعمل له مقدمة ، ولكنه اعتمد فى الشرح على النسخة المطبوعة فى الهند ، وأنا شخصيا اعتمدت فى دراستى لابن مقرب على هذه الطبعة اعتمادا كبيرا هى وسابقتها وعنــدما قمت بمقارنة الطبعتين ببعضهما اتضح لى بعض الفروق والاختلافات بينهما وهــى :

١ — احتوت طبعة دمشق على قصيدتين على قافية الحاء ، خلت منهما طبعة الاحساء احداهما مكونة من (١٠) أبيات ومطلعها :

شـــرف الديـــن خـــذين الســـماح

عـــلام ذا الاعـــراض والاطراح[٦]

والثانية مكونة من (٤٣) بيتا ومطلعها :

الام أروم الصـــبر والصـــبر نـــازح

وأرجـــو احتباس الدمع والدمع سافح[٧]

٢ ــ خلت طبعة دمشق من قصيدة عينيه مطلعها :

يـــا باكيـــا لدمنـــــة وأربـــــع

ابنـــك عـــــلى آل النبـــــى أو دع[٨]

وهى موجودة فى طبعة الاحساء وعدد أبياتها (٧٦) بيتا .

وفيما عدا ذلك فان النســختين تتفقان فى المقــدمات التاريخيــة والايضاحات لمناسبة بعض القصائد ، أما عن سقوط بعض الأبيات من نسخة أو تقديم بعضها على بعض فى النسخة الأخرى ، فأغلب الظن أن ذلك يرجع الى تعدد النسخ المخطوطة للديوان واختــلاف الباحثين فى النقـــل عنها .

وعلى كل حال فلا شك أن تعدد طبعات ديوان ابن مقرب بهــذه الصورة وتوالى نسخه بهذه الكثرة ــ لا شك ــ أن ذلك يعتبر مؤشرا على قوة شعره وأصالة موهبته ، والا ما اهتم الناس به ، وما حرصوا

(٦ ، ٧) الديوان ، طبعة دمشق الأولى ، ص ٨٨٦ ــ ٨٨٧ .

(٨) القصيدة موجودة فى الديوان ص ٢٥٩ .

على تداول هذا الشعر وبسماعه من حين لآخر ، بل وحفظه فى الصدور حتى لا يبلى أو يضيع ، وعن هذه الناحية يقول أحد الذين كتبوا عن ابن مقرب : « ونظرا لما يمتاز به شعره من قوة وحيوية وصراحة ، فقد اهتم الناس بحفظ أشعاره وتناقلوها ، حتى أن ديوانه طبع فى العصر الحديث عدة طبعات .. وهذا ما لم يحظ به شاعر آخر فى الخليج من اهتمام ومكانة[٩] .

---

(٩) محمد جابر الأنصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ٣٢ — الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

الفصل الرابع

« أغراض شعره وتحليلها »

« تمهيـــــد »

قصة الشعر لدى شاعرنا ابن مقرب قصة ولدت معه منذ نعومة أظفاره ، ونمت مع أيام عمره ، والرواة يؤكدون أنه بدأ قرض الشعر ولما يبلغ الحول العاشر من عمره[1] .

والواقع أن مثل ذلك ليس بغريب أو فريد فى تاريخ العرب الأدبى فقد حدثنا هذا التاريخ مرارا عن شعراء قالوا الشعر موهبة وفطرة فى مثل هذه السن المبكرة ، ومما يؤسف له ضياع شعر الطفولة هذا الذى قاله الشاعر فى سن مبكرة ، الا أن شعره الذى بين أيدينا ينبىء أن قائله تمرس بنطق الشعر منذ أمد بعيـــد ، وبأنه عالج فنونه ـــ ولو بشـــكل ساذج ـــ منذ أيام الشباب .

والقارىء لشعره يحس فى قرارة نفسه بأن وراء هذا الشعر رجلا عملاقا ، وشاعرا له خطره وأثره ، ويدرك لفوره بأن فى معانيه من البعد والاتقان وصدق الشعور ، ما لا يقل بحال عما فى معانى كثير من شعراء الضاد المبرزين .

ولعل مما يزيد من مكانة ابن مقرب الشعرية نشأته فى زمن تصدعت فيه دولة البيان وتداعى فيه صرح الشعر ، وأفل نجم الأدباء والشعراء، بالاضافة الى أن شاعرنا قد نشـــأ وعاش فى أرض الجزيرة العربية فى ربوع البحرين ، وهى أرض كان الشعر الجيد الرصين قد هجرها منذ أمد بعيد ، فلم تعد صعيدا لفحول الشعر ، ونستطيع القول أن عصر ابن مقـــرب ـــ القرن الســـابع الهجرى ـــ عصر أقفـــر من الشـــعراء الحقيقيين ، ولذا كان ابن مقرب فى وطنه وزمنه أمة فى عالم الشعر ،

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الهندية للديوان سنة ١٣١٠ هـ .

فهو شاعر مجيد تتمثل فى شعره الأصالة والبراعة ومتانة الفكر وسمو الغاية ، كما تتمثل فيه قوة العزيمة ، وجبروت النفس وصدق التجربة ، كما أنه طويل النفس فى معظم قصائده ، وسنلاحظ من خلال استعراضنا لأقوال من ترجموا له ثناءهم على شعره ووصفهم له بالجود وحسن السبك .

فمنهم (ابن ماكولا) الذى وصف ابن مقرب بأنه : شاعر محسن(٢) ووصفه بعض متقدمى عصره بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمه ، كثير الأمثال فى نظمه) وأنه (لم يتسكتب بالشعر لعطايا ، ولم يمتدح ذى ثروة من البرايا ، وانما كان مديحه أكثره فى أهل بيته وعشيرته وهم ملوك البحرين وله فيهم المدائح والمعاتبات والنصائح)(٣) ، وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شاعرا مجيدا مليح الشعر)(٤) ، وقال عنه ابن الفوطى : (كان شاعرا مسترفدا جزل الألفاظ)(٥) ، وممن امتدحه كثيرا ابن الشعار الموصلى فقال عنه : (كان شاعرا مجددا منتجعا ، كثير المدح قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير فى عصرنا المعروفين ، أقر له الحذق أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ وابداع المعانى)(٦) .

وعلى أية حال فابن مقرب فى معظم قصائده — ينهج نهج متقدمى الشعراء ويسير على منوالهم ويترسم خطاهم وسننهم ، حيث يبدأ القصيدة بغرض خارجى بعيد عن غرضها الأساسى ، ثم ينتقل الى غرض

---

(٢) الاكمال — لابن ماكولا .
(٣) مخطوطة مجهولة المؤلف — دار الكتب — رقم ٦٣٧ تاريخ .
(٤) التكملة لوفيات النقلة .
(٥) ابن الفوطى — تلخيص مجمع الآداب .
(٦) ابن الشعار الموصلى — قلائد الجمان فى شعراء الزمان .

آخر وربمـــا الى أكثر ، حتى ينتهى به المطـياف الى التخلص فى براعة وحسن من تلك الأغراض الى الغرض الرئيسى فى القصيدة ، على أنه قد يستهل قصيدته بالغرض المنشود رأسا وبدون أية مقدمات ، ومن تحصيل الكلام أن نقول أن القصيدة عنده ليست وحدة قائمة ، وانما البيت فى الغالب هو الوحدة ، فهو يجىء مستقلا بذاته عما قبله وعما بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب .

وفيما يلى سندرس أهم الأغراض التى قال فيها ابن مقرب شعرا وسنحاول أن نبين قدر الامكان الظواهر التى تميز بها هذا الشعر مع ايراد الأمثلة بقدر المستطاع للتدليل على ما نقول .

١ — المديح :

استنفد غرض المدح من شعر ابن مقرب أكثر من نصف قصائد الديوان ، وبالتحديد حوالى (٥٢ قصيدة) — من أصل مائة قصـــيدة موجودة بالديوان[٧] ، وقد صرف معظم هذه القصائد المدحية فى أبناء عمه الأمـــراء العيونيين وذلك بغرض استرداد أمـــلاكه وأمواله التى اغتصبوها منه جورا وظلما ، وباقى مدائحه قالها فى غيرهم من الأمراء والأعيان غير العيونيين الذين كانت تربطه بهم علاقات ود وصداقة ، وهو كما قال عن نفسه لم يمدح من لم يستحق المدح فهو لم يمدح قدما فى حيـــاته .

وليس فى الشـــعر من فضـــل يطول به
مثلى ولـــو فاق أعـــلى سبعها الطـــول

بـــل فضـــل مثـــلى أن يســـمو بهمتـــه
عن مدح فـــدم عن العليـــا فى شـــغل[٨]

---

(٧) الديوان — طبعة دمشق — الطبعة الأولى .

(٨) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٨٣ .

ويمكننا بعد ذلك تقسيم ممدوحى ابن مقـــرب الى قسمين :

القســم الأول :

ويضم أبناء عمه الأمراء العيونيين ، وهؤلاء — كما قلنا — نالوا نصيب الأسد من مدائحه ، ونلاحظ على مدائحه فيهم أنها تمتزج غالبا بالفخر ، وهذا ليس بالغريب اذا علمنا أن ابن مقرب عندما يمدحهم فانما يمدح نفسه وانه عندما يفخر بهم ، فانه يفخر بماضى آبائه وأجداده لأنه منهم وبهم ، ومـا يصيبهم من قوة أو ضعف سـيعود عليه حتما وسيتأثر به • ومن الملاحظات الأخرى أيضا على مدائحه فى هذا القسم حرارة العاطفة وصـدق الشـعور وقوة الاندفاع فى الاشـادة بمآثر الممدوحين وصفاتهم من شجاعة وكرم وشبه ذلك •

القســم الثــانى :

ويشمل كل من مدحهم ابن مقرب من غير الأسرة العيونية وأهمهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء ، والأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة ، وقد تضمن الديوان حوالى (٧) قصائد قالها فى مدح هذا الأمير وحده مما يدل على قوة الصله التى كانت تربط بين الرجلين • كما مدح الشاعر كثير من الأعيان والولاة ولكن فى قصائد قليـــــلة •

ومدائحه فى أصحاب هذه المجموعة — وان كان لا ينقصها الصدق — الا اننا نلاحظ عليها افتقاد الروح المندفعة التى نلاحظها على مدائحه فى القسم الأول ، كما نفتقد فيها حرارة الشعور وفيض العاطفة •

ومن أمثلة مدائحه فى أبناء عمه الأمراء العيونيين قوله يمدح الأمير

محمد بن ماجد بن محمد العيونى لما ملك الاحساء من البحرين فى قصيدة طويلة منها(٩) :

وانـــى بقـومى للضـــــنين واننـــى
على بعـــد دارى والتنـــائى بهم حـــدب

ولـــى فيهم ســـيف اذا مـــا انتضيتـــه
على الدهر أضحى وهو من خيفـــة كلب

على أن حـــد الســـيف قـــد ربمـــا نبـــا
وفـــل ، وهـــذا لا يفـــــل ولا ينبـــو

همـــــام علـــت همـــاته فـــــكأنمـــا
يحاول أمـــرا دونـــه الســـبعة الشـــهب

عـــــلا كـــل بـــاع باعــــه وتواضـــعت
لعـــزته ، وانقـــادت العجـــم والعـــرب

ســـليل عـــلا من دوحـــة طـــاب فرعهـــا
وطـــالت ذرى أغصـــانها وزكى التـــرب

يبيـــت مناويـــــه يســـــاور همــــه
ويقضـــى عليه قبـــل أن يقضـــى له نحب

ســـما للعـــلا من قبـــل تبقيـــل وجهـــه
فأدركهـــا والمأثـــــرات لـــــه صـــحب

هـــو البـــدر لـــكن ليس يســـتر نـــوره
حجـــاب ونور البـــدر يســـتره الحجب

---

(٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٢ . ونبا السيف : لم يقطع ، فل : ثلم ، بقل وجه الغلام : خرج شعـــره ، القرب : ادخـــال السيف فى القـــراب .

هو الليث لكن غابه البيض والقنا
هو النصل لكن كل متن له قرب

هو الموت لكن ليس يقتل غيلة
هو البحر الا أن مورده عذب

وما غالبته منذ كان كتيبة
لتظهره الا وكان له الغلب

وما هابت الأملاك بكرا من العلا
لعزتها الا وكان له الخطب

أتانى من الأبناء عنه غرائب
فلذت بها الأسماع واستبشر القلب

بعطف على ود العشيرة صادق
ورفض عداها لا محال ولا كذب

وتجميرها من كل أوب حمية
عليها فزال الخوف والتأم الشعب

فنلاحظ فى هذه الأبيات ما سبق وقلناه من صدق العاطفة وحرارة الشعور نحو قومه فهو ضنين بهم على رغم الأقدار التى رمت به بعيدا عنهم والظروف التى اضطرته للابتعاد عن وطنه وهجران داره ، وهو يؤكد هذا الشعور مرة أخرى عندما يبين قوة صلته بالأمير الممدوح ويشبه هذه العلاقة ، بعلاقة السيف بحامله والتصاقه بيده ، وليس أقرب من هذه العلاقة ولا أقوى من هذا التصوير ، الذى ان دل على شىء فانما يدل على قوة وفائه لعشيرته على رغم ما أصابوه به من كوارث ونوازل وحرمان .

ثم ان الشاعر يصف الممدوح بعلو الهمة ، حتى انه لعلو همته يبدو وكأنه يحاول الوصول الى أمر دونه كواكب السماء العالية البعيدة وأنه

لقوته وعزته واتساع ملكه الذى فاق كل الأملاك قد أذعنت له العرب والعجم ، وما ذاك الا لأنه سليل عزة تقوى الأصل ، طيب الأرومة ، من دوحة طاب فرعها ، ومن آباء كرام طالما رفعوا راية العزة ، وكان لهم النصر والغلبة ، وأنه من شدة هيبته يبيت عدوه خائفا منه يساور همومه ، ومخاوفه ، فيقضى عليه من شدة الهم قبل أن يحين أجله !! ثم يقــول عنه بأنه (سما للعلا من قبل تبقيل وجهه) أى من قبل أن يخرج الشعر فى وجهه ، وهذا كناية عن تطلعه الى عظائم الأمور منذ حداثة سنه وهو لما يبلغ بعد مبلغ الرجال .

ثم يشبهه فى جمال وجهه بالبدر الذى لا يستره ساتر ولا يحجبه حجاب ، وفى شجاعته بالأسد وفى مضائه بالنصل المشرع دائما وليس له قراب ، وفى شدة فتكه بالأعداء بالموت ، الا أنه لا يقتل غيلة — بل يأتى أعداءه جهارا نهارا ، وهذا أدل على شجاعته ، ويشبهه فى كرمه بالبحر الذى عذب ماؤه . ثم يحكى الشاعر أنه سمع عن الممدوح أنباء لذ بها سمعه واستبشر بها قلبه ، وهى عطف الأمير على عشيرته التى هى عشيرة الشاعر ، وبأنه عمل على توحيد أمرها ، ولم يشملها ، ورأب صــدع تفرقها ، حتى زال الخوف ، وعاد الأمن والاجتماع بعد التفرق والتشتت ، وكل هذه المعانى يرددها الشاعر فى أغلب مدائحه لأبناء عمه ، لأنه كما ذكرنا منهم وبهم ، وهذا يلاحظه بجهد بسيط كل من يقرأ مدائحه الكثيرة فيهــــم .

ومن أمثلة مدائحه فى القسم الثانى قوله يمدح الأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة من قصيدة لامية طويلة ويكنيه بأبى شجاع(١٠) .

---

(١٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٠٩ . اتراك لا نظرا ولامعقولا اى لا نظر لديك ولا عقل ، مشكولا : مقيدا ، والشكال : حبل تشد به قوائم الدابة ، ابرم امره : قضاه او جمعه واحكمه ، تميل مميلا : اى منع الأعداء أن يميلوا عليها اى ميل فحصنها بذلك ، ند الجوامـــع : اى فاقها بحســـنه وفخامته ، وعفا : الدثر .

يا عــاذلا بأبــى شــجاع غــيره
أتــراك لا نظــرا ولا معقــولا

تأبــى مــكارم باتــكين بــأن تــرى
أحــدا لــه فى ذا الزمــان عديــلا

جـرت الملـوك فلـم تشـق غبـاره
وجـرى فشـق غبـارها مشـكولا

لــو لم يــكن بالبصــرة انقلبت بمـن
فيهــا وجــر بهــا الخــراب ذيــولا

كانت ســوادا قبــله فأعــادها
مصــرا تروقــك ممسـئا ومقيــلا

بالتبــر والأنبــال والســور الـذى
منــع الأعــادى أن تميــل مميــلا

والربــط بــين مــدارس ومشــاهد
شــرفت وفضــل أهلهــا تفضيــلا

أحــى بهــا للشــافعى ومالــك
وأبى حنيفــة أحرفــا وفصــولا

وبجامــع نــد الجــوامع كلهــا
حســنا وعرضــا فى البنــاء وطــولا

لولا اتفــاق حريقــه فى عصــره
لعفــا وعطــل رســمه تعطيــلا

كــم مــن رواق زاد فيــه وحصــره
زادت الــى ترفيــله ترفيــلا

وبنــى بــه للمســلمين مقرمــدا
تــرك الخورنــق فى العيــون ضيئــلا

ولقد مضت حقب بها وسراتها
نهب فأنقذ شبلوها المأكولا

أفعاله لله خالصة فما
تلقى لمعتقد الرياء مثيلا

لو كان فى الأمم الخوالى مثله
ملك لما بعث الاله رسولا

فصفات الأمير الممدوح من الكرم والشجاعة تأبى أن تجد له ندا أو مثيلا ، ومن يفكر أن يعدل به غيره فى خلاله الكريمة فهو لا نظر له ولا عقل ، ولو لم يتول أمر البصرة لتحولت الى خراب ، ولكنه بحسن سياسته أعادها بلدا جميلا تروق للناظر صباحا ومساء ، وحصنها من الأعداء فباتت آمنة ، وبات أهلها آمنين سعداء ، ولكنه لم يكتف بذلك بل بنى المدارس ومعاهد العلم يدرس فيها العلماء تلاميذهم مذاهب الأئمة الكبار كأبى حنيفة ومالك والشافعى وغيرهم فأحيى بذلك المغفل سنن الاسلام وشرائعه ، ثم ان ابن مقرب يمدح الأمير باتكين بأنه بنى بالبصرة جامعا كبيرا بذ الجوامع كلها فى الحسن وفى ضخامة البناء ، ويستطرد فى ذكر أوصاف هذا الجامع ويقارن بينه وبين قصر الخورنق الذى بناه النعمان الأكبر فيقول ان هذا الجامع ترك قصر النعمان ضئيلا بجانبه ، ثم يخلص من ذلك كله الى القول بأن أفعال الأمير باتكين خالصة للهوليس للرياء فيها نصيب ، ثم يقول مادحا له ومبالغا فى مدحه بأنه لو كان يوجد أحد يملك مثل صفاته ، وخلاله ومناقبه لما احتاج الاله الى ارسال رسول !!

وبالرغم من هذا الحشد الهائل من المدائح والمبالغات وذكر مآثر الممدوح وأعماله ، فاننا نفتقد فيها حرارة العاطفة وصدق المشاعر التى نجدها فى مدائحه لأبناء عمه ، على أننا من جهة أخرى نقف بمثل هذا الشعر على مدى ما وصلت اليه البصرة فى عهد الأمير باتكين من الناحية التاريخية من تطور وازدهار ، وما أنشأه فيها هذا الأمير من اصلاحات

وأعمال عمرانية جعلت شاعرنا يلهج بمدحه والثناء عليه . وهذه ناحية سنعرض لها بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن ظاهرة السرد التاريخي في مدائح ابن مقرب ان شاء الله .

ابن مقرب الشاعر التقليدى :

يمكن القول بأن أوصاف ابن مقرب لممدوحيه وتشبيهاته لهم ، تدور فى معظمها ــ وكما رأينا فى المثالين السابقين ــ حول المعانى التقليدية المتداولة من حيث وصف الممدوح بالشجاعة وتشبيهه بالأسد فى الشجاعة وبالبحر في الكرم ، وبالبدر فى جمال الوجه وبالسيف فى مضائه وقوته ، الى آخر هذه المعانى التى صاغها ابن مقرب على طريقة الشعراء المتقدمين ، فهو يبدأ قصيدته بالغزل بالمحبوبة ثم يصف رحلته الى الممدوح ويذكر ماتكبدفيها من مشاق وما لقى من عنت . وينتقل بعد ذلك الى غرض آخر من الأغراض وهكذا حتي يخلص الى مدح الممدوح وذكر مآثره والاشادة بمناقبه الحميدة وخصاله العظيمة .

هذا من ناحية المعانى ، ومن ناحيــة الألفاظ فهو كما رأينا تميز بقوة الألفاظ ورصانتها وجزالة اللغة وفخامتها ، وهــذا ما يدفعنا الى القول بأنه درج على نهج الشــعراء العرب الأقدمين ســواء من ناحية الألفاظ أو المعانى .

هذا وقد صنفه أحــد النقاد المحدثين[11] تحت قائمة الشــعراء التقليــديين ، وقارن بينــه وبين شــاعر آخر من عصره هو الشــاعر (الأبيوردى) فقال أولا عن الأبيوردى : (والأبيوردى الشاعر العربى عاش بأصبهان وكان ينتسب الى بنى أميــة وعبد شمس ، وكان كثير الاعتزاز بنسبه هذا فى شعره ، كما كان دائم الفخــر بعروبته ، وكان

(١١) انظر الأدب فى العصر الأيوبى ــ د. محمد زغلول سلام ــ ص ٣٥٢ .

ينهج منهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعا) ، ثم يقول عن ابن مقـــرب : (وقريب من روح الأبيوردى وطريقتـــه ابن مقرب الاحسائى ، وهو شاعر بدوى وطنا وروحا ، وهو صاحب نفس طموح كصاحبه ، يسعى الى المجد وبلوغ أمل بعيد يظـــل طول حياته يعمـــل لبلوغه)(١٢) .

ومن نماذج شعر ابن مقرب التقليدى الذى يظهر فيه اتباعه لمناهج الأقدمين فى الصياغة والوقوف على الدمن والآثار فى مستهل قصـــيدة المدح قولـــه : (١٣)

أمـــن دمنـــة بـــين اللـــوى والدكـــادك
شـــغفت بتـــذارف الدمـــــوع السوافك

عفـــت غـــير آرى وأورق حائـــــــل
وأشـــعث مشـــجوج وســـفع روامـــك

ونـــؤى كجـــذم الحـــوض غـــير رسمه
وجيـــف الحصـــى بالموجفـــات الحواشك

كـــأن فـــــؤادى ناطـــــه ذو ســـخيمة
قايـــل التنحـــى فى صـــدور النيـــازك

ثم ينتقل من وصف الديـــار الى الحديث عن أهلها المزمعون على الرحيل ومن بينهم صاحبته التى يتغزل بها فيقول :(١٤)

وفى الجـــيرة الغـــادين لا عـــن مـــلالة
ظبـــاء عـــلى تلـــك الهجـــان البوائـــك

---

(١٢) انظر الأدب فى العصر الايوبى — د. محمد زغلول ســـلام — ص ٢٥٢ .

(١٣ ، ١٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٥ — ٣٠٧ .

خمـــاص الحشـــا حم الشـــفاه كأنمـــا
يلثن مـــروط العصـــب فـــوق العـــوانك
ويســـمن عـــن نـــور الأقاحى لم يـــزل
يغـــذى بـــدرات الذهـــاب الركائـــك
وفيهـــن من ذهـــل بـــن شـــيبان غـــادة
يطيـــب رياهـــا عبـــير المـــداوك
كـــأن عـــلى فيهـــا ســـلافة قرقـــف
وقـــد غـــورت أم النجـــوم الشـــوابك

وبعدها ينتقل الى الفخر بنفسه وعلو همته ومضاء عزمه :(١٥)

فـــوا للـــه مـــا أدرى أأعـــراض بغضـــة
لنـــا أو دلال فافصـــحى عن مقـــالك
فـــلى همـــة عليـــا ونفـــس أبيـــة
تمـــج وصـــال اللاويـــات المـــواعك
ولـــى عزمـــة ان ســـاعد الحظ أشـــرفت
ونافـــت على شـــم الرعـــان الســـوامك

ثم بعد عدة أبيات يخلص الى المقصود بالمدح فيقول :(١٦)

يضـــىء ســـناها بالدجـــى متنمـــر
عـــلى الدهـــر مودى البرك رحب المبارك

(١٥ ، ١٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٨ — ٣٠٩ — ومج الشىء : كرهه ، والمعك : المكال ، نافت : اشرفت ، والرعان : جمع رعن وهو أنف الجبل ، والسوامك : الطوال . البرك : الابل الكثيرة ، موديها : ناحرها ، المستأثرات : السيوف المأثورة ، البواتك : القواطع ، العبد ليون : نسبة الى عبد القيس ، الأواب : الكثير الرجوع الى الحق. والباعك : الاحمق. البين : الفراق ، والخط : مرفأ بالبحرين قديما .

أغــر نمـــاه كــل حـــام ممانـــع
عـــن المجـــد بالمســـتأثرات البـــوائك
مـــن العبـــدليين الألـــى فى أكفهـــم
حيـــاة لأواب ومـــوت لبـــاعك

ومثال آخر من قصيدة يبدؤها بالحماســة ، ويحث نفســه على النهوض فى طلب العلا :(١٧)

بينـــى فمـــا أنت من جـــدى ولا لعبـــى
مـــالى بشـــىء ســـوى العليـــاء من أرب
لا تكثـــرى مـــن مقـــالات تزيـــد ضنى
ما الخط أمـــى ولا وادى الحســـاء أبى
فى كـــل أرض اذا يممتهـــا وطـــن
مـــا بـــين حـــر وبـــين الدار من نســـب

ثم ينعى على القاعدين من قومه الراضين بالذل والمهانة :(١٨)

يا ســاكنى الخط والأجــزاع من هجــر
هل انتظـــاركم شـــيئا ســـوى العطب
بحـــت ممـــا أناديـــكم وأندبـــكم
لخـــير منقـــلب عن شـــر منقـــلب

---

(١٧) المصدر السابق ص ٧٤ .

(١٨) الديوان ــ طبعة الاحساء ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ .
الاجزاع : جمع جزع وهو منعطف الوادى ، والعطب : التلف ، بح صوته : خشن وغلظ ، فرس ذيال : طويل الذيل ، سابغة: واسعة . سيف ذو شطب: حاد ، والناقة العيدية : من كرام الابل ، ناجية : سريعة ، والشد : العدو ، والجنب : ضرب من العدو ، والخمس (بالكسر) : أن ترعى الابل ثلاثة ايام وترد الرابع ، والدوية : الفلاة : والرالة : ولد النعام ، وذى نجب : موضع.

فســــكوتى بقـــول لا تفـــون بـــه
قـــد صـــرت أرضـــى بوعد منكم كـــذب

ثم ينتقل الى الافتخار بنفسه وبطموحه ويصـــف ناقته بالسرعة وقوة التحمل :(١٩)

اذا الديـــار تغشـــاك الهـــوان بهـــا
فخلهـــا لضـــعيف العـــزم واغـــترب
حســـبى من المـــال ذيـــال وســـابغة
وصـــارم مرهـــف الحـــدين ذو شـــطب
وحـــرة من بنـــات العيـــد ناجيـــة
لا تعـــرف الســـير غير الشـــد والخبب
تخالها بعـــد خمس الركـــب رائحـــة
دويـــة فقـــدت رألا بـــذى نجـــب

ويخلص من كل ذلك الى وصف الممدوح :(٢٠)

تقـــول لى هممـــى خـــل المقـــام وقـــم
فانمـــا راحـــة الأبـــدان فى التعـــب
وارغـــب بمـــدحك الا فى ســـليل عـــلا
ينمـــى الى الغـــر من آبائـــك النجـــب
متـــوج عبـــدلى حـــين تنســـبه
لخـــير جـــد اذا يدعـــى وخـــير أب

ولا يعنى ما قلناه عن الروح البدوية فى شعر ابن مقرب أن الصفة الحضارية منفية عنه وعن شعره ، بل ان شعره يزخر عموما وأماديحه

(١٩ ، ٢٠) المرجع السابق .

بشكل خاص بالصور الحضارية ، التى يسبغها على ممدوحيه ، والولاة منهم بالذات لما أحدثوه فى أمصارهم من عمران وازدهار وتطور، كمدائحه للأمير باتكين مثلا ، وقد مر بنا شيئا منها فيما سبق •

مقدمة قصيدة المدح :

نهج ابن المقرب فى قصيدة المدح نهج الشعراء الجاهليين والمتقدمين ، وذلك فى أغلب قصائد المدح ان لم يكن كلها ، فهو يبدأ القصيدة — كما رأينا — بغرض خارجى عن الغرض الأساسى ، ثم ينتقل الى غرض آخر وهكذا حتى يصل الى الغرض الأساسى من القصيدة • على أنه ربما استهل قصائده بالدخول الى الغرض المنشود مباشرة ودون مقدمات كقوله :

بمعاديك لا بك الأسواء
ولحسادك الثرى لا الثراء[٢١]

وقوله :

رماح الأعادى عن حماك قصار
وفى حدها عما تروم عثار[٢٢]

وقوله :

رويدك يا هذا المليك الحلاحل
فما المجد الا بعض ما أنت فاعل[٢٣]

الا أن هذا قليل فى شعره •

---

(٢١) الديوان — طبعة الاحساء ص ٢٣ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٢٠٧ .
(٢٣) نفس المصدر ص ٣٤١ .

على أنه يمكننا تصـنيف مقدماته فى قصيدة المـدح الى الأنواع المكررة المعروفة وهى اما مقدمات غزلية أو حماسية أو مقدمات يقف بها على الديار ، والدمن ، ويبكى الطلول ومنازل الأحبة أو مزيجا من كل ذلك ، وكل ذلك تطرق اليه الشعراء المتقدمون وهو معاد ومكرر ، يقول ابن رشيق عن عادة الشعراء فى ذلك :

« والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفـاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهده ، وطول النهار وهجـيره ، وقلة المـاء وغؤوره ، ثم يخرج الى مـدح المقصود ، ليوجب عليه حق القصد وذمام القاصد ، ويستحق منه المكافأة »[٢٤] .

وتتجلى عناية ابن مقرب بمقدمات قصائده وتمهيده بها للغرض الأساسى فى تطويل بعض هذه المقدمات حتى يصل بعضها الى (٥٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٨٠)[٢٥] بيتا ، وأخرى الى (٣٣) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٥٨) بيتا[٢٦] ، وأخرى الى (٢٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٦٤) بيتا[٢٧] ، وغير ذلك .

كما عنى ابن مقرب بتجويد مطالعه لأنها أول ما يقرع أذن السامع وبها يستدل على بضاعة الشاعر من أول لحظة ، فجاء مطلع قصيدته كما طالب به ابن رشيق الشعراء أن يكون « حلوا سهلا وفخما جزلا »[٢٨] .

---

(٢٤) ابن رشيق — العمدة — ص ٢٢٦ .

(٢٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٠١ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٥٨٥ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٤٥٠ .

(٢٨) العمدة — لابن رشيق — ص ٢١٨ .

ومن أمثلة مطالع ابن مقرب الفخمة الجزلة قوله فى الحماس :

ســقها ولو ذهب الســـرى بســزاتها
كـم ذا تـرد النفس عن عزماتهـا(٢٩)

وقولـــــه :

أقيمـا على حـر المـدى أو ترحـــلا
فلســت براض منزل الهــون منزلا(٣٠)

وقولـــــه :

عنــى اليـــك حـــوداث الأيـــام
مــا كل يــوم يســطاع خصــامى(٣١)

ومن مطالعه الغزلية قوله :

أرتهــا المــآقى مــا تــكن الجوانـــح
فبح فالمعنـــى بالصــبابة بائـــح(٣٢)

وقولـــــه :

تخفـــى الصــبابة والألحــاظ تبـــديها
وتظهر الزهـــد بــين الناس تمويهــا(٣٣)

---

(٢٩) الديوان طبعة الاحساء ــ ص ١٠٥ ، والسرى : سير عامة الليل ، والسراة : اعلى كل شىء .
(٣٠) المصدر السابق ص ٣٦٤ .
(٣١) نفس المصدر ص ٤٩٨ .
(٣٢) نفس المصدر ص ١٢٠ .
(٣٣) نفس المصدر ص ٦٠٩ .

حسن التخلص :

على أن براعة ابن مقرب حقا تظهر فى حسن تخلصه وانتقاله من غرض الى غرض بطريقة تبقي الكلام على سلاسته وانسيابه فلا يحس القارىء بأى انقطاع أو طفرة قد تغير من مجرى الكلام أو تحول أثره فى النفس •

ومن نماذج حسن تخلصه قوله يمدح الخليفة العباسى المستنصر بالله :

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب فى أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حينا وآونة
تبث أصوائها حولى وتنتحب
فحين أكثرت التهويل قلت لها :
هذا التهول جد منك أو لعب ؟
حسبى أبو جعفر مما يدل على
وجه البسيطة أو يعتر أو يثب(٣٤)

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير حسن بن مسعود :(٣٥)

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحى من أيمن الحما
مرب يوارى الهضب دانى ربابه

---

(٣٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٩٣ ، الدوية : البرية ، القذف: المضلة ، يجب : يخفق ، المعتر من الرجال : الشرير .

(٣٥) المصدر السابق ص ١٠١ ، [illegible] : السحاب الأبيض ، واللها: الكثير من العطاء .

كجـود ابن مسـعود الفتـى الواهـب
اللها ، ومخجل منهـل الحيا فى انسكابه

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير محمد بن عبد الله بن سنان:(٣٦)

أمـالنـا لعبت أهـل الفسـاد بهـا
فدمروهـا بـلا فـكر ولا نظـر
لم يبـق فى خـيرها فضـل ولا سـعة
عن العـدو لذى نفـع ولا ضـرر
أمـا ولـولا ابن عبـد اللـه لا كذبـا
لاسـتهلكت بـين نـاب الشـر والظفر

وقوله يمدح فخر الدين بن هبة الله الدوامى ببغداد وكان أسدى له معروفا :

يقـولون مات الأكرمـون وأصـبحت
بحـار النـدى قاعـا من الخير صفصفا
ولـم يبـق فى هـذا البـرية ماجـد
يـلاذ بـه ان ريـب دهـر تعجـرفا
فقـلت لهـم أخطـأتم ان للنـدى
وللجـود بحـرا يقـذف الـدر مردفا
فمـا دام فخـر الدين يبقـى ونسـله
فلا تسـألوا عمـن مضى أو تخلفـا(٣٧)

ومن قصيدة له يستنجز الأمير أبا ماجد محمد بن على ما كان وعده من رد أملاكه قوله :

---

(٣٦) الديوان ص ٢٤٢ .
(٣٧) الديوان — طبعة الاحساء ص ٢٨٥ .

فقلت لهم ما ذاك نجم ترونه
بناحية الخضراء ذات الحبائك
فقالوا : فماذا ؟ قلت : نار بربوة
تشب لأبناء الهموم الضرابك
يضيء سناها بالدجى متنمر
على الدهر مودى البرك رحب المبارك
أغر نماه كل حام ممانع
عن المجد بالمستأثرات البواتك[٣٨]

ومن شعره فى الأمير باتكين قوله :[٣٩]

فثم تلاقوا الملوك بنى أبى
ويكثر عنى حينذاك سؤال
فقولوا لهم انا تركنا أخاكم
بحيث مال الراغبين مآل
لدى ملك لا يبلغ الوصف مدحه
وان أطنب المداح فيه وقالوا

الى آخر ما قاله من حسن انتقال وبراعة فى التخلص ، رأينا أن نقتصر على ما ذكرناه ففيه الكفاية ، وفى ديوان الشاعر مزيدا لمن شاء أن يستزيد .

---

(٣٨) المصدر السابق ص ٣٠٩ والخضراء ذات الحبائك : السماء المتشابكة ، الضرابك : الفقراء ، المستأثرات : السيوف ، البواتك : القواطع .
(٣٩) الديوان ص ٤٣٦ .

محتوى قصيدة المــدح :

درسنا فيما سبق قصيدة المدح عند ابن مقرب من ناحية المطالع والمقدمات ومثلنا لذلك ببعض الأمثلة ، ثم رأينا ــ بالأمثلة أيضا ــ كيف أن الشاعر يجيد حســن التخلص ، والانتقال من المقدمة الى غرضــه الرئيسى وهو المدح ، وعندما يصل الى هذه المرحلة يحرص على الاجادة فيها حرصه على مطالعه ومقدماته ، فيبــدأ أولا بذكر مناقب الممدوح وصفاته من شجاعة وكرم ، ويوضح شخصيته وما تتميز به من خلال عظيمة ، ثم يتبع ذلك بمقاطع يشيد فيها بآباء الممدوح وأمجادهم ، وقد يذكر بين ذلك أو ما قبله صلته بالممدوح اذا كان من بنى عمه وقرابته ، ويفرع من ذلك بعض المقاطع فى الفخر بالعشيرة العيونية، مادام الممدوح يمت اليه بصلة القرابة اذ الفخر فى النهاية راجع لكليهما ، ولكن بدون أن يطغى ذلك على مدح الممدوح ، وقد يستطرد بعد ذلك فى وصف موقعة أبلى فيها الممدوح بلاء حسنا فيصف شجاعته وما ألحقه بأعــدائه من الرعب والفزع والهزيمة والتشتت ، أما اذا كان للممدوح يدا عليه فيذكر كرمه ويشيد بسخائه ويعلو نداه على من سواه ، وقد يمدح الممدوح بعد ذلك بطريقة غير مباشرة من خلال رثاء والده فيستطرد فى ذكر مناقب هذا الوالد الراحل ومناقبه ويخلص من ذلك الى القول بأن هذا الشبل من ذاك الأسد • وربما مدح الممدوح بهجاء أعدائه وبأنهم قصروا عن الوصول الى صفاته النادرة وعجزوا عن مثل أعماله العظيمة •

وهذا الكلام يجرنا الى ملاحظة ظاهرة هامة على قصيدة المــدح عند ابن مقرب أيضا وهى :

ملاءمة القصيدة للممدوح :

فبالاضافة الى الأمراء العيونيين مدح ابن مقرب أصنافا من الناس منهم الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم من الأعيان المعروفين فى زمنه ، ومدح كل طائفة بما يلائمها وذكر لكل شخصية ما يناسبها من صفات وخلال تعرف بها .

فهو حين يمدح بنى عمه نراه يكرر معان بعينها . فيفخر بطيب أصلهم وأرومتهم وشجاعتهم وكرمهم واقدامهم فى الحروب ، كل ذلك فى معان قوية وألفاظ جزلة رنانة تناسب مقامهم ومكانتهم كملوك لبلاد البحرين وحين يمدح الخليفة العباسى يمدحه بلغة فخمة تناسب مكانته فى مركز الخلافة ، وغالبا ما يميل الى المبالغة والغلو فى ذلك مع الاشادة به فى حفظ أمن البلاد وصلاح الأمة وفى تقواه وحسن اسلامه .

من ذلك مدحه بأنه امام هدى ينتسب الى آل هاشم ، وبأن الملوك تطوف بفنائه كما يطوف المحرم بالركن اليمانى :

ففى شاطىء الزوراء من آل هاشم
امام هدى يؤوى اليه فيعصم(٤٠)
تطوف الملوك الصيد حول فنائه
كما طاف بالركن اليمانى محرم
ترجى به دنيا ودينا لأنه
الى الله فى الدنيا وفى الدين سلم

وهو ينتسب الى رهط النبى صلى الله عليه وسلم الذى سيشفع للناس يوم الميعاد :

---

(٤٠) الديوان — طبعة [illegible] ـاء — ص ٤٥١ .

وهـل مثـله يـوم المعـاد وسـيلة
الى الاله الا رهطـه المتقـدم
أبوتـه امـا نبـى معظـم
الى اللـه يدعـو أو امـام مـكرم(٤١)

وبأنه الذى ألقت اليه الناس مقاليد أمورها من عرب وعجم وصار الناس والأملاك عبيدا له :

وألقـت اليـه بالمقـادير بلغـر
وعـرب وأكـراد وتـرك وديلـم
ومـا النـاس والأمـلاك الا عبيـده
صـريحهم ان ينسـبوا والمخضرم(٤٢)

وبه قوى الاسلام وأنه حرت أعداؤه وذلك بسبب قوة جيش الخليفة :

وأضـحى به الاسـلام غضـا وأصبحت
عيـون الأذى عـن سـربه وهـى نوم
وقـد حفقـت راياتـه وبنـوده
فوجـه بلاد الشـرك بالضيم يلطم(٤٣)

وعندما يمدح الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يمدحه بما يناسبه كوال من ولاة الخليفة ، ويذكر الناس برضا الخليفة عليه :

وحسـبه مفخـرا أن الامـام بـه
بـر وأن لـديه شـأنه جـال

(٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٥١ — ٤٥٢ .
بلغر : مدينة الصقالبة . والديلم : أهل قزوين . صريح النسب : خالصه .
والمخضرم : المختلط النسب .

أمـامنـا الناصر الهـادى فما اختلفت
فيـه العبـاد وما جـاءت به الرسـل
خليفـة قسـما لـولا محبتـه
لما تقبـل من ذى طاعـة عمـل
هـو الـذى افترض الرحمـن طاعتـه
ومن سـواه فـلا فرض ولا نفـل(٤٤)

وعندما يمدح الشيخ محب الدين الواسطى وهو من علماء واسط المشهورين بالورع والزهد يمدحه بعبارات تلائم مكانته هذه ويقارن بينه وبين أمثاله من الزهاد المشهورين ، فيقول مادحا له بأن القلم علا شرفا على الرمح الدال على الشجاعة بسببه وبسبب مكانته العلمية :

بـك يا محـب الدين طالـت فاعتـلت
شرفا عـلى الخطيـة الأقـلام(٤٥)

وبأنه أحيا زهد بشرا والجنيد وعامر وكلهم أئمة فى الزهد والعلم:

أحييـت بشـرا والجنيـد وعامـرا
زهـدا وكـل اذ يعـد امـام(٤٦)

وأقام للامام الشافعى القرشى حججا فى آرائه :

وأقمـت للقرشـى فى آرائـه
حججـا يقصـر دونهـا النظـام(٤٧)

---

(٤٤) الديوان ص ٤٤٦ .

(٤٥ ، ٤٦) المصدر السابق ص ٥٦٩ .

(٤٧) المصدر السابق .

ولو جحد العظماء فضله فان المساكين والأيتام يقرون بفضله عليهم واكرامه لهم ، فهو يتصدق على الأرامل فى الخفاء بعدا عن الرياء :

ان يجحــد العظمــاء فضــلك فيهــم
فبنــو الســبيل تقــر والأيتــام
لــك حــين يعتــكر الظــلام صــنائع
تغشــى الأرامــل والعيــون نيــام(٤٨)

واذا اعتبرنا الرثاء نوعا من المدح كما يقول بعض النقــاد فلابن مقرب شعرا رثى به القاضى محمــد بن ابراهيم المستورى ، وذكر من خلاله مناقبه وما يناسبه كقاض اتصف بالورع والعــدل والاغضاء عن الهفوات :(٤٩)

ولــو شــاء جــازى بالعقــوبة قــدرة
ولــكن لــه من خشــية اللــــه رادع
يصــد عــن العــــوراء حتــى كأنمــا
بــه صــمم عمــا يقــول المقــــاذع

وله الحكم المأثورة فى مجالس الملــوك واذا تجدث غلب غيره من الخطباء المشهورين :

لــه حــــكم مأثــــورة حــين تلتقــى
بآرائهــا عنــــد المــلوك المجامــع

(٤٨ ، ٤٩) المصدر السابق ص ٥٧٠ ، ص ٢٨٠ . المقاذع : الرامى بالفحش وسوء القول .

يقـول فـلا يخطـى اذا مـا تأخـرت
عن القـول سادات الرجال المصـاقع(٥٠)

ويتسـم بالتواضع والعدل فـلا يفرق فى أحـكامه بين قريب وبعيد :(٥١)

جميـل السـجايا كلمـا ازداد رفعـة
تواضع حتى قيـل مـاذا التواضـع ؟
سـواء عليـه فى القضـيـة من دنـت
بـه الرحـم القربـى ومن هـو شاسع

ومنذ نشأته لم يعرف الجهالة ولا ملاحاة الناس وسبابهم :(٥٢)

نشـأ مذ نشـا لم يدر ما الجهل والخنا
وسـاد بنـى أيامـه وهـو يافـع
ولا عـرف العـوراء يومـا ولا انتحـى
الى خطـة يبغـى بهـا من يقـاذع

وحينما يمدح ابن مقرب أحد آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النقيب تاج الدين اسماعيل العلوى الحسنى يشيد بالبيت النبـوى الذى ينتسب له الممـدوح ، ويذكـر مآثرهم فى الجاهـلية والاسلام :(٥٣)

(٥٠ ، ٥١) المصدر السابق ص ٢٨١ . الرجل المصـقع : البليغ . السجايا : الطبائع . والشاسع : البعيد .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ٢٨٠ . والجهل : ضد الحلم . والخنا : الفسوق . واليافع : من ناهز البلوغ .

(٥٣) الديوان ص ٦٥٥ .

سادوا قريشا علا فى جاهليتها
ومن يسامى قريشا أو يباريها
وكل علياء فى الاسلام فهى بهم
تبنى وقطب الرحى منهم وهاديها

ولا يسمو الى مجد بن حسن أحد من الناس مادام عنصرهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الامام على رضى الله عنه فأياديهم لا تحصى ولو أحصى تراب الأرض :(٥٤)

يا من يسامى الى مجد بنى حسن
عدمت رشدك هل خلق يساميها
قبيلة من رسول الله عنصرها
ومن على فتى الدنيا ومفتيها
ان القروم السوامى من بنى حسن
يحصى التراب ولا يحصى أياديها

وهكذا فابن مقرب أعطى كل ممدوح ما يناسبه ويلائمه من معانى المدح والافتخار .

ظاهرة العرض التاريخى فى مدائح ابن مقرب :

أكثر ابن مقرب من ذكر الأحداث التاريخية فى مدائحه للاشادة بالممدوح وأمجاده وأمجاد آبائه وقبيلته ، فأعطى نفسه بذلك مجالا أوسع فى المديح ، وزخرف قصيدته المدحية بألفاظ فخمة ضخمة زادت هذه الحوادث روعة وجلالا ، على أن أكثر ما تتبدى هذه الناحية فى مدائحه لبنى عمه الأمراء العيونيين ، ولا غرو فى ذلك ، فكون الشاعر

---

(٥٤) الديوان ص ٦٥ .

فرد من الأسرة العيونية حتم عليه أن يدرس ماضيها ويطلع على أمجادها ووقائعها التاريخية منذ نعومة أظفاره عن ظهر قلب • ومن ثم صاغها فى شعره وترجمها الى صور فنية تحييها فى النفوس ، وتخلدها فى الأذهان ، ويتذاكرها الأحفاد جيلا بعد جيل •

نرى مثال ذلك فى مدحه للأمير محمد بن أحمد بن أبى الحسين فقد ذكر بعض وقائعه التاريخية حين تجمعت على حربه قبائل أهل القطيف وآل حجاف وآل شبانه ، فهزمهم وشتت شملهم :

يا سائلى عنه رويدك هل ترى
يخفى الصباح على ذوى الأذهان
سائل به يخبرك كل مقلص
نهد وكل مثقف ويمانى
لما أتت أهل القطيف بجحفل
متوقد كتوقد النيران
فى آل حجاف وآل شبانة
مثل الأسود بحافتى خفان
نزلوا على صفواء صبحا وابتنوا
فيها القباب وأيقنوا بأمان
وتسربلوا حلق الحديد وأقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فغدت فوارسهم لما قد عاينت
هربا ولم تعطف على النسوان
فرمى الأمير جموعهم فتمزقت
كالشاء اذ جفلت من السرحان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا ، فويق معاقد التيجان

وحـوى ضـغائنهم وأحـرز مـا لهـم
غصـبا وأنزلهـم بشـر مـكان(٥٥)

وغير هذا كثير مما يزخر به شعر ابن مقرب فى بنى عمه على الخصوص وفى غيرهم عموما ، وسنعرض مرة أخرى عندما نتحدث عن غرض الفخر عند الشاعر لهذه الناحية التى تميز بها شعره والتى خلد فيها قومه ومآثرهم على مر الزمن ، ولولا ذلك لما عرفنا قليلا أو كثيرا عن هذه الدولة العربية الأصيلة ولاندثرت أخبارها كغيرها من الأمم الغابرة.

ومن الناحية الفنية تميز هـذا العرض التاريخى بذكر الأحداث العامة دون الدخول فى التفاصيل التى قد تخل من روعة شعره وفخامته.

ظاهرة الفخر بالقصيدة :

يرى ابن رشيق أن من آداب الشاعر ألا يكون معجبا بنفسه مثنيا على شعره « وان كان جيدا فى ذاته حسنا عند سامعه ، فكيف ان كان دون ما يظن » على أنه — ابن رشيق — جوز هذا الفخر اذ أراد الشاعر وترغيب الممدوح أو ترهيبه ، فيثنى على نفسه ويذكر فضل قصيدته(٥٦) وفخر الشعراء بشعرهم قديم متداول ، وقد خصص الجرجانى فى كتابه دلائل الاعجاز فصلا واسعا لوصف الشعر والادلال به لعدد من الشعراء أمثال كعب بن زهير وحسان بن ثابت وبشار والفرزدق ، وأكثر من ذكر الأوصاف التى وصف بها أبو تمام شعره وتشبيهه القلادة والبرد المنمنم،

---

(٥٥) الديـوان — ص ٦٢٠ ، قلص : وثب ، فرس نهـد : ارتفعت مراكله ، المثقف : الرمح ، اليمانى : السيف ، خفان : مأسدة ، الصفداء : الحجارة الصلدة . والصفا : نهر بالبحرين قديما ، تسربل : لبس السربال ، والعقاب : طائر جارح ، جفلت من السرحان : خافت من الذئب ، والضعينة: المراة على الهودج .

(٥٦) العمدة ، لابن رشيق ص ٢٠١ .

أو أنها منقوشــة كنقش الدنانير وأن صاحبها سهر الليــل الطويل فى ابداعها ، ويذكر ابن رشيق فى العمدة أن أبا تمام كان أكثر الشــعراء وصفا لقصيدته وروعتها وفخامتها ، كما عرف البحترى فخورا بشعره ينتظر مشــاركة الآخرين اعجــابه بقصيدته(٥٧) . وكان المتنبى يعتبر قصيدته جــزءا من مفاخره الشخصية يدل بها ويفخر ويعلن توحده فى دنيا الشعر ، فالدهر من رواه قصائده ومن يقول بعده لن يأتى الا بالمعنى المــكرر :

أجــزنى اذا أنشــدت شــعرا فانمــا
بشــعرى أتــاك المادحــون مــرددا

ودع كــل صــوت بعــد صــوتى فاننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصــدى(٥٨)

وظاهرة الفخر بالقصيدة نراها كثيرا فى نهاية القصيدة المدحية عند ابن مقرب ، وهو عندما يعجب بشعره فهو لا يفعل ذلك لينال به الفخر مثل غيره من الشعراء ، وانما هو الرجل الماجد الذى يكفيه فخرا مكانته ومكانة قومه بين الناس :

اليــك يــا ابن رســول اللــه شــاردة
بــكرا يطــول رواة الشــعر روايهــا

من ماجــد لا يــرى فخــرا بقافيــة
اذ كــان فخر رجــال من قوافيهــا(٥٩)

وكثيرا ما يشبه ابن مقرب قصيدته بعقد الجواهر التى يضن بها

---

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٠٤ جـ ١ .
(٥٨) ديوان المتنبى ص ١٤ جـ ٢ شرح البرقوقى .
(٥٩) الديوان ص ٦٥٦ .

على غير الممدوح ، والتى يقصر عن ترصيعها كبار الشعراء كالفرزدق والاعشيان والحطيئة :

اليك كمال الدين عقد جواهر
أضن بها عمن سواك وأبخل
يقصر عن ترصيعها فى عقودها
أخو دارم والأعشيان وجرول(٦٠)

وفى قصيدة أخرى يقول :

اليك عماد الدين عقد جواهر
تناهى فما يؤتى بعقد يشاكله(٦١)

ويذكر أحد ممدوحيه من بنى عمه بقيمة قصائده فى الاشادة بأمجادهم ، واعلاء كلمتهم :(٦٢)

فكم لى فى علياكم من غريبة
يظل مساميكم لها متضائلا
نتائج فكر غادرت كل فكرة
نتوج لما يحلو من الشعر حائلا

ويفخر بأنه خلد قومه فى شعره وكساهم به ثوبا من المجد يبقى جديدا على مدى الأيام :

كسوت قومى والبحرين ثوب علا
يبقى جديدا بقاء الحوت والحمل(٦٣)

---

(٦٠) المصدر السابق ص ٤٣٣ .
(٦١) نفس المصدر ص ٣٤٠ .
(٦٢) نفسه ص ٤٠٤ .
(٦٣) الديوان ص ٣٨٢ .

وعنده لهم من قصائد المدح ما يعجز عنه جرير وفحول الشعراء الأوائل :(٦٤)

وعنـــدى من المدح الذى ما اهتدى لـــه
جـــرير ولا تلـــك الفحـــول الأوائـــل

ويصف قصيدته وعذوبة ألفاظها بالنور الذى يغشى البلاد فتضىء سطورها كالدرر ، ولو سمعها جرير لقام لها جلالا واستعادها :(٦٥)

فـــدونك عـــذبة الألفـــاظ جـــاءت
بنـــور ســـاطع يغشـــى البـــلادا
تريـــك ســـطورها والليـــل داج
مزيـــد الـــدر مثنـــى أو فـــرادى
لـــو اجتـــازت بســـامعتى جـــرير
لقـــام لهـــا جـــلالا واســـتعادا

الدعـــاء للممـــدوح :

وغالبا ما يختم شاعرنا قصيدته بالدعاء للممدوح داعيا له بالبقاء وطول العمر وعلو المجد ، وعلى عدوه بالخمول وسوء الذكر ، وهـــذا الختام يأتى منسجما مع باقى أجزاء قصيدة المدح عند ابن مقرب كما استعرضناها جزءا جزءا فيما سبق .

يقول فى نهاية قصيدة يمدح بها أحد أبناء عمه ، داعيا له بدوام السعادة :(٦٦)

---

(٦٤) المصدر السابق ص ٣٤٨ .
(٦٥) نفس المصدر ص ١٩٠ .
(٦٦) الديوان ص ٦٣ .

وأكـرم أبنـــاء الملوك ســـجية
كـريم متـى عاتبتـــه لان جانبـــه
بقيـت وأعطيـت السـعادة ماشـدا
حمـام ، ومـا لاحـت بليـل كواكبـه

ويدعو للخليفة العباسى المستنصر بالله بأن يبارك الله فى أيام دولته ويبقيها على الدوام :

فبـــارك اللـــه فى أيـــام دولتـــه
وجـادها كـل رجـاس لـه لجـب
فـان أيامهـــا طـــرز الزمـــان اذا
عـدت ، وتـاج بــه الأعيـاد تعتصب
ولا أرانـــا امـــاما غـــيره أبـــدا
فمالنـــا فى امـــام غـــيره أرب(٦٧)

وللأمير حسن بن مسـعود بقتل أعدائه وأن يعتز الاسـلام به وتحوطه رعاية الله :

فـلا زالـت الأعـداء قتـلى سـيوفه
وأقـلامه فى أرضـــها وحـــرابه
عـز بـــه الـــدين الحنيـف وحللـت
محـارم دار الشـرك حمـر قبـــابه
ولا برحـت عـــين الالـــه تحـــوطه
وتحفظـــه فى مـكثه وذهـــابه(٦٨)

---

(٦٧) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٦٨) الديوان ص ١٠٤ .

ويدعو للأمير باتكين بطيب العيش ولمن يكيده بالبؤس والذل وسوء المعاد :

عشت يا باتكين المجد ما غرد
حاد وما ترنم شاد

فى نعيم وخفض عيش وفى عز
عزيز باق على الآباد

ورمى الله من يكيدك بالبؤس
وذل المحيا وسوء المعاد(٦٩)

وقبل أن نختم حديثنا عن غرض المدح عند ابن مقرب يلزمنا هنا أن نجيب على سؤال يتوارد الى الذهن وهو : هل كان ابن مقرب يمدح للرفد وطلب النوال ؟ أم كان مدحه لسبب آخر ؟ ان معظم من كتبوا عنه أجابوا بالنفى ، وقالوا بأن مدحه فى معظمه أنصب فى أمراء قومه وعشيرته عله يظفر باسترجاع حقوقه المغتصبة ، وهى مادامت حقوقه فلا ضير عليه بعد ذلك أن يتملقهم ويشيد بهم فى سبيل استردادها واعادة الحق الى نصابه ، كما أنهم أهله وقرابته ، قوته بقوتهم ، وعزته بعزتهم ، فلو هجاهم لهجا نفسه ، ولو عاداهم لانفرد بين الناس وسقط نجمه ، وأحسب أننا نستطيع الوقوف على دوافع المدح الحقيقية عنده من مثل قوله :(٧٠)

ولست بمهد للرجال مدائحى
وان قل مال أو تغير حال

ولكن نعمى حركتنى وصحبة
وود ، وهذا للكرام صقال

---

(٦٩) المصدر السابق ص ١٩٦ .
(٧٠) نفس المصدر ص ٤٣٨ .

اذا فاعترافه بالجميل والصحبة الحسنة والصداقة وحفظ الوداد ، هى التى دفعته لمدح من مدح ، وليس السؤال أو طلب الرفد ، وهذا ليس غريبا على أمثاله ، فهو كما علمنا ذو نفس أبية تأبى الذل والخنوع وصاحب همة يجاوز مداها أنجم السماء العالية ، وهذا واضح من شعره الذي يظهر عليه فى معظمه عزة النفس وقوة الشكيمة ، والشعور بجليل المكانة بين الناس ، أليس هو القائل :

ولست وان أودى الزمان بثروتى
وزاحمنى منه بخصم مماحك
بمهد ثنائى والمناديح جمة
الى حوتكى أبشع اللؤم راعك
يرى مورد الآمال حول فنائه
بعين نوار تلحظ الشيب فارك
ولا ضارع طوع المنى يستفزنى
الى مقرف رجم الظنون الأوافك
ولست بمفراح بمال أفيده
لعمرى ولا آس على أثر هالك
ولا مادح الا سراة بنى أبى
جمال المعالى بل ليوث المعارك(٧١)

---

(٧١) الديوان — ص ٣١٤ . أودى الزمان بثروتى : ذهب بها ، والماحك : اللجوج الحسن الخلق ، والمندوحة: السعة ، والحوتكى : القصير الضاوى .النوار : المرأة النفور من الريبة ، والفارك : المبغضة لزوجها ، المقرف فى النسب : الهجين ، والافك : الكذب ، والآس : الحزين .

الفخـــر والحمــاس :

يأتى غرض الفخر بعد المديح مباشرة ضمن أغراض الشاعر من حيث كثرة الشعر الذى قيل فيه ، فقد أكثر ابن مقرب من الافتخار بقومه وبنفسه وبطيب أهله ومحتده وأرومته ، ولا غرابة فى ذلك فهو أمير ابن أمراء حكموا البحرين فترة ليست بالقصيرة ، وهو من قبيلة عبد القيس التى تتفرع من ربيعة ، والتى ترجع بدورها الى معد بن عدنان أصـل العرب جميعا [٧٢] .

فالمواد (الخام) التى يستمد منها الشاعر — أى شاعر — فخره وحماسته متوفرة فى عشيرة ابن مقــرب ، ويزخر بها تاريخها المجيد ، وتفيض بها أيامها، فالسيادة فى شرق الجزيرة العربية كانت لها ، انتزعتها انتزاعا من أيدى خصومها بعد معارك وصولات حاصدة طاحنة .

واستطاعت الأسرة العيونيـــة أن تفرض هيبتها على الآخرين ، فوقفت سدا منيعا ضد عبث البادية وهجمات قطــاع الطرق ، ويكفى الدولة العيونية فخرا أن يكون انهاء دولة القرامطة على يديها ، هذا الى ما عرف به أمراؤها من أصالة فى الفضل ، وعلو فى الخلق ، وغيرة على المحارم والمصالح[٧٣] ، الأمر الذى أنطق لسان شاعرها ، وجعله يلهج ويشيد بكل هذه المناقب ويعدد تلك الصفات والمآثر .

وقد اتجه ابن مقرب فى افتخاره اتجاهين رئيسيين :

أحدهما : الافتخار بالأسرة العيونية وبأمجادها وماضيها التليد .

الثانى : الافتخار بنفسه وبصفاته من شجاعة وكرم وغير ذلك ، كما افتخر بشعره فى قصائد غير قليلة أوردنا شــيئا منها عندما حللنا قصيدته المدحية .

---

(٧٢) ابراهيم الابيارى — الموسوعة القرآنية الميسرة جـ ١ .
(٧٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ١٠٣ .

(ا) الفخر بالأسرة العيونية :

افتخر الشاعر بقومه فأكثر من ذلك ، وأضفى عليهم من الصفات ما يجعلهم سادة الأرض وحدهم ، وأن من عداهم فضله ، ليس له من صفات الخير شيئا ، وقد بالغ فى كثير من الأحيان فى ذلك ، الا أن الخط الذى سار عليه هو نفس الخط الذى سار عليه الشعراء قبله فى الفخر بأمجاد قبائلهم وآبائهم من ناحية المبالغات والتهويل ، فلم لا يفخر هو أيضا بآبائه على نفس المنوال ، ما داموا يملكون من المجد والسؤدد ما يؤهلهم لذلك ؟ لنسمع اليه وهو يقول فيهم :(٧٤)

هم الناس ، كل الناس ، والناس فضلة
اذا ناب أمرأط من حمله الصلب
بهم يدرك الشأو البعيد وعندهم
للتمسى المعروف ذو مربع خصب
وفيهم رباط المكرمات وراثة
يورثها المولود والده الندب
ولولا أياديهم وفضل حلومهم
لزلزلت الأرضون وانقضت الشهب!
خفاف الى داعى الوغى غير أنهم
ثقال ، اذا خفت مصاعيبها الهلب

---

(٧٤) الديوان — ص ٢٩ ، أط : صوت ، المصاعيب : الفحول من الابل والهلب : الكثيرة الشعر ، القنا : موضع باليمن ، والشحر : ساحل البحرين بين عمان وعدن ، والنقب : بلدة اليمامة ، السقب : ولد الناقة ، درع دلاص : ملساء لينة ، والتبعيات : نسبة الى تبع ، والعصب : ما يشد الى الجسم ، الصلاء : الشواء والوقود . قطنا : اسم فعل بمعنى كفانا ، العدان : جمع العتود ، وهو الحولى من اولاد المعز . والسديف : سنام الابل ، المتالى : الابل لم تنتج ، الوطب : وعاء اللبن . شمارخة : جمع شمراخ وهو أعلى الجبل ، والغلب : جمع الأغلب وهو الغليظ العنق .

اذا الجار أمسى نهبة عند جاره
فأموالهم للجار ما بينهم نهب
أطاعت لهم ما بين مصر الى القنا
الى حيث تلقى دارها الشحر والنقب
وجاشت نفوس الروم حتى ملوكها
اذا ذكرت أملاكها هزها الرعب
تحن الى ذات النوال أكفهم
حنينا كذات السقب فارقها السقب
فأكثر ما تلقاهموا وإباسهم
حبيك الدلاص التبعيات لا العصب
لهم أبدا ناران : نار بها الصلا
تلذ ، ونار لا يقاومها الهضب
وأيامهم يومان : يوم لنائل
يقول ذوو الحاجات من فيضة حسب !
ويوم تقول الخيل والهيض والقنا
به والعدى : قطنا فلا كانت الحرب
وان ضن بالعدان كان قراهم
سديف المتالى لا عتود ولا وطب
أولئك قومى حين أدعو وأسرنى
وينجبنى منهم شمارخة غلب !

فقوم ابن مقرب هم الناس كل الناس ، ورباط المكرمات فيهم وراثة ، ولولا كرمهم وحملهم لزلزلت الأرض وانقضت الشهب ! وأموالهم مستباحة لجارهم ولذوى الحاجات ، وقد هابتهم العرب والروم لشجاعتهم وقوتهم ، وامتد نفوذهم من مصر الى اليمن .

وانظر الى قول الشاعر مصورا كرم قومه وكثرة عطائهم فى صورة اليد التى تحن الى البذل والنوال بصوت يشبه صوت الناقة التى تحن الى ولدها ، وهذه الصورة فيها كثير من البراعة .

وأطول قصيدة فى ديوان الشاعر مكونة من (١٥٠) بيتا قالها فى الافتخار بقومه وتعداد مفاخرهم ومآثرهم ، وهى تعد بحق سجلاً تاريخيا للدولة العيونية وأعمالها ، ورصد مفاخرها وبطولات رجالها ، ومطلع هذه القصيدة :(٧٥)

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما

ومنها يقول :

أنا ابن أركان بيت المجد لا كذبا
والنازلين ذرى العلياء والقمما

قومى هم القوم فى بأس وفى كرم
ان ادعى غيرهم ما فيهم وهما

فى الجاهلية سدنا كل ذى شرف
بالمأثرات وسدنا العرب والعجما

وصار كل معدى لنا تبعا
يرعى بأسيافنا الوسمى حيث هما

حطنا نزارا وذدنا عن محارمها
ولم ندع لمناوى عزها حرما

---

(٧٥) الديوان — ص ٥٣٠ .
الوسمى : اول مطر الربيع ، همى المطر : سال لا يثنيه شىء ، ومعدى نسبه الى معد بن عدنان ، ارم : والد عاد الاولى ، شظى جماجمهم :كسرها .

حتى أتى الله بالاسلام وافتتحت
كل البلاد وأضحت للأنام سما

وفضل آخرنا عن فضل أولنا
يغنى ولكن بحرا هاج فالتطما

شدنا من المجد بيتا لا تقاس به
ذات العماد ولكن لم نكن ارما

سل (القرامط) من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

وبعد أن افتخر ابن مقرب بآبائه وأجداده وسيادتهم على العرب والعجم فى الجاهلية ، مضى فى باقى القصيدة يشرح ما فعله القرامطة ببلاده من تقتيل للأنفس البريئة وتعطيل للشعائر الدينية ، مبينا أفضال قومه العيونيين فى مناهضة هذه الطائفة وبلاءهم البلاء الحسن فى محاربتها • حتى تحقق على أيديهم ، ما كان أهل البلاد يصبون اليه من عزة وكرامة واستقلال ، ثم عطف بعد ذلك — فى نفس القصيدة — معددا مفاخر بعض أفراد عشيرته البارزين بأسلوب قوى جزل جذاب جارى به فخر كبار الشعراء العرب •

فمن افتخاره بالأمير فضل بن عبد الله بن على العيونى قوله :

منا الذى قام سلطان العراق له
جلالة والمدى والبعد بينهما

يشير بهذا البيت الى حكاية تاريخية طريفة تشهد بكرم الأمير فضل ، وتتلخص فى أن جماعة من التجار كانوا على ظهر سفينة بقرب شواطئ البحرين ، فهبت عليهم ريح شديدة حطمت السفينة ، ففر هؤلاء بأنفسهم من شبح الموت الى البر ، تاركين بضاعتهم للغرق ، وما أن سمع الأمير الفضل بالأمر حتى بعث من يغوص على الأموال لاستخراجها

من قاع البحر ، وقد تم العثور على معظمها ، وحينئذ أحضر الأمير التجار لديه وسألهم عن أموالهم المفقودة وعن علامتها وصفتها فأخبروه بذلك فدفعها اليهم • ثم ان أحدهم سافر الى العراق ، وهناك فى سوق الجواهر عرض بعض جواهره مما كان مستخرجا من ساحل البحرين فما أن علم سلطان العراق يومذاك بأمر الجواهر المعروضة فى السوق حتى استولى عليها ، ودفع لصاحبها ثمنا بخسا ، فلم يأبه التاجر بالأمر ولم يعره مزيد اهتمام ، بل زاد قائلا للسلطان : خذ ما تشاء بلا قيمة ، فان هذا كله هبة من عربى كريم ، وانتبه السلطان وقال : ويلك ! ومن هو هذا العربى ؟ فقال التاجر : انه الأمير العيونى الفضل بن عبد الله سيد البحرين وقص عليه القصة ، وهنا وقف السلطان ، وطلب كأسا من شراب — كما تقول الرواية — وقال : انما احتسى هذا واقفا من باب الاقرار بفضل سيد البحرين وبفضل اريحيته ، وبعد ذلك أمر بدفع قيمة تلك الجواهر كاملة من غير نقصان •

ومن افتخاره بالأمير أبى سنان محمد بن الفضل بن عبد الله ابن على قوله :

منا الذى حين عد الألف خازنه
لضيفه قال ضاعفها أرى أمما(٧٦)

وذلك أن أبا سنان وفد عليه وافد ، فأمر صاحب خزانته باحضار ألف دينار فلما أحضرها الخازن وألقى عليها أبو سنان نظرته تحرك عامل الكرم فى نفسه وقال للخازن : زد عليها ألفا آخر ، وسلم الألفين للرجل•

وافتخر أيضا بالأمير أبى شبيب جعفر بن الفضل بن عبد الله ابن على العيونى فقال :

---

(٧٦) الأمم : الشىء اليسير •

منا الذى أنهب اصطبلاته كرما
وهى الجياد اللواتى فاقت القيما
وكان ان سار فالعقيان تتبعه
لسائل رد أو مسترفد حرما(٧٧)

وذلك أن الأمير أبا مقدم مات له جواد ، فبلغ الخبر أبا شبيب فأمر له بأربعين جوادا خلفا فى جواده ، فلما جاء بها الرسول أخذ أبو مقدم واحدا منها فقط ، فأعادها أبو شبيب ثانيا — الى ثلاث مرات — وأخيرا نادى أبو شبيب فيمن حوله بنهبها وبنهب كل ما فى الاصطبل ، ومن حاز شيئا فهو له . أما البيت الثانى فيشير به الى أن أبا شبيب هذا كان — كما يحكى — اذا أزمع الركوب أمر أحد غلمانه بأخذ شىء من الذهب من لدن الخازن وجعله فى أوراق على مقادير مختلفة ، فكان وهو فى الطريق يوزعها على السائلين والمسترفدين ، واذا تبقى منها شىء أمر بدفعه لمن على الباب من العيونيين ، فان لم يوجدوا كان من نصيب الخدم .

وأشاد بانسانية الأمير أبى منصور على بن عبد الله بن على العيونى وحدبه وعطفه على الرعية عند حلول النكبات الجائحة فقال :

منا الذى فض أموال الخزائن فى
غوث الرعية لا قرضا ولا سلما
وأهمل الدخل ذاك العام فانتعشت
به الرعية حتى جازت القحما

وقصة ذلك أن جموعا كبيرة من البدو هجمت على الاحساء ، فنهض أهل البلاد لصدهم ، وفى موضع قريب من (السليمات) وقعت بين

---

(٧٧) العقيان : الذهب الخالص .

الطرفين واقعة عظيمة انتهت بهزيمة أهل البلد هزيمة منكرة ، حيث قتل ثمانون رجلا وأسر خمسمائة وعشرون ، وقبيل هذه الواقعة أصيبت الزروع والثمار بمرض وارتفعت أسعار المعيشة ، فتوالت على الاحساء المصائب والنكبات فنهض الأمير أبو منصور وفتح أبواب خزائنه وفرقها على الناس تخفيفا للكرب ، كما أعلن أن الزكاة مطروحة عنهم ذلك العام، وما زال حادبا عليهم حتى كثرت معائشهم ، وصلحت ثمارهم وعادت الحياة العامة كما كانت •

وأشاد بمؤازرة الأمير أبى الحسن بن عبد الله بن على — أمير القطيف — لقوم التجأوا بحماه فهون من مصابهم وهدأ من روعهم فكان لهم فيه خير عزاء فقال :

منـــا الذى جعــل الاقطـــاع من كـــرم
ارثـــا تـــوزعـــه الـــوراث مقتســـما

وجـــاد فى بعض يـــوم وهـــو مرتفـــق
بأربعـــين جـــوادا تعـــلك اللجمـــا

وهؤلاء القوم هم (الرياشمة) — وهم فخذ من عبد القيس — ومن المناوئين للأمير أبى المنصور ، وعندما حكم الاحساء خشـــوا من بطشه بهم فخرجوا هاربين صوب القطيف وكانوا سبعين فارسا ، وهناك احتموا بأميرها أبى الحسن ، فاستقبلهم أحسن استقبال ، وأمر لكل واحد منهم بدار ومتاع وزاد وأوان وخدم وكل ما يكفل لهم الراحة ، كما وهبهم الكثير من النخيل والبساتين ، فتوارثها أبناؤهم من بعدهم ، ومن أخبار هذا الأمير أيضا أنه حضر فى مجلسه ذات يوم أربعون فارسا فأمر لكل شاعر بفرس •

وتصيب نواحى الاحساء سنة ممحلة لم ير أشد منها قحطا ، حتى هجرت الطيور القفار الى المدن ، وكان أمير الاحساء آنذاك أبا مقدم

شكر ابن أبى المنصور على بن عبد الله على العيونى ، وقد بلغ من كرمه — كما يقول الراوى — أن جعل لكل جنس من الطير شيئا من طعامه ، فللغراب مثلا — التمر — ، وللفواخت وغيرها القمح وشتى الحبوب وجعل ينثر طعامها فى مواضع تجمعها ، ومنع هواة الصيد من اقتناصها ، وقد سجل شاعر القبيلة ذلك فى سجل الشرف فقال :

ومطعم الطير عام المحل فاسم به
منا اذا صر خلف الغيث فانصرما

وعندما حمل عبد الله بن على العيونى لواء الكفاح ضد القرامطة وأحلافهم ، احتاج الى مزيد من المال ، وخوفا من ضعف مركزه وانتقاص الأمر عليه ، أمده الأمير أبو يوسف على بن يوسف بن ضبار — وكان ثريا — بأموال طائلة ، وحكى أن الذهب كان يحمل اليه فى مسوك — وهى رقاب من جلود الابل — فكان ذلك من أسباب انتصار عبد الله ، فقال شاعرنا فى ذلك :

منا الذى انفق الأموال عن عرض
حتى رأى شعب شمل العز ملتئما

ملء المسوك قناطيرا مقنطرة
ما خاف فى جمعها حوبا ولا أثما

كما يروى أن الأمير محمدا بن أبى الحسين بن أحمد بن محمد ابن الفضل بن عبد الله بن على كان شجاعا فارسا ، مشهورا بالكرم والعطف على المحتاجين ، وله فى كل يوم من ينادى على سطح قصره كل مسكين وجائع الى الطعام ، وقد سجل ابن مقرب هذه المفخرة الانسانية بقوله :

منا الذى كل يوم فوق دارته
داع ينادى اليه الجائع الضرما

وأشاد بالأمير أبى على الحسن أمير القطيف ، الذى ما كاد يطرق سمعه نبأ قدوم الأمير أبى منصور عليه حتى استقبله ماشيا ، وأقطعه بلدا تسمى « الظهران »[٧٨] ، فنزل بقصرها ، وحرم أن توقد بها أى نار للضيافة غير ناره هو حتى توفى فسجل الشاعر ذلك مفتخرا :

منـــا الذى لـــم يــدع نـــارا بســـاحته
تذكـــى ســـوى ناره للضـــيف أن قدما

وأراد مرة عقيلة بن شبانة زعيم بنى عامر ، المقيض فى القطيف ، فصده عن ذلك أميرها أبو سنان محمد بن الفضل ، فتطور الأمر الى القتال فتشتت جموع عقيلة ، وأخذت حلته ، واقتلعت أطناب بيته ، ورمى به فوق الأرض ، وانتهز عقيلة فرصة انشغال جند أبى سنان بالسلب والنهب ، فأحاط مع جماعته بأبى سنان ، غير أن هذا استطاع تفريقهم ، وشق طريقه الى البلاد دون أن يجرؤ أحد على متابعته ، ونزح عقيلة عن القطيف فورا وفى هذا كله قال ابن مقرب :

وصـــاحب البيت منـــا حـــين تنتســـــبه
لـــو لـــم نجـــد غـــيره ســـدنا به الأمما

وافتخر كذلك بالأمير أبا مقدم شكر بن على بن عبد الله بن على العيونى فقال :

منـــا الذى عام حرب (النائلى) جـــلا
يوم (السبيع) ويوم (الخائس) الغمما

ويعنى بذلك ما جرى من حماد النائلى الذى طمع فى ملك الاحساء، فسار اليها مغيرا ، وكان ملكها أبو ســـنان نازلا ، القطيف ومواليا على

---

(٧٨) وهى المدينة المشهورة اليوم بانتاج الزيت .

الاحساء أبا مقدم ، وقد تمكن حماد من دخول الاحساء بعد حربها ثلاثين يوما وفى حالة انشغاله مع قومه بالنهب حمل عليهم أبو مقدم مع بنى عمه وعشيرته وجنده ، وعادت الهزيمة على حماد النائلى ، وقتل عدد كبير من جموعه ، و « الخائس » موقع كثر به تقتيل جماعة النائلى، فأنتن من شدة العفن ، و «السبيع» هو ولد غفيلة ، وقد قتل فى الخائس •

وقال عن الأمير أبى ماجد بن منصور بن على بن عبد الله بن على العيونى :

منا الذى منع الأعداء هيبته
حرب البلاد فما شدوا لهم حزما

ومات يطلب يوما يستلذ به
يطبق الأرض نقعا والحضيض دما

وذلك أن لأعراب المناوئين للاحساء ، التفوا حول أمير عقيل شبانة ابن عقيلة ، وشكوا اليه شدة الأمير أبى منصور وجبروته ، وأغروا شبانة بالحرب ، فحدد لهم ميعادا يراجعونه فيه ، فلما اجتمعوا ورأى ميلهم للحرب سألهم : كم فى الاحساء من فارس مبرز ؟ فعدوا له أربعين فارسا لا يطاق لهم النزال ، فقال : وأبو ماجد عن أربعين فاصبروا •

وطول حياة الأمير أبى ماجد لم يجرؤ هؤلاء على حرب الاحساء ، وكان أبو ماجد يقول : وددت أننى أطارد خيل عامر الى الليل يوما كاملا ، فمات قبل ذلك ، فقد كانوا يذلون عن حربه •

وافتخر كذلك بالأمير محمد بن أبى الحسين بن أحمد بن أبى الفضل ابن عبد الله بن على فقال :

منا الذى ضربت حمر القباب له
بالمشهدين وأعطى الأمن وانتقما

لــولا عيــاذ بنــى الجــراح منه بــه
لصاحبت (دهمشا) أو ألحقت (درمــا)

ويتلخص موضوع البيتين فى أن أمراء ربيعة وهم بنو الجراح جمعوا قبائل طىء وزبيد والخلط وعرب الشــام مع دهمش بن ســند ابن أجود سيد عربه ، وقصدوا بنى عقيلة ، وهم عامر وعائذ وخفاجة ومن خالطهم من قيس ، وكان الأمير ابن أبى الحسين رئيسا على قبائل الاحساء ، فلما سمعت خفاجة ومن معها بأمر الغزو بعثوا الى الأمير يخبرونه ، وهم على خوف فما فعلت تلك الحشود بطريق مكة من غصب الحاج على ما أرادت ، وشكا الحاج الى الخليفة الذى حث الأمير على النهوض للتنكيل بدهمش ومن معه غصب الحاج ، فاستنهض الأمير عرب البحرين ، وقصد العراق ، فانضمت اليه عربها ، فلقى بنى ربيعة وأتباعهم قرب الكوفة ، فأوقع بهم الهزيمة وطلب بنو ربيعة الصلح مع الأمير ، فصفح عنهم وأجارهم ، ولكنه لم يجر دهمشا ، فدخل هذا مشهد على مستجيرا ، فأقام الأمير الحراس على أبواب المشهد ، وبعث الى الخليفة يسأله الرأى ، فطلب منه الخليفة ارسال دهمشا اليه ، وهناك استتابه ، فتاب فخلى سبيله وأكرمه .

ومن مآثر الأمير محمد بن أبى الحسين أيضا فى هذه المعركة يقول الشــــــاعر :

منــا الذى ركــز الرمحــين ضــــاحية
وجــوز العــرب العــرباء بينهمــا

حتى احتوى مــا اصطفــاه من عقــائلها
غصــبا وهــان عليه رغــم من رغمــا

وقصة ذلك أن الأمير محمد بن أبى الحسين بعد أن نكل بربيعة وبأصحاب دهمش ، اجتمعت القبائل التى كانت معه لاقتسام الغنيمة ،

فأمر الأمير غلمانه أن يركزوا رمحين وقال : لا يجوز أحد لمغنمه الا من بين الرمحين غاديا ورائحا ، ووقف على فرسه وصار كل من مر به أخذ بما حصل له من المغنم ، فاذا استحسن شيئا أمر غلمانه بضمه اليهم ، فيضمونه عندهم له ، حتى جازت تلك القبائل كلها من بين الرمحين ، ومن لا يجوز أخذه أصلا ، فجمع يومئذ من الابل والخيل والخدم والأمتعة ما لا يحصى عدده ، وغنم من أراد ، وخيب من أراد ، لأنه صار يأخذ من كسب هذا ويعطيه هذا فلا يقدر أحد على الانكار .

وعن حروب العيونيين مع ملوك الفرس الطامعين فى البحرين سجل لنا ابن مقرب فى الفخر قوله :

ويـــوم (سترة) منـــا كـــان صـــاحبه
لاقـــت به شـــامة والحاشـــك الرقمـــا

الفـــين غـــادر منهـــم مـــع ثمـــان مای
صـــرعى ، فكم مرضـــع من بعدها يتما

ويعنى بذلك الأمير أبا على الحسن بن عبد الله بن على العيونى وذلك أن الملك أبا كرزاز بن سعد بن قيصر صاحب جزيرة (كيش) كان قد حارب البحرين ، فسار اليها فى المراكب حتى بلغ جزيرة أوال من البحرين ، فأنحدرت من مراكبه الجموع بسترة — فى ناحية من جزيرة أوال — وكان الأمير أبا على قد بعث أخاه الأمير أبا مقدم شكر بن أبى على حين سمع بتجهيز الملك أبى كرزاز العساكر الى جزيرة أوال ، وبعث عنده عسكرا الى القطيف ، وأمره عليهم ، فحين انحدرت جموع الملك وخلصوا بسترة ، مشى عليهم الأمير الحسن بن عبد الله بمن معه فاقتتلوا ، وحمل عليهم الأمير حملة مهواة صبروا فيها ساعة ثم انكشفوا ، فضرب فيهم بالسيف حتى جمد الدم على كفه وعلى ذراعه وعلى قائم سيفه ، فما تخلصت يده حتى سخن لها ماء وصب عليها فذاب الدم وانحـــل وتخلصت يده ، ولم يسلم منهم الا عدة يسيرة شردت الى المراكب ،

فكان عدة القتلى من أصحاب المذكور أبى كرزاز ألفين وثمانمائة قتيل ، وأسر يومئذ (نام سار) أخو الملك أبى كرزاز ، فأطلقه الأمير وأعاده الى كيش •

وافتخر بالأمير أبا الفضل محمد بن حوارى وشجاعته فقال :

منـــا الأمير أبو فضـــل متـــى اختصمت
بنـــو الوغى كان فى أرواحهـــا الحـــكما

مـــا قابـــل الألـــف الا وانثنـــت هـــربا
كأنهـــا الوحـــش لاقـــت ضيغمـــا قرما

وكان هذا الأمير فارسا جوادا يعد عن ألف فارس ، وكان سبب قتله أنه لحق رجلا فى قتال عامر ، فحقره فكف عنه وعف عن سلاحه ، فلما تقدمه على فرسه زرقه ذلك الرجل برمحه فقضى عليه بتلك الزرقة•

ويكثر افتخاره بشجاعة العيونيين كقوله أيضا :

منـــا الثـــلاثة والفـــرد الذيـــن لقـــوا
كتـــائبا كأبـــى الســـيال حـــين طمـــا

تدعـــو عجيبـــة أحيانـــا وآونـــة
أم العجـــرش والحجـــاف بينهمـــا

يوم الجريعـــاء ما خامـــوا وما جبنـــوا
بـــل كلهم يصـــطلى نـــيرانها قـــدما

وهؤلاء الرجال الأربعة المذكورين كلهم أولاد أبى مقرب الحسن ابن عزيز ، وعجيب وأم العجرش والحجاف مجموعة قبائل أغارت على البلاد فى مكان يسمى الجريعاء ، فلقيهم هؤلاء الأربعة فقاتلوهم حتى دفعوهم عنه ، وأقام بينهم القتال نهارا ، وامتنعوا منه بعد أن ترجات

الفرسان مع الرجالة ، وزحفوا لهم فلم يقدروا أن يدفعوا الأربعة عن مكانهم ، وبعد مدة طويلة خرجت اليهم النجدة من البلد •

ويستمر الشاعر على هذا المنوال معددا أفضال عشيرته ومناقب قومه فردا فردا،حتى ليخيل اليك أن الأسرة العيونية ـ لم تخلق الخلال والمزايا الخلقية والانسانية الا لتتحلى بها ، وكأن من عداها من الناس باتوا صفرا من الشيم والمروءات ، خلوا من الرجولة المكتملة والخلق السامى وذلك بلا شك يعد براعة واقتدار من الشاعر امتلك ناصيتها بكل جدارة • وقد تعمدت التطويل بعض الشىء فى ايراد هـذه الأمثلة ، لأبرهن على ما قلته سابقا من أن هذه القصيدة تعد سجلا ضخما خلد الشاعر فيه مآثر قبيلته وأمجادها على مر التاريخ ، والدارس لهـذه القصيدة دراسة عميقة يستطيع أن يستخلص منها صفات وصـفحات طوتها الحقب وعفت عليها السنون من تاريخ الاحساء خاصة والبحرين عامة فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، لذلك فهى تعتبر مصدرا هاما من مصادر التاريخ السياسى لهذه الناحية من جزيرة العرب •

والشاعر يخبرنا فى نهاية قصيدته أنه مع هذه المآثر والأعمال التى عددها ، فان ما عده لا يبلغ عشر مفاخر قومه ومآثرهم ، اذ أن هذه المفاخر تفوق فى كثرتها عدد تراب واحة (يبرين) ـ الموجودة فى الربع الخالى من جزيرة العرب ـ فقال فى ختام القصيدة :

أبياتنـا لـذوى الآمـال منتجـع
اذا الزمـان يـرى كالعـير أو عـرما

ومـا عـددت عشـيرا من مناقبنـا
ومـن يعـد ثـرى (يبرين) مرتـكما

ترى ماذا كان سيقول ابن مقرب لو عدها كاملة ؟ •

الفخــــر الذاتـــــى :

أكثر ابن مقرب من الافتخار بنفسه بأبيات قوية ، وأطرى شجاعته وقوته وبأسه على الأعداء ، وكرمه ونخوته ، وعدد الكثير من صفاته الذاتية التى ورثهــا عن آبائه الكرام الانجاد وأظهرها الهمــة العالية والطموح الذى ليس له حــد ، وأنفته من دار الذل والهــوان وحب المخاطرة والأسفار ولنسمع اليه وهو يقول :(٧٩)

أتدرى الليـــالى أى خصــم تشــاغبه
وأى همـــام بالرزايـــا تواثبـــه

تجاهـــل هـــذا الدهـــر بـــى فتكتبت
على بأنـــواع البـــلايا كتائبـــه

وظـــن محـــالا أن أديـــن لحـــكمه
لتبـــك عـــلى عقـــل المعنـــى نوادبـــه

وانـــى وان أبـــدى اصـــعرارا بخـــده
وأوجـــف بـــى وازور للبغـــض جانبـــه

لأغضـــى عـــلى بغضـــائه وازوراره
وأعجـــب من حـــر كـــريم يعاتبـــه

وأســـقبل الخطـــب الجليـــل بثاقـــب
من العزم يعـــلو لاهب النـــار لاهبـــه

فهو خصم عنيد لا يأبه بنوازل الدهر وكوارثه . بل يستقبلها باسما غاضا عنها جانبه ويعجب للحر الكريم الذى يعاتب الدهر على حوادثه

---

(٧٩) الديوان ــ ص ٥٢ ، تكتبت : تهيأت ، صعر خده : أماله تكبرا ، واليهفوف : الجبان .

وقوارعه مع علمه أنها شيء مكتوب على الانسان ، ثم انه ذو عزم ثاقب يستقبل به الخطب الجليل فيعلو به عليه .

ثم يفتخر ابن مقرب بسداد رأيه وقوة شخصيته :(٨٠)

ورأى متى جردته وانتضيته
وجدت حساما لم تفلل مضاربه

ولست بيهفوف يرى رأى عرسه
متى أركبته مركبا فهو راكبه

يظل اذا ما نابه الأمر محجرا
يخاطبها فى شأنه وتخاطبه

وفى أبيات أخرى يذكر همته العالية التى يستعين بها على ركوب الخطر :(٨١)

على م وفى م ظلما تلحيانى
ذرانى لا أبا لكما ذرانى

وحسبكما فما سمعى بمصغ
ولا واع لما تتحدثان

فلى همم اذا جاشت أرتنى
قرى عمان ميلا من عمان

اذا سولتما فتناسيانى
وان أسلمتنا فتذكرانى

---

(٨٠) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٨١) نفس المصدر — ص ٦٢٣ ، لجاه : لامه ، عمان (بالتشديد) : عاصمة الأردن ، وعمان امارة بالخليج العربى ، صفا : مال ، ونوب الزمان : حوادثه ، ثنى عنانة عن الأمر : رجع عنه .

فمثلى من يقيم صغى الأعادى
ويستعدى على نوب الزمان

وما ذكر المنية عند أمر
أحاوله بثان من عنانى

فهمته تقرب له الأمور البعيدة وتسهل عليه الصعاب ، ثم انه لا يبالى بالموت لايمانه بالقدر ولعلمه أن للانسان يوم اذا حان فلا مفر منه وهذا ما يشجعه على المخاطرة :

اذا يومى أظل فما أبالى
بسيف كان حتفى أو سنان

ومن يك عمره المكتوب تسعا
فلا يخشى المنية فى الثمان(٨٢)

ثم انه يحقر من حقره ولو كان عظيما ، ويعامل الناس بالمثل ولا يواصل من جفاه وعاداه :

عظيم الناس فى عينى حقير
اذا بالمقلة الخوصا رآنى

محال أو أواصل من جفانى
وأسمح بالوداد لمن قلانى(٨٣)

ويقول معتدا بكرامته :

ولست اذا تشاجرت العوالى
بغمر فى اللقاء ولا جبان

---

(٨٢) الديوان — ص ٦٢٤ .
(٨٣) الخوص : غؤور العين ، والقلى : البغض .

ولــــكنى حـــديا كـــل يـــوم
تلاقــى عنـــده حـــلق البطـــان

أخـــو الــكرم العتيــد وذو المقـــال
السديد ومــدره الحـــرب العوان(٨٤)

والتعبير بجملة (أخو الكرم) يفيد أن الكرم يلازمه ملازمة الأخ لأخيه ، فهو معه حيثما حل وارتحل ، وعزز هذا المعنى بكلمة (عتيد) ليبين أن هذا الكرم من طبعه ومن شيمه .

ومن أصالته وكرمه أنه يأنف الاقامة بأرض لا يكون فيها كالسم للأعداء والغيث للأصدقاء :

فـــلا رعى اللـــه أرضـــا لا أكـــون بهـــا
ســـما لمســـتنكف عيشـــا لمنتجـــع(٨٥)

وهو صبور صبر الكهول وقد عاين الدهر منه ذلك لطول تجاربه معـــــه :

كـــم عايـــن الدهـــر منى صـــبر مكتهل
اذ ليس يوجـــد صبر العود فى الجـــذع
وكـــم ســـقانى من كأس عـــلى ظمـــأ
أمـــر فى الطعم من صـــاب ومن ســـلع
ومـــا رمتنـــى بـــكر من نوائبـــه
الا صـــككت بصـــبرى هامة الجزع(٨٦)

---

(٨٤) الحديا : المنازعة والمباراة ، الحرب العوان : التى قوتل فيهـــا مرة بعد اخرى ، ودره عنهم : دفع ، والمدره : المقدم فى القتال .

(٨٥) الديوان — ص ٢٧٤ ، المنتجع : طالب الكلأ والمعروف .

(٨٦) المكتمل : المتناهى فى الشيب ، العود : المن من الابل والشاء ، والجذع : صغيرها ، الصاب : شجر مر والسلع كذلك ، الجزع : ضد الصبر .

وهو وفى لخلانه اذا صحبهم ، ويلقى مسيئهم بالبشر ، حتى ولو نقض عهد الصداقة وضيع حقها :

ســـل الأخـــلاء عنى هـل صحبتهم
يومـا من الدهـر الا والوفـاء معـى
ألقـى مسـيئهم بالبشــر مبتســما
حتى كأن لـم يخـن عهـدا ولم يضـع
وسـلهم هـــل وفى لــى من ثقاتهـم
حـر ولـم يشـر فى نقضـى ولم يبع

وكل ذنبه عندهم أنه انسان ورع عما يخوضوا فيه فلذلك حنقوا عليه :

لقـد تفـكرت فى شـأنى وشـــأنهم
فبان لــى أن ذنبـى عنـدهم ورعـى

ويفتخر بأنه الانسان العالم الذى سبق بعلمه من تقدمه سنا وشهد له بذلك العلماء :

لقـد تقـدمت ســبقا من تقـــدمنى
ســنا وأدرك شـــأوى فـارط الأول
بذاك قـدوة أهـــل العـلم قاطبـــة
أبو البقــاء محب الديــن يشــهد لــى
هـو الامـام الـذى كـل لـه تبـــع
من كـل حـاف عـلى الدنيـا ومنتعـل
ولـم يقـل وحـده ما قـال بل شهدت
بــه الأفاضــل من بغــداد عن كمل(٨٧)

---

(٨٧) الديوان ص ٣٨٣ . الشأو : المدى والغاية ، فارط الأول : بعيده .

ويخاطب قومه مفتخرا بجملة من صفاته :

ألســت أوفاكـــم عهـدا وأحلمـــكم
عقــدا وأقومــكم بالفــرض والنفـــل

أليس بيتـــكم فى العـــز مركـــزه
بيتى فمــا كــان من فخــر فمن قبـلى

ألســت أطولـــكم فى كــل مـــكرمة
باعــا وأحملـــكم للحــادث الجـــلل

ويفخر أخيرا بأنه لم يرد وردا يعاب به ولم يقف موقفا يخجل منه:

هــل جــاء قــومى واخوانى الذين هم
ان أرم مــن قبــل الرامــين لا قبــلى

بأننـــى لــم أرد وردا أعــاب بــــه
ولــم أقف ذات يــوم مــوقف الخجــل

الفخــر بشـــعره :

افتخر ابن مقرب بشعره كثيرا ، وقد أوردنا بعض الأمثلة على ذلك عند تحليلنا لقصيدة المدح ، ولا بأس أن نورد هنا مزيدا من الأمثـلة للتدليل على كثرة هذا الافتخار من ناحية ،.ومن ناحية أخرى فاننا هنا نتناول هذا الفخر لغرض مستقل وغـير مرتبط بغرض آخر • يقــول ابن مقرب معاتبا نفسه لأنه أهدى شعره من لا يستحقه :

لــكن عــلى درر تزهــو جــواهــرها
فى عقــد كــل نظــام غــير منقطـــع

توجتهــا معشــرا لا أبتغــى عوضـــا
عنهـــا وانـــى فى قــومى لذو قنــــع

وكنت أولى بها منهم وكم منن
ضاعت ، وما فائت يمضى بمرتجع

فلو تكون الى الأصداف نسبتها
لكان لى كرم ينهى عن الهلع

لكنها الجوهر الطبعى قد أمنت
من التشظى مدى الأيام والطبع(٨٨)

فابن مقرب لا يكتفى بأن تكون قصائده لآلىء منظومة مما حوت الأصداف ، وهى لو كانت كذلك فقط لكفاه حسبا وكرما ، ولكنه يصر على أنها جواهر طبيعية ، وصلبة غير قابلة للتشظى والتناثر ، وهذا كناية عن أن قصائده خالدة على مدى الزمن وكرور الأيام .

وقال فى موضع آخر :

اليك جوهرة من طبع قائلها
تبقى على غابر الأزمان والحقب(٨٩)

وقد يبالغ فى الفخر بقصيدته فيجعلها تحوى جميع أنواع الأحجار الكريمة ، بل يزيد عليها المسك فيقول :

فهاكها يا عماد الدين حاوية
درا ومسكا وياقوتا ومرجانا(٩٠)

وهذه الجواهر يعجز عن نظمها كبار الشعراء كالفرزدق ومزردا فيقول :

---

(٨٨) الديوان — ص ٢٧٦ ، التشظى : الانشقاق ، والطبع (بالتحريك): الوسخ الشديد من الصدأ .
(٨٩) المصدر السابق ص ٨٤ .
(٩٠) الديوان — ص ٦١٠ .

والـيـــك مــن در الـــكلام جــــواهرا
يعيـــى الفرزدق نظمهـــا ومزردا[٩١]

ومن صوره الجميلة فى الفخر تشبيهه لها بالجواهر التى صــدره بحرها وفكره هو الغواص الذى غاص عليها فاستخرجها من ذلك البحر ، وهذا من براعة الشاعر واقتداره فى التصوير والتمثيل :

اليــك أبــا المنصــور عقــد جــواهــر
قلمهــا صـــدرى وغواصـــها فكرى
نفســت بهــا عمــن ســواك وســقتها
اليــك لعــلمى أنهــا أنفس الذخــر[٩٢]

وقد يصور عمل الفكر فىانتاج القصيدة بأنه مثل النساج،والقصيدة بالسرابيل المنسوجة التى لا تبلى على مر الزمن :

وعنــدى ممــا ينســخ الفــكر والحجا
سرابيــل تبقــى ما ترادفت الحقب[٩٣]

وفى موضع آخر هجا أناسا كان قد مدحهم وهم لا يستحقون المدح فقـــال :

وأنـــكح أبـــكار المعـــانى أراذلا
أحــق يخصــى من يســـار الكواعــب
وأكسو ثيــاب الحمــد من حــق جسمه
ملابس حمى أفــكل بعــد صــالب[٩٤]

---

(٩١) ص ٧٥ ، مزرد : شاعر فارسى .
(٩٢) الديوان ص ٢٠٤ . القلمس : البحر .
(٩٣) ص ٣٤ .
(٩٤) ص ٧٠ ، يسار الكواعب : عبد لبنى عذانه ، والافكل : الرعدة، وحمى صالب : فيها الرعدة .

فتارة يشبه قصيدته فى جمال معانيها بالفتاة الحسناء البكر التى أنكحت لمن لا يستحقها ، وتارة يشبهها بثياب كست أجسادا من حقها أن تكسى بحمى مصحوبة برعدة لنذالة أصحابها •

وقال فى موضع آخر مفتخرا بقوة شاعريته :

ودونـــك من تيـــــار بحـــر اذا طمـــى
أراك بحـــار الأرض جمعـــا صلاصـــلا

وأنفذتهـــــا فى حـــــكمة وبلاغـــــة
كست حـــلة من بعد عهـــدك عاقـــلا[٩٥]

فشاعريته اذا هاجت واندفعت زادت على شاعرية باقى الشعراء وتركتهم لا شىء بعـــدها ، كالبحر الذى يطغى فيترك جميع البحـــار كالغدران الصغيرة ، والقصيدة بعد ذلك تخرج فى حكمة وبلاغة لتكون كالحلة التى تزين العاقل فيكون جميلا بين الناس •

وهذه البلاغة والفصاحة يشهد ويقر بها بلغاء وشـــعراء العرب المشهورين :

ولـــــى بفصـــــاحة الألفــــاظ قس
يقــــر ، ودغفــــل ، والأعشـــــيان[٩٦]

وشعره يحتوى على المعانى والحكم النادرة وهذا يعلو به ويرفعه:

فـــكم ســـاد لـــى فى مدحـــكم من غريبة
تروق وأغلى الشـــعر مهـــرا غرائبه[٩٧]

---

(٩٥) ص ٤٠٥ ، الصلصل : بقية الماء فى الغدير .

(٩٦) ص ٦٢٧ ، والمذكورون فى البيت كلهم بين خطيب او شـــاعر مشهور .

(٩٧) ص ٦١ .

وقصيدته جمعت سحر الكلام الذي اختفى وانقرض منذ زمن بعيد فلم ينفث به شاعر قبله :

فدونكها يا ابن النبى غريبة
تخبر أن العائبيها هلابث

جمعت بها سحر الكلام الذى اختفى
قديما ، فلم ينفث به قبل نافث(٩٨)

ولا عجب فى ذلك فقصيدته نسيج وحدها فى عصرها يحسد عليها قائلها :

واليكها يا باعلى مدحه
من فضلها أنى عليها أحسد

جاءت نسيجة وحدها فى عصرها
اذ أنت فى هذى البرية أوحد(٩٩)

* * *

هذا هو فخر ابن مقرب وقد تميز كما رأينا بأسلوب قوى متماسك وكلمات فخمة رنانة تناسب غرض الافتخار ، وذكر الأمجاد ، وقد تطرق من ناحية المعانى الى الفخر بمعانى الشجاعة والقوة والكرم ، وهى الشيم التى طالما افتخر بها معظم الشعراء العرب ، ولكن ابن مقرب زاد على ذلك أنه من بيت أمارة ، فافتخر بأمجاد آبائه وأجداده ، وعدد بعضهم فردا فردا كما رأينا فى استعراضنا لبعضه تلك الأبيات فى (مطولته الميمية) وتسامى بهممهم الى السماء ، وجاوز بشجاعتهم حدود الجوزاء فخلد تاريخهم بشعره ، وأثبت أعمالهم وبطولاتهم فى سجل التاريخ بسطور مضيئة ، فكان بحق كما قال :

---

(٩٨) الديوان — ص ١١٩ ، والهلبوث : الأحمق ، النافث : الساحر .
(٩٩) ص ١٦٧ .

كســوت قومــى والبحــرين ثــوب علا
يبقــى جديدا بقــاء الحوت والحمل (١٠٠)

هذا وقد حفل فخره بكثير من الصور الجميلة والتشبيهات الرائعة التى ذكرنا بعضها آنفا ، وقد استمد عناصر هذه الصور والتشبيهات من صفات قومه الأفذاذ ، فنراهم فى شجاعتهم يطيحون بسيوفهم هام الأعداء . حتى أن هؤلاء الأعداء وخيلهم وسلاحهم يكتفون عن الحرب ولا يعاودون التفكير فيها لشدة فزعهم ، ثم نرى قوم الشاعر فى كرمهم وبذلهم كأنما تحن أكفهم الى الأعطاء والنوال حنين الابل الى وليدها وفى هذا ما فيه من الدلالة على كثرة كرمهم وشهامة نفوسهم .

الشــكوى والأنــين :

لا غرو أن نجد لابن مقرب شعرا كثيرا فى الشكوى ، فقد ابتلى فى حياته كثيرا وامتحن من عدة جهات ، لكنه صبر صبر الرجال ، وخرج من كل هذه المحن قويا مجربا ، فقد جاءته النكبات والمصائب من قبل دهره وزمانه ، فتشرد وتغرب كثيرا عن وطنه وأهله ، وجاءته المحن من قبل أهله وبنو عمه ، فحرم من أمواله وممتلكاته ، وجاءته المصائب من قبل أصــدقائه وخلانه ، فذاق مرارة الغدر وســوء الصحبة ، واكتوى بنار الوشايات والسعى بالنميمة ، ولذلك فقد قال شعرا فى كل هــذه المجالات وعبر عن مرارته وسوء حظه بشــعر يفيض بالحسرة والألم ويصطبغ بالأنين والشكوى . فمن شكواه من أحداث زمانه ومن الرزايا والمنون التى تحالفت عليه قوله :(١٠١)

أفى كــل يــوم للخطــوب أصــالى
ألا مــا لأحــداث الزمــان ومــالى

---

(١٠٠) الديوان — ص ٣٨٢ — والحوت والحمل : من أبراج النجوم.
(١٠١) الديوان — ص ٣٧٠ .

يفجعنى فى كل يوم يمر بى
بأنفس مال أو بأشرف آل
أرى الشر قداما وخلفا وأتقى
نبال الأذى عن يمنة وشمال
اذا قلت جلى بعض همى أتت له
نوائب أمضى من حدود نصال
كأن الرزايا والمنايا تحالفا
على عكس آمالى وبت مآلى
لحى الله هذا الدهر كم يستفزنى
لخوض بحار أو لشق جبال
يكلفنى جرى الجواد وقد لوى
شكالا على ساقى خلف شكال
وقد مص مخ العظم حتى ازاره
وبدله من نيه بهزال(١٠٢)

فابن مقرب يشكو سوء حظه فى هذه الحياة ويتبرم من أحداث الزمان ، الذى ابتلاه بأنواع الهموم والمصائب ، ويعبر عن كل ذلك فى صورة بليغة وعبارة شاملة ، فيقول ان الشر يأتى من أمامه ومن خلفه ، ويتقى نبال الأذى من اليمين والشمال ، وهذه هى الجهات الأربع ، فلم تبق جهة لم يؤت منها ، فتأمل كيف أنه لم يترك لنفسه منفذا للنجاة وانظر المناسبة الرزايا والمنايا لعكس الآمال وبث المآل على الترتيب ثم ان كل ذلك يستفز الشاعر للنهوض والنضال لخوض البحار وشق الجبال ، الا أن الدهر ابتلاه ببلوى أخرى ، وهى أنه سلب منه القوة والقدرة على مجابهة الحوادث والنوازل ، وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى

---

(١٠٢) صاوله : واثبة ، صلى النار : مكث فيها وذاق حرها ، بت مآلى : قطع مرجعى .
الشكال : الحبل الذى تشد به قوائم الدابة ، الأزار : الاصل ، النى : السمن .

أجمل تعبير ، فقال ان الدهر حينما يستفزه مع عجزه ، فكأنه شخص يستحث جوادا على الجرى بعد أن قيد رجله بقيود ثقيلة لا يستطيع معها حراكا ، وفوق كل ذلك فان عظامه هزيلة وضعيفة لا تقوى على الحركة والقيام ، وكل هذا كناية من الشاعر على قلة المساعد والنصير فى هذه الحيـــاة .

وفى أبيات أخرى نراه يلقى باللــوم على نوازل الدهر حيث انها عجلت بظهور الشيب فى رأسه وغيرت شكله مما حدا بالربع أن ينكره ، واللوم فى ذلك ليس على الربع ولكنها نوازل الدهر :

أقــول والدمــع قــد بلــت بــــوادره
منـــا خـــدودا وأذقـــانا وأردانـــا

وقــد ملئت بمـــا عاينتـــه عجبـــا
ما ضــر سهم الرزايـــا لــو تخطـــانا

مــا الذنــب للربــع فى هــذا فتلزمــه
عتبــا ، ولــكن هــذا الدهــر لا كانــا

لــو لــم تحــل بنــادينــا زلازلــــه
لــكان ذلــكم الانــكار عرفانـــا(١٠٣)

ويشكو ويئن من شقوته بأحداث الليالى بصورة حزينة تستــدر العطـــف :

أبــت نـــوب الأيـــام الا تمـــاديا
فيــا شــقوتا مــا الليـــالى وماليـــا
اذا قلــت يــوما حــان منهــا تعطــف
رأيــت رزايـــاها تنــبـامى كما هيا(١٠٤)

---

(١٠٣) الديوان — ص ٦٠٢ ، الأردان : اكمام القميص .
(١٠٤) ص ٦٥٧ ، ندب الأيام وصروفها .

ومن أصدقاء السوء والخلان الذين ادخرهم لأيام الشدة ويتمنى ان لم يكونوا له أو عليه :

فليت أخلائى الذين ادخرتهم
جلاء لهمى لا على ولا ليا
وأعجب ما يأتى به الدهر أننى
أرى القوم ترمينى بأيدى رجاليا(١٠٥)

وأكثر ابن مقرب الشكوى من أمثال هؤلاء اللئام الذين ابتلاه الدهر بهم ، وقد انخدع بهم فى البداية ، ولكن بعد مدة من الزمن انكشفوا على حقيقتهم وتبين زيف حالهم ، فهم ضعاف القلوب ، صغار النفوس ، لا يراعون للود حقا ، ولا للصداقة وفاء :

فلم أر منهم غير خب يمد لى
لسان محب من طوية قال
له شيمة السنور فى لطف خدعة
ولكنه فى اللمس حية ضال
اذا جئت فدانى وأبدى بشاشة
ولا حظنى منه بعين جلال
وان غبت أدنى ساعة من لحاظه
تمحل فى غيبى بكل محال
الى الله أشكو منجمى فى معاشر
همو شر ماض فى الزمان وتال
صحبتهموا مستصفيا فوجدتهم
أليم عذاب فى أشد نكال

(١٠٥) ص ٦٥٧ ، ندب الايام وصروفها .

اذا قلت حل الدهر غل صدورهم
أبت سوء أخلاق وقبح وصال[١٠٦]

فما ترك لهم صفة حسنة الا وسلبهم اياها ، ولا صفة سيئة الا وألصقها بهم ، ثم انه مدح أناسا لمجرد كف أذاهم ، وآخرين لمراعاة ودهم ليس الا ، ولكن لا هؤلاء كفوا أذاهم عنه ولا هؤلاء راعوا فيه حق الوداد ، فشكاهم الى الله وأسف على مدحهم :

الى الله أشكو عثرة لو تدوركت
بتمزيق جلدى ما أسفت على جلدى

مديحى رجالا بعضهم أتقى به
أذاه ، وبعضا للمراعاة والود

فلا الود كافى ذا ولا ذا كفى الأذى
ولا نظروا فى باب ذم ولا حمد

فكيف بهم لو جئتهم متشكيا
خصاصة أيامى وسمتهم رفدى

فكنت واهدائى المديح اليهم
كخابط أذناب المهلبة العقد[١٠٧]

والبيت الأول نتبين منه شدة غيظ الشاعر وحنقه عليهم لأنهم تناسوا مدحه لهم وأنكروا جميله ، ولو أنه استطاع تدارك هذه العثرة بتمزيق جلده وتقطيع لحمه لفعل وما أسف على ذلك ، وانظر الى كلمة

---

(١٠٦) ص ٣٧٢ ، الخب : المخادع ، والطوبة : ما تخبئه النفس ، والقالى : المبغض ، المحال : الكيد .

(١٠٧) الديوان — ص ١٣٤ ، الخصاصة : الفقر ، سمتهم رفدى : كلفتهم عطائى ، مبط الكبشى : جس اليته ، والمهلبة : الابل التى نتف هلبها وهو شعرها ، والعقد : جمع الاعقد وهو الكلب او الذئب الملتوى الذنب .

(تمزيق) وما تدل عليه من شدة حنق الشاعر على هؤلاء وتألمه منهم ، والبيت الأخير كناية عن رجوعه منهم بخفى حنين .

ومن شكواه من أبناء عمه وأفعالهم معه من مضايقة وحرمان من الممتلكات قوله فى هذا المعنى :

وقــد كنت ذا مــال حــلال وثــروة
يضــاعف اكرامــى وترجــى ومــكارمى
فمـــال عــلى مــالى وحــالى وثروتى
وجــاهى ، وأصغــى لاختــلاق النمائم
فظلت أعــانى القيــد فى قعــر هــوة
سماعى وألحانى غنــاء (الأداهم)(١٠٨)

وقال فى موضع آخر :

فأغــرى بى الواشى المشــوم وخاننــى
لمــا حــزته مــن ضــيعة ودراهــم
وبــت عــزائى الســجن فى مدلهمـــة
يجــاوبنى فيهــا ثقـــال الأداهــم
وأخـــرجنى مــن بعــد يأس وقـــد أتى
على نشبى أشـــكو الى غـــير راحم(١٠٩)

وهذه الأبيات الآنفة الذكر تلخص مصيبة ابن مقرب التى جرت وراءها نكباته الأخرى من تشرد ، وتغرب ، وعدم استقرار ، فلقد كان ذو مال حلال وثروة وجاه وغنى مكرما عزيزا بين قومه حتى وشى به الواشون لدى أحد أبناء عمه القابض على السلطة آنذاك ، فسطا على

---

(١٠٨) ص ٥١٩ .
(١٠٩) ص ٤٩٦ ، المدلهمة : الداهية ، والأداهم : القيود ، النشب : المــال الأصــيل .

ثروته ، وصادر أملاكه ، واستولى على بساتينه ، فأمسى فقيرا مشردا خاويا من كل شيء • ولم يكتف هذا الأمير بذلك بل وضعه في السجن ، حيث يعاني القيود الثقيلة في مكان مظلم ، ويعبر الشاعر في سخرية ممزوجة بالألم الممض عن صوت القيود بأنه ألحان وغناء •

ويوضح لنا في أبيات أخرى أن ضيم الأقربين دونه كل ضيم ، فهو أشد وقعا على النفوس وأمض وأحر في الأحشاء لهبا فقال :

بلى ان ضيم الأقربين وجدته
أشد على الأحشاء حرا ولاهبا
ألا انه الداء العياء وانه
الشجا في التراقي والمزيل المراتبا(١١٠)

والانسان حينما يرميه الدهر بنوائبه يستعين بقومه لا الأجانب :

ألا يا لقومي والفتى حين يرتمي
به الدهر يدعو قومه الا الأجانبا
كفى حزنا أني ببغداد مفرد
عن الأهل ألقى كل يوم عجائبا(١١١)

وهكذا فان ابن مقرب عبر في شكواه عن المحن والنكبات التي واجهها في حياته من خلال كلمات تحمل في فحواها كثير من الألم والحسرة نظرا لما لقيه من جفوة أقاربه، وغدر أصدقائه ، وتخليهم عنه في الشدائد، وكل ذلك في رأيه مرده الى سوء حظه في هذه الحياة وعدم رحمة الدهر به ، عبر الشاعر عن كل ذلك في ألفاظ مناسبة لمعاني الألم والأنين والشكوى واستطاع بهذه الاجادة الشعرية أن يستدر منا الدمع والعطف والمشاركة الوجدانية معه رغم البعد الزمني والمكاني بيننا وبينه ، الا أن

(١١٠) الديوان ص ٣٩ .
(١١١) ص ٣٨ .

أصالته الشعرية كما قلت جعلتنا نشاطره أحزانه وتغربه وكأننا معه فى غربته ومحنته ، ورأينا أيضا كيف عبر الشاعر عن شديد ألمه وغيظه من غدر خلانه بألفاظ وتشبيهات ، صورت لنا هذه الأحاسيس النفسية بكل واقعية وصدق تعبير ، وحسن أداء ، وكما يقال رب ضارة نافعة ، فهذه المحن والكوارث التى توالت على الشاعر من ناحية أنتجت لنا من ناحية أخرى شعرا قويا جزلا نقرأه ونستمتع به ونعجب بقوة تحمل صاحبه وطول صبره وجلده ، فلله دره من شاعر تحمل كل هذه الشدائد والزلازل فلم يهن ولم يتزلزل .

العتـــاب والنصـــح :

عاتب الشاعر قومه ونصحهم لما رأى كثرة اختلافهم ، وحذرهم عاقبة الفرقة وسماع أقوال الأعداء والوشاة والساعين الى ازالة الدولة العيونية ولكن الأمراء العيونيين فى غالب الأحيان لم يأخذوا بنصائحه، بل ضربوا بأقواله عرض الحائط ، وزاد الأمر على ذلك عندما تبرمـوا بكثرة انتقاده لهم ، أخذوه وسجنوه وصادروا ممتلـكاته ، فكان من الطبيعي بعد خروجه من السجن أن يكثر من لومهم والعتب عليهم والتنبؤ بمصيرهم المحتوم نتيجة هذه السياسات المشؤومة ، وسنرى أن عتاب ابن مقرب يمتزج باللين تارة، وبالشدة والعنف تارة أخرى ، وقد استنجز بشعره بعض أمراء الدولة من بنى عمه ، ما وعدوه ، فلما طال عليه الأمد ولم يفوا بوعودهم عاتبهم على ذلك الاخلاف ، هذا ويرى بعض النقاد أن العتاب والاستنجاز متداخلان(١١٢) .

فمن عتبه على قومه مرتفقا بهم ومتشوقا اليهم يخاطبهم بقوله :

ويشـــتاقكم قلبـــى فأذكـــر دونـــكم
مهــــامه لا اشـــتاقها وســــباسبا

---

(١١٢) راجع العمدة لابن رشيق ص ١٥٨ جـ ٢ .

فيسهل عندى خوضها فيعز لى
تذكر حالات أشبن الذوائبا
ولا عار فى ضيم الملوك على الفتى
وما زال حكم السيف فى الأرض غالبا(١١٣)

وبعد هذا العتاب الخفيف الذى جاء على شكل تعريض ينتقل الى نصح الأمير القائم بولاية الأمر فى ذلك الوقت ، ويوصيه بالرفق بالعشيرة وبأسرة الشاعر على وجه الخصوص :

فيا ابن أبى رفقا بهن وكن أبا
مديما على اكرامهن مواظبا
وصل واحتمل واخفض جناحك رحمة
لهن ولا تقطب عليهن حاجبا
وحاذر عليهن الجفاء فاننى
أرى الموت أن يمشين شعثا سواغبا(١١٤)

وفى موضع آخر نراه يعتب على قومه لأنهم أخروه وقدموا غيره من أذناب الناس ، مما أدى فى النهاية الى ضعف الدولة وطمع الأعادى فيها بسبب عدم كفاءة هؤلاء الناس فقال :

ولكن لأمر أخرونى وقدموا
زعانف لا ينهى العدو احتسابها
تصيب وما تدرى وتخطى وما درت
وتعدو وفى حبل العدو احتطابها
فيا صفقة الخسران فيما تبدلوا
وهل يتساوى تبرها وترابها

---

(١١٣) الديوان ص ٣٨ .
(١١٤) الديوان — ص ٤٠ — سواغب : جوعى .

وهــل قيســت الخيــل العــراب بعانة
كداديــة لا يلحــق الضــب جابهــا
لذا طمعــت فينــا البــلايا وأصــبحت
تهــر علينــا كالشــراة كلابهــا
وشــالت لنــا أذنابهــا مقذحــرة
وعهــدى بهــا تسـطو عليها ذئابها(١١٥)

وكما لاحظنا فان هذا العتاب قد امتزج بالحسرة والكمد والألم ، لأن الذين عاتبهم هم أهله وأسرته ، ومما زاد فى عبرته وأشجانه أنهم ما سمعوا له كلاما ولا أخذوا له بنصح :

ومن عتبه الشديد فى قومه قصيدته الدالية التى مطلعها :

تجــاف عن العتبى فمــا الذنب واحــد
وهــب لصــروف الدهــر ما أنت واجد
اذا خانــك الأدنــى الذى أنــت حزبــه
فــلا عجبــا ان أسلمتك الأباعــد

وفيها يعتب على الأمير فضل بن محمد بن أحمد بن أبى الحسين ، ويشتد عليه باللوم لجفائه له وتطيعته لحق القرابة والاستهانة بحقوق الأسرة ، ثم يذكره بما مضى ، ضاربا له على ذلك الأمثال الموجعة الأليمة ومظهرا آيات الندم على مدحه له فى السابق ، ويقال أنه أنشد الأمير فضلا هذه القصيدة ، وبعد ذلك رحل لتوه من البلاد ، ومن أبياتها قوله:

أيــا فضــل قد طــال انتظارى ولم يقم
شــتاء ، وقيظــا ، عنــد مثــلك وافد

---

(١١٥) ص ٤٦ — العانة : الأتان ، والكدادية : نسبة الى كداد كثام: فحل تنســب اليه الحمر ، الجأب : الحمــار الغليظ ، الشراة : فريق من الخوارج ، تذخر : تهيأ للشر .

وقد زالت الأعذار ، لا الغوص بائر
ولا البحر ممنوع ، ولا الدخل فاسد

ولا أنت محجور التصرف فى الندى
عليك رقيب فى نوالك راصد

ولا فى (بنى فضل) بخيل ، وانهم
اذا اغبرت الآفاق غر أماجد

فمن أين يأتى اللؤم يا ابن محمد
ومجدك فى بيت (العيونى) زائد(١١٦)

أترضى بأن تغدو تسامى ركائبى
حمولاتها ، كيرانها والمقاود

لحق مديحى ، أم لحق مودتى
لكم ، أم لأن البيت والجد واحد

فلا تقطعن ما بيننا من مودة
وقربى ، وخل الشعر فالشعر كاسد

ولا تنسين ما نالنى فى هواكم
وقد ظفر الساعى وقل المساعد

يقوم به حيا (نزار) و (تغلب)
شهود ، وفى الدعوى يمين وشاهد

لقد كنت أرجو فى جنابك حالة
يموت لها غيظا غيور وحاسد

---

(١١٦) ص ١٤٦ — الغوص : على اللؤلؤ ، وشواطىء الخليج العربى حقول خصبة لحبات اللؤلؤ .

الكيران : جمع الكور ، وهو الرحل ، والمقاود : ما يقاد به الفرس .

والأبيات السابقة كما نرى تتراوح شدة ولينا ، وتختلف بين العنف والاستعطاف ، فبينما يخاطب الأمير فى أحد الأبيات بمثل قوله : (فمن أين يأتى اللؤم يا ابن محمد ••) نراه فى موضع آخر يقول : (فـلا تقطعن ما بيننا من مودة ••) ويذكره فى بيت آخر بتضحياته فى هواهم بقوله : (ولا تنسين ما نالنى فى هواكم ••) •

بينما نراه فى قصيدة أخرى يخاطب قومه بلغة أشد من هذه اللغة، وينعى عليهم تخاذلهم عن الحرب واستسلامهم لمطالب الطامعين فى البلد ويحرضهم على النهوض وقتال الأعداء فيقول :

الى كـم مـداراة العـدى واحترامهـا
وكـم يعترينـا ضـيمها واهتضامها
أمـا حـان يا فرعـى ربيعـة أن أرى
بنـات الوغـى يعـلو الروابـى قتامها
ردوا الحـرب ورد الظامئـات حياضـها
خوامس يغتـال الفصـال ازدحامهـا
وخوضـوا لظاهـا باقتحـام فانمـا
يكشـف غمـاء الحـروب اقتحامهـا
ولـوذوا ببيـض المشـرفيـة انهـا
لهـا عـزة قعسـاء واف ذمامهـا(١١٧)

لغة قوية وألفاظ جزلة ، وأسلوب متين عبر بها الشاعر عما يعتمل فى صدره من عوامل الغيظ والحنق لتخاذل قومه عن مجابهة الأعـداء ويحرضهم بهذه اللهجة الشديدة على النهـوض والمجابهة ، فانها خير وسيلة لنيل العزة والكرامة حسب رأيه •

---

(١١٧) ص ٤٥٦ ، الضيم : الظلم ، الاهتضام : الانتقاص من الحق ، بنات الوغى : الخيل ، القتام : الغبار الأسود تثيره الحرب ، الخمس : ارواء الابل بعد خمسة ايام . الفيصل : ولد الناقة ، عزة قعساء : ثابتة .

ثم انه يتوجع من أحوال قومه بدموع تعبر عن حميته لا عن ضعفه فيقـــول :

أفى كـل يـوم يـا لقـــومى بليـــة
وخطـة خسـف مـن عـدو تسـامها

أمـا وأبيـــكم ان قلبـــى لمـوجـع
لـذاك ، وعينــى لا يجـف انسـجامها

ومـا عبـرت بـى ليـلة منـذ مـــدة
كمــا قـــال الا ليـلة لا أنامهـــا

ومـا ذاك ذلا بـــل بقـايـا حميــة
على حدثان الدهـر بـاق عـرامها(١١٨)

ويحاول استثارتهم بذكر شرفهم بين الناس وأمجاد آبائهم :

ألا يـا لقـومى من عـلى بـن عبـدل
وللخطـب يدعــى أسـدها لا نعامهـا

ألســتم بنـى الغـر الألى عرفـت لهم
نفـوس نفيسـات المعـالى مرامهـا

فـان نزلـوا أرضـا فمنهـم مليـــكها
وان جمحـت قـــوم فمنهم شـكامها

أترضـون ذا النقص الـذى مـا وراءه
وأنتم اذا صـالت معـد سـطامها(١١٩)

---

(١١٨) ص ٤٥٩ ، سامه خطة خسف : اذله ، حدثان الدهر : صروفه، عرام الشيء : صولته .

(١١٩) الديوان — ص ٤٦٠ — الجموح : الذى لم يذلل ، والشكيمة فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . السطام : حد السيف .

وفى النهاية يقول ناصحا قومه ان أنتم لم تصبروا على الحرب فلا أقل من مفارقة ديار الذل فان فى أرض الله الواسعة مكان لكم بعيدا عن ديار الذل والضيم فحياة الذل هى الموت سواء بسواء •

والا فشـــدوا للجـــلاء فلم يعـــد
سـواه ، فعنـد الضيم تجـلى كرامها
فان كـان فى البحرين ضـيق فلم تضق
منـازل بـكر عنـــكم وشـــآمها
ولا خـــير فى دار يعيش بهـا الفتـى
مهينـا ، ولـو جادته درا غمامهـا(١٢٠)

واستنجز الأمير مقدم بن ماجد تحقيق وعد وعده اياه بأن يخلع عليه خلعه ، فلما طال الأمد كتب اليه يقول :

أأســكت عن مـولى الورى أم أعاتبـه
وأهمـل وعـدى عنـــده أم أطالبـه
أرانـــى بأدنـى مطـلب هنـت عنـده
وقـــد غرقـت من ليس مثـلى مواهبـه
أترضـــى أبـــا شـكر بسـحب غمامـة
لمثـلى وأنت البحـر جاشـت غواربـه

ومنهـــــا :

أتخشـــى هجوم الفقر أم تطلب الرضـا
بـه من عـدو أنت ان شـئت غالبـه
فـــلا تبخلن عنـى بمـــا أنـا أهلـه
فـكل نفيـس أنت لابــــد واهبـه

---

(١٢٠) ص ٤٦٥ — اجلى القوم : تفرقوا ، منازل بكر : ديار بكر وهى تجمع مدائن كثيرة •

فأجمل ثوبيك الذى أنا لابس
وخير جواديك الذى أنا راكبه[١٢١]

ويقول إن العتاب دليل المودة ، وأن شر الناس من لا تعاتبه ولا تهتم به :

ولا تنكرن عتبى عليك فانه
جميل وشر الناس من لا تعاتبه

أعاتب من أهوى على قدر وده
ولا ود عندى للذى لا أعاتبه

وأكرم أبناء الملوك سجية
كريم متى عاتبته لان جانبه[١٢٢]

وهكذا نرى ابن مقرب فى عتابه واقتضائه ، جميل العبارة ، قوى الألفاظ ، وأسلوبه يصطبغ باللين تارة ، وبالعنف والشدة تارة أخرى حسب الموقف ، ولكل مقام مقال ، ولأنه لا يؤمن بسياسة مسالمة العدو فقد حض قومه فى عبارات قوية على النهوض والحرب ومسك زمام الأمور بالشدة والعنف حتى لا يطمع الطامعون فى البلاد ، ونرى هذا الأسلوب يلين ويضعف عندما يستعطف الشاعر أمراء قومه ، ناصحا لهم بالرفق بالعشيرة والحدب عليها واغضاء الطرف عن أخطائها وهفواتها ، حتى لا تصاب بالتفكك والفرقة فتصبح لقمة سائغة فى فم الأعداء المتربصين .

---

(١٢١) الديوان — ص ٥٩ .
(١٢٢) ص٦٣ .

الرثـــــاء :

كتب ابن مقرب فى هذا الغرض شـــعرا قليلا ، وكل ماله فى هذا المجال أربع قصائد ضمها الديوان(١٢٣) ، اثنتان منها فى ابن عـــم له ، وثالثة قالها فى صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله ، والرابعة فى رثاء القاضى محمد بن ابراهيم المستورى ، وكانت تربطهما صلة مودة ، وتميز رثاء ابن مقرب عموما بصدق العاطفة نحو الفقيد ، واصطبغ بالحزن واللوعة واستدرار الدمع فكان هذا الشعر منسجما مع الموقف الذى قيل فيـــــه •

ومع ذلك فلابد أن يكون فقدان ابن مقرب لأحد أبناء عمومته أشد وقعا على نفسه من غيرهم • ومن ثم كان رثـــاءه فيهم انعكاسا لهذه المشاعر ، وكان فيه من تصوير اللوعة وبيان الفاجعة أكثر مما فى غيره ، وذلك على الرغم من عدم اســـتقرار علاقته بهم ، ولكنها صلة القربى ووشائج الرحم التى لا تنقطع ، وهو غالبا ما يبدأ قصيدة الرثاء بتمهيد مناسب يذكر فيه أحوال الدنيا وتقلباتها ، وأن مصير كل حى الى فناء ، وعلى العاقل ألا يغتر بزينتها ولو أغدقت عليه من النعم الشىء الكثير ، لأن مرجع هذه الملذات فى النهاية الى الزوال ، ونراه اذا رثى أحد أقاربه يذكر عظم الفاجعة وفداحة الخطب ، ومن ثم يتطرق الى صلته بالفقيد وأنه فقد به درعا كان يتقى بها نوائب الدهر وعوادى الأيام • نرى مثل ذلك فى قصيدته التى رثى بها ابن عمه مذكور بن عبد الله بن منصور ، وقد مات مقتولا ، فقال وقد كان غائبا :

أظنـــك خلت الشـــوق والنـــأى أبـــكانى
فأقبلت نحـــوى يابس الدمـــع تلحانى

---

(١٢٣) استبعدنا قصيدته فى رثاء الحسين عليه السلام لأننا نشك فى نسبتها اليه ، راجع ص ٦٤ من هذا البحث .

فقـــم فالتمس خـــلا ســـواى فما أرى
صـــحابة من لـــم يتبـــع شـــأنه شـــانى
كأنـــك مـــا شـــاهدت مـــا قد أصـــابنى
به الدهر من صياب قومى واخوانى (١٢٤)

فهو يلوم صاحبه الذى عاتبه على بكائه ظنا منه أن هـــذا البكاء بسبب الشوق والنأى عن الأهل والدار ، وما علم أنه بسبب مصابه فى فقيد عزيز ، ثم انتقل الشاعر الى ذكر مكانة قومه وقرابته وأنه كان يرمى بهم أعداءه ، وينتقى بهم نوائب الدهر :

رزئـــت مـــلوكا لـــو بـــكيت لفقـــدهم
دمـــا مـــا كفانـــى عمـــر نـــوح ولقمان
بهـــم كنـــت أرمـــى من رمـــانى وأتقى
بهـــم نائبات الدهر من حيث تلقانى (١٢٥)

ويعاتبهم عتابا خفيفا ثم يعود فيلتمس لهم الأعذار :

بأســـيافهم ذاقـــوا الـــردى وتجرعـــوا
حســـا الموت لا أســـياف قيس وغيلان
وليس عقـــــوقا منهـــم بـــل تعاليـــــا
الى خـــير غايـــات وأشـــرف بنيان (١٢٦)

ولقد شمت الأعداء فيهم وانتهز الأذلاء فرصة غيابهم :

لعمـــرى لقـــد ســـر العـــدو وأظهـــرت
دفـــانات أحقـــاد ســـترن وأضغـــان
ومـــدت غضـــــاريط الرجـــال أكفهـــــا
لتلمس عـــزا بعـــد ذل واذعـــــان (١٢٧)

(١٢٤) ص ٥٩٤ — وصياب القوم : لبابهم .
(١٢٥) ص ٥٩٥ .
(١٢٦ ، ١٢٧) ص ٥٩٥ — قيس وغيلان : خصومهم ، والغضرط : الأجير اللئيم .

وبعد أبيات قليلة يذكر فيها صلته بالمرثى وفجيعته به ويستدر الدموع لفقده ، ينتقل لذكر صفاته ومآثره ، فقد كان درءا للعشيرة ، وغيظا للأعداء ، وفاديا للأسرى :

ألا شقيت قومى لقد غالها الردى
بمقدام غارات وفلال أقران

بماذا أصيبت ويلها يوم سددت
اليه المنايا سهم صفراء مرنان

لقد كان غيظا للأعادى وباذخا
يلوذ به جان ويأمله عان

فمن بعده من للرماح يعلها
وينهلها من كل أشوس مطعان

ومن لتوالى المرهقين اذا غدت
تعاطى ، وأبدى الشر صفحة عريان

ومن لجليل الخطب يوما اذا أتت
هوازن تردى بين بيض وأبدان

ومن لمضيم مضه الضيم والتوى
به ذو ظلامات تعد وعدوان

ومن لأسير غارم قل ماله
وآب من المولى الشقيق بحرمان(١٢٨)

---

(١٢٨) الديوان ص ٥٩٧ — فلال اقران : من يقتل شبيهه ، المرنان : القوس والمران : رماح القنا ، العانى : الأسير ، المرهق : من ادرك فى الحرب ، أبدى الشر : كشف عن نفسه ، ردى الفرس : رجمت الأرض بحوافرها ، البيض : جمع بيضة وهى الخوذة لحماية الراس فى الحرب والبدن : الدرع القصيرة ، المضيم : المظلوم ، آب : رجع .

ثم يستحث أهل بيت القتيل على النهوض للأخذ بثأره ، فهم قادرون على ذلك ، وماضيهم وأمجاد آبائهم تشهد لهم :

فيا آل ابراهيم بكوا ليومه
دما وأقيموا سوق نوح وارنان
وقوموا لأخذ الثأر جد ولا تنوا
قيام أبى لا حرون ولا وانى
فعندكم للطعن سمر عواسل
وللضرب بيض لا تقر بأجفان
يخبرن عن أيام مرة وابنه
أبيكم وعن أيام ذهل بن شيبان
بها ضربت آباءكم وجدودكم
جماجم أهل البغى من قبل ساسان(١٢٩)

ومما يزيد النفس حسرة وكمدا أن قاتل الفقيد من توافه الناس ، لا يعرف من هو ، ولا يعرف أبوه ، وليس له من فضل يذكر به ، ولو كان قاتله ندا له أو مساويا لمكانته لخفف ذلك من المصاب :

فلو أن فى الحى الشبانى ثاره
لكنت أمنى النفس منه بسلوان
وان كان لا يوفى به من دمائهم
قتيل ، ولو أوفى على رب علهان
ولكنه أمسى قتيلا لمعشر
اذا قيل من هم قيل هى بن بيان(١٣٠)

(١٢٩ ، ١٣٠) ص ٥٩٨ — الارنان : صوت الثكلى ، ونى : فتر ، الدابة الحرون : الممتنعة عن السير ، عسل الرمح : اشتد اهتزازه ، الحى الشبانى : أولاد شبانه بن عقيلة بن سنان ، علهان : اسم فرس ، هى بن بيان : كناية عمن لا يعرف ولا يعرف ابوه .

ويعزى أبا الفقيد بقلب مكلوم ، ويذكره بأن الأحياء مصيرهم الى فناء وأن من لم يمت بالسيف مات بمثله من علل وغيرها ، ويضرب له أمثلة من التاريخ لأبطال قتلوا على يد أناس حقيرى الشأن من عبيد أو رعيـــان :

فمـن مبلـغ عنـى أبـــاه رســـالة
مغلغــلة عن موجــع القــلب حــران
أيــا عــم لا تجــزع فــكل الى البــلى
يصـــير ولا خـــلد لانس ولا جـــان
فلــو لم يمـت قتـــلا لمـات بعـــلة
وليس بمنــج من ردى رأس غمـــدان
ومــا قتــله ممــا يعــاب بــه الفتــى
اذا عــد يومــا بــين شــيب وشــبان
فقــد مــات بســطام بطعنــة عاصــم
وكـان المرجـى فى معــد بــن عدنــان
وحمــزة عــم المصطفى ذاق حتفــه
بطعنــة عبــد من ســلالة عبــدان
كــذا ابن حــوارى الأمــير محمــد
أتــاه الــردى من كف راع لرعيان(١٣١)

وفى نهاية القصيدة يدعو لقبر الفقيد بالسقيا وله بالجنة :

ســقى الجدث الثاوى بــه كــل رائــح
من المــزن أو غــاد مســح بتهتــان
وحيتــه أمـــلاك الســـماء بجنـــة
وظــل ظليــل بين روح وريحــان(١٣٢)

---

(١٣١) ص ٥٩٩ — غمدان : قصر باليمن .
(١٣٢) ص ٦٠٠ — الجدث : القبر ، الثاوى : المقيم ، هتنت السماء: هطلت بضعف .

ونلاحظ على الأمثلة السابقة التى استشهد بها الشاعر من التاريخ مناسبتها لحالة المرثى ، فجميع من ذكرهم الشاعر قتلوا على يد أناس أقل منهم شأنا ، وكذلك هذا الأمير قتله رجل تافه ليس له أو لأهله مكانة معروفة بين الناس .

على أن ظاهرة التعزية بذكر الأمثلة التاريخية تتبدى أكثر وضوحا فى القصيدة التى رثى بها ابن مقرب صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله ومنهـــا : (١٣٣)

أين المـــلوك وأرداف المـــلوك ومــن
ســـاد القبـــائل من عـــاد ومن ارم
وأيـــن طســـم وأولاد التبـــايع ممــن
أولاد خمــير والســـادات من عمـــم
وأيـــن آل مضـــاض فى قبـــائلهـــا
من جـــرهم ،ـــاكنى بحبـــوحة الحـــرم
أفنـــــاهم وأدار الـــكأس متـــرعة
فى وائـــــل فســـقاها غـــير محتشـــم
أردى ابـــن مـــرة همـــاما وكـــان لـــه
عنـــد الرئاســـة عـــن آبائـــه القـــدم
ومـــانع الجـــار جســـاسا أتيح لـــه
ســـهم المنـــون على عمـــد فلـــم يرم
والحوفـــزان الـــذى كانت تنـــوء بـــه
بـــكر ســـقاه بكاســـات من النقـــم

---

(١٣٣) الديوان ص ٤٨٥ — عم : قبيلة من لخم ، بحبوحة الحرم : وسطه ومتسعه ، لم يرم : لم يتحرك من مكانه ، تنوء به بكر : تتحمل الأثقال والمغارم ، اخترمته المنية : مات وقضى ، ابتزه ملكه : نزعه منه ، القسم بالكسر : الأنف أو ناحيتاه .

وفـارس العـرب العـرباء ان ذكـرت
بسـطام مـد اليـه كـف مختـرم

فابـتره ملـكه غصـبا وأنـزله
فـوق التـراب عفـير الخـد والقسـم

وعاقـر الفيـل يـوم القادسـية قـد
سـقاه كأس الـردى صـرفا بغـير فم

وقـد أذاق شـبيبا فى شـبيبته
كـأس الحتوف بـلا سـيف ولا سـقم

والمزيـديين غالتهـم غـوائـله
واجتاحهـم مزيـد من سـيله العـرم

ولـم تـدع هانئـا وهو الذى انتصفت
بـه الأعـاريب واسـتولت على العجم

والحـارث بـن عبـاد غالـه وسـطا
بجحـدر فـارس التحـلاق للمـم

والحـارث بـن سـدوس لم يهب عددا
فيهـم بنـوه ولمـا يـكثرت بهـم

والجعـد مسـلمة لـم يحميـه فـدن
بنـاه والـده اذا كـان ذا همـم

وهـوذة بـن عـلى حـط منـتزعـا
عن رأسـه التـاج عمـدا غـير محتشم

وشـيخ عجـل أبـا معـدان عاجـله
منـه الحمـام فلـم يطلب لـه بـدم

وفــارس العــرب العـربا وســيدها
أعنــى كليبــا قريــع العــرب والعجم

لـم يحمـه عـدد يومـا ولا دفعـت
عنــه المنيــة اذ جـاءت بنــو جشــم

ولـم يـكن لعـــدى بعــده عصــــم
منــه وكـان عــدى أى معتصــم

وآل كلثــوم ســادات الأراقـم لـم
يتــرك لهـم من حمــى حـام ولا حرم

أولئــك الغــر من ســادات قومـكما
أهل النهى واللهى والعهـد والذمم(١٣٤)

وبعد هذه الأمثــلة الكثيرة التى سردها الشاعر يخــرج فى نهاية القصيدة بهذه الحكمة وهى كالخلاصة لمــا قال :

وهــذه شــيم الدنيـــا وعادتهـــا
فيمن مضــى أو بقى من سائر الأمــم

ونحن نقف من ناحية أخرى من خلال هذه الأمثلة التاريخية على مدى احاطة ابن مقرب بحوادث الأمم الغابرة وعمق ثقافته والمـامه بسيرة من مضى من الأبطال والقادة العرب والمسلمين ، هذه الثقافة التى أسعفت ابن مقرب بمدد لا ينضب من المعلومات التى أضفت على مراثيه الشىء الكثير من الحيوية والتنويع .

---

(١٣٤) الفدن : القصر المشيد ، غير محتشم : غير مستح ، الحمام : الموت ، المجر : الجيش العظيم ، وجشم : أحياء من تغلب ، العصم: ما يعتصم به المرء فيمنعه ، والأراقم : حــى من تغلب ، النهى : العقول ، واللهى : العطايا الكثيرة .

ومن قصيدته التى رثى بها القاضى المستورى يخاطب ابنه عبد الله معزيا له ، طالبا منه الصبر والثبات فقال :

وقيـت الـردى والسـوء يا بـا محمد
وحـلت بمـن يهـوى رداك القـوارع

تعـز فـكل سـالك لسـبيله
وكـل امـرىء من خشـية الموت جازع

ونحـن سـواء فى المصـاب وان نـأت
بنـا الـدار فالارحـام منـا جـوامع

ولا شـك منـا فى التأسـى وانمـا
نعزيـك اذ جـاءت بذاك الشرائع(١٣٥)

ولعلنا من خلال البيت الأخير نستطيع الوقوف على دوافع الرثاء عند ابن مقرب ، ونستطيع أيضا من خلال الأبيات عموما أن نستشف الفرق بين هذا الرثاء الذى يكاد البرود أن يطغى عليه ، وبين رثائه لابن عمه المتقدم ، وما تميز به من حسرة واحساس بالفجيعة والألم .

الحـكم والأمثـال :

الحكمة وليدة التجربة ، والتجربة تعنى التمرس بأحداث الحياة وصروف الزمان ، وتعتبر خلاصة اجتماعية مركزة لواقع مر بالانسان ، فكان له فيه عبرة ودرس ، وكما كان متوقعا فقد برع شاعرنا ابن مقرب فى هذا اللون من الشعر نظرا لتمرسه بصعاب الحياة ومشـاقها ، وما فرضته عليه الظروف من مواقف كان عليه أن يجتازها بحنكة وصبر وأناة الى بر الأمان بالاضافة الى ما حباه الله من اتقاد ذهن وبراعة شعرية

---

(١٣٥) ص ٢٨٢ — يهوى رداك : يحب مهلكك ، نأت : بعدت .

وسرعة خاطر ، فقد انثالت أبيات الحكمة على لسانه شعرا سيالا مليئا بخلاصة تجاربه وعصارة تفكيره ، معبرة عن رأيه فى الحياة والناس ، وما ينبغى للعاقل أن يتخذه من مواقف بازائهم ، وما ينبغى للأريب أن يعاملهم به ، ومن ذلك قوله :

من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالأذى سلما

لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
اذا رأى الشر يغلى قدره وجما

وذو النباهة لا يرضى بمنقصة
لو لم يجد غير أطراف القنا عصما

وذو الدناءة لو مزقت جلدته
بشفرة الضيم لم يحسس لها ألما

ومن رأى الضيم عارا لم تمر به
شرارة منه الا خالها أطما

وكل مجد اذا لم يبن محتده
بالبأس نقرة الأعداء فانهدما

لا يضبط الأمر من فى عوده خور
ليس البغاث يساوى أجدلا قطما(١٣٦)

فمن خلال هذه الأبيات نستطيع استخلاص رأيه فى كيفية معاملة الناس من خلال تجاربه معهم :

١ — فهو لا يؤمن بسياسة اللين والمسالمة ، وانما بسياسة العنف

---

(١٣٦) الديوان ص ٥٢٧ — عاث : افسد ، الضرع : العاجز ، ووجم : خرس ، الأطم : الحصن ، الاطيمة : موقدة النار ، الخور : الضعف ، البغاث : ضعاف الطير ، الاجدل : الصقر ، القطم : مشتهى اللحم .

والقوة ومبادرة الآخرين بالأذى والظلم ، فذلك فى رأيه هو الطريق الأمثل للعيش بسلام فى هذه الدنيا •

٢ — يرى أن الرضا بالهوان والسكوت على المذلة انما هو من شيمة العاجزين وذوى الدناءة ، أما الأقوياء والمتطلعون الى معالى الأمور فان أنفتهم تأبى ذلك وترفضه فى اباء واصرار ، وتبعا لذلك فهو يرى أن كل مجد أو ملك لا تقوم أعمدته على قوة البأس والسيف سيكون سهل الانهيار سريع السقوط ، ولعل قوله : (وذو الدناءة لو مزقت جلدته ••• البيت) يذكرنا بقول أبى الطيب المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

ولا شك أن الانسان اذا دعا غيره الى شىء ، فيجب أن يبدأ بنفسه أولا ، ولكن ابن مقرب وهو يعطى خلاصة تجاربه للناس لم يشأ أن يطبقها على نفسه نظرا لأن من عاداهم هم أبناء عمه وأهل قرابته ، وحق القرابة عنده فوق كل شىء ، لذلك نراه يقول بعد ذلك :

ولا يعز الفتى الا بأسرته
لو كان فى البأس (عمروا) والندى (هرما)

ويترك نصيحة من يطلب منه فراق قومه وقطع علاقاته معهم ، فهم كالغصون من جسمه وحقهم عليه كبير :

وكم قائل لى عد عنهم فانه
مع الألم المضاض قد يقطع الارب

فقلت : رويدك قد صدقت وذلكم
اذا لم يكن فيه لحامله طب

اذا لـــم أداو العضـــو الا بقطعــه
فـــلا قصـــب يبقـــى لعمـــرى ولا قصب

وانـــى بقـــومى للضـــنين واننـــى
على بعـــد دارى والتنائى بهم حدب(١٣٧)

وطريق المجد هو طريق القوة والبأس ، ولا ينال المجد من كان همه سماع الأغانى وعناق الحسان ، ولا يبلغ المعالى الا من نحى جانبا التفكير فى عواقب الأمور :

منـــال العـــلى بالمرهفـــات القـــواضـــب
وســـمر العـــوالى والعتـــاق الشـــوازب

وطعـــن اذا مـــا النقـــع ثـــار وأقبـــلت
بنـــو الحـــرب أمثـــال الجمـــال المصاعب

وضـــرب يـــزل الهـــام عن كـــل ماجـــد
على الهـــول مقـــدام كريـــم المناســـب

وليس ينـــال المجـــد من كـــان همـــه
طـــروق الأغـــانى واعتنـــاق الحبـــائب

ولا بلـــغ العليـــاء الا ابـــن حـــرة
قليـــل افتكار فى وقـــوع العواقب(١٣٨)

وهذا يتطلب النأى عن دار الهـــوان والذل والاغتراب فى طلب المجـــــد :

---

(١٣٧) ص ٣٢ — الارب : الحاجة ، القصب بالفتح : عظام الاصابع ، والبضم الظهر والمعى .

(١٣٨) ص ٤٧ — الشوازب : جمع شازب وهو الخشن ، والضامر : اليابس ، والمصاعب : جمع المصعب وهو الجمل الصعب ، ويزل الهام : يذهب بالرأس .

اذا الديـار تغشـاك الهـوان بهـا
فخلها لضـعيف العـزم واغترب(١٣٩)

وكل تعب فى هذا السبيل يهون ، لأن الأعضاء اذا تعنت لأجل راحة الانسان ارتاح قلبه وزالت همومه ، اما اذا كان الانسان يرزح تحت الذل والمهانة فان الجسم يصيبه السقم :

وفى تعـب الأعضـاء للقلـب راحـة
ولا تصـلح الأعضاء والقلب رازح(١٤٠)

والخوف ومداراة الموت لا تغنى عن ملاقاته ، وكل انسان له يوم لابد لاقيـه :

ولا عاش من يرضى الدنايـا أهـل رأى
جبـانا على مـر الليـالى مخـلدا ؟
وهل مـات من خـوض الردى قبل يومه
فتى لوطيس الحـرب مازال مفئدا(١٤١)

ويظهر أن شاعرنا قد يئس من اسـتقامة عادات الناس واصلاح أحوالهم فدعا الى عدم الركون اليهم ، أو اعطائهم أى ثقة ، وعصيانهم فى كل مشورة ، فلقد جربهم بنفسه ووجد أن صحيح الود منهم عقرب :

لا تركـنن الى العـدو ولا تطـمع
آراء مـن فى حبـل غـيرك يحطـب
واعصـى الذليـل اذا أشـار ولا تثـق
فى الـكائنت بـكل مـن تسـتصـحب

---

(١٣٩) ص ٧٦ .
(١٤٠) ص ١٢٤ .
(١٤١) ص ١٤٩ — وطيس الحرب : أشدتها ، المفئد : خشبية يحرك بها التنور .

واعلم بأن الناس قد جربتهم
فاذا صحيح الود منهم عقرب(١٤٢)

وانظر الى قوله (ولا تثق فى الكائنات) لكى تقف على مبلغ ما عاناه ابن مقرب من الناس ومن مكائدهم •

وفى موضع آخر يشبه مودة الناس ، وتبخرها عند الحاجة كالبرق الذى يلوح ثم يختفى :

ولقد حلبت الدهر أشطر نابه
وعرفت ما يبدى ، وما يتغيب
فاذا مؤدة كل من أصفيته
ودى ، لدى الحاجات برق خلب(١٤٣)

والمال عصب الحياة وبه يعتز الانسان ويتقوى فى الملمات ، فاذا بات الانسان خاوى الوفاض من المال ، استهان به الناس ، وجفاه الأقارب ، والعجز أعدى أعداء الغنى ، فمن اتخذه مطية فى درب الحياة لم يكن له للجاه سبيلا أبد الدهر :

ألست ترى أن المقل يمجه
أخو الرحم القربى وتبدو معايبه
اذا المرء لم يملك من المال ثروة
رمته عداه واجتوته أقاربه
ومن يجعل العجز المطية لم يزل
يمر عليه الدهر والفقر صاحبه

---

(١٤٢) ص ٩٠ .
(١٤٣) ص ٨٦ — حلب الدهر أشطره : اختبره خيره وشره ، برق خلب : لامطر وراءه .

فقم وأركب الأهوال جـدا فطالما
أفـاد الغنى بالمركب الصعب راكبه(١٤٤)

وأخيرا فان ابن مقرب يلخص لنا رأيه فى مبادىء حسب تجربته التى خاضها بنفسه ، وذلك على شكل تعريفات فى أبيات متوالية فيقول :

العـز مـا خضـعت لهيبتـه العـدى
وأقـام بالفـكر الملوك وأقعـدا
والمـال مـا وقـاك ذمـا أو بنـى
عليـاك أو أبقـى لقـومك سـؤددا
والجـود مـا بلـت بـه رحـم ومـا
أوليـت ذا أمـل أعـدك مقصـدا
واللـؤم اكـرام اللئيـم لأنـه
كالذئب ، لـم يـر عـدوة الا عـدا
والعـزم مـا تـرك الحـديد مفـللا
والخيـل حسـرى والوشيج مقصـدا
والنبـل فتـكك بالمعـادى غـادرا
أو وافيـا ، مسـتنجدا أو منجـدا
والحـلم فى بعـض المـواطن ذلـة
فاصفح ، وعـاقب واعجلن وتأيدا(١٤٥)

هذا وقد أورد ابن مقرب الحكمة فى شعره بشكل مقنع ومسلم به ، وواضح على عادة حكماء الحياة وذوى التجـارب المحنكين ، فالحكمة لا تتطلب غموضا أو اخفاء ، بل الوضوح هو سبيل انتشارها بين الناس كى يفهموها ويستفيدوا منها ، كما جاءت حكمة ابن مقرب فى لغة فصيحة

---

(١٤٤) ص ٥٣ .
(١٤٥) ص ١٦٧ ــ العدوة : المرة من العدوان ، مفللا : مثلوما ، والوشيج : شجر الرماح ، مقصدا : مكرا ، تأيد : تقوى .

سليمة وأسلوب سلس جميل ، وعرضها صاحبها عرضا سهلا جزلا رائعا مستساغا .

ومن ناحية أخرى استخدم ابن مقرب بعض الأمثال المتداولة المعروفة فى شعره ، ولا شك أن ادخال مثل هذا النوع من الأدب فى الشعر يزيده افرادا وتنوعا ويضفى عليه طرافة غير قليلة ، وهذه الأمثال من ناحية أخرى تدلنا على كثرة اطلاع الشاعر وتنوع ثقافته ، الا أن ابن مقرب لم يكثر منها لأن ذلك يعد ممجوجا مستكرها ، يقول ابن رشيق :(١٤٦) « وهذه الأشياء فى الشعر انما هى نبذ تستحسن ونكته تستظرف ، مع القلة ، وفى الندرة ، فأما اذا كثرت فهى دالة على الكلفة، فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله » .

١ — فمن الأمثلة التى جاءت فى شعر ابن مقرب قوله :

فشمر وأوردها فقد زاد ظمؤها
على العشر لا تشمير غمر مؤارب
ولا توردنها ورد سعد وعلها
اذا نهلت عل الهجان الحلائب(١٤٧)

فقوله (ولا توردنها ورد سعد) يعنى به سعد بن زيد مناة ابن تميم ، وكان أخوه مالك بن زيد أحسن أهل زمانه قياما بالابل ، وكان ذا حمق ، ثم تزوج وبنى بامرأة ، فأورد أخوه سعد الابل فلم يحسن القيام عليها والرفق بها ، فقال مالك :

---

(١٤٦) ابن رشيق — العمدة ص ٢٨٥ جـ ١ .

(١٤٧) ص ٦٥ — الظم بالكسر : ما بين الشربتين ، والمؤارب : المداهى ، نهلت : النهل اول الشرب ، والعلل : السقى بعد السقى .

أوردهـا سـعد وسـعد مشـتمل
مـا هـكذا تـورد يـا سـعد الابـل

فذهب مثـلا ..

٢ — ومن براعته أنه قد يورد مثلين فى بيت واحد كقوله :

أدارى مـداراة الأسـير معاشـرا
مـداراتهم من موجعـات المصـائب

عن الرشـد أهدى من (سطيح) وكلهم
الى الغى (أعدى من سليك المقانب)(١٤٨)

وسطيح الكاهن هو ربيع بن ربيعة ، كاهن غسانى من المعمرين ، كان العرب يحتكمون اليه ويرضون بقضائه ، وسليك المقانب — هـو سليك بن السلكة وهى أمه وكانت سوداء وهو أيضا ، وكان من أعدى الناس لا يشق غباره ، وأخباره فى العدو والغارة مشهورة ، وله قصص فى مجمع الأمثال للميدانى .

٣ — ويقول فى قصيدة أخـرى :

اذا رجفـت دار العـدو مخـافتى
فـلا تسألانى عن سعيد ولا سـعد(١٤٩)

وسعيد وسعد ابنا ضبة بن أدبن طانجة ، وكانا قد خرجا فى طلب ابل لأبيهما ضبه ، وقد نفرت ليلا وهما معها ، فافترقا فى طلبها فوجدها سعد ، وذهب سعيد فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على سعيد بردين فسأله الحارث اياهما فأبى عليه فقتله وأخذهما ، فصار ضبة يقول اذا

---

(١٤٨) ص ٦٩ .
(١٤٩) ص ١٣٧ .

نظر سوادا تحت الليل : أسعد أم سعيد ؟ فذهبت مثلا ، ثم انه لقى الحارث بعد ذلك فقتله انتقاما لابنه .

٤ — ومن تمثيله أيضا قوله :

وانـــى فى قـــومى كعمـــرو بن عـــــامر
لـيــــالى يعصـــــى فى قبـــائله الأزد

أراهم أمـــارات الخـــراب ومـــا بـــــدا
من الجـــرذ العيـــاث فى صـــخرها الصلد

فلـــم يرعـــووا مـــع مـــا لقـــوا فتمزقوا
أيادى سبا فى الغور منها وفى النجد(١٥٠)

وعمرو بن عامر هو سيد الأزد فى الجاهلية ، وكانوا يسكنون اليمن، وكان لعمرو تحت سد مأرب من الحدائق مالا يحاط به ، ولما رأى عمرو ابتداء الخراب فى السد أشار على أهل تلك الأرض أن يرجعوا الى طاعة الله ، وخوفهم من انتقامه ، ولكنهم لم يسمعوا له،فأشار عليهم بالخروج للنجاة من عذاب الله ، ولكنهم رفضوا أيضا ، فعندئذ خرج هو وأولاده وجماعات من الناس معه وتفرقوا فى الأرض ، فأرسل الله تعالى على أهل تلك الأرض سيل العرم ، فأغرق جناتهم ، ومزقهم كل ممزق ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن ، فصاروا مثلا وعبرة لكل معتبر .

٥ — وقـــــــال :

مـــــا انتظـــــارى بـــرؤوس أينعت
ليس هـــذا الينـــــع الا للحصـــاد(١٥١)

---

(١٥٠) ص ١٣٨ — الجرذ : نوع من الفئران ، عاث : أفسد ، الغور: المنخفض من الأرض والنجد ما ارتفع منها .

(١٥١) ص ١٨٠ — الينع : نضج الثمر .

والمعنى أصله مأخوذ من قول الحجاج بن يوسف الثقفى لأهل العراق فى أول خطبة له بعد توليته عليهم يخوفهم : انى أرى رؤوسا أينعت وقد حان قطافها .

٦ — وذكر ابن مقرب — الحجاج بن يوسف هذا فى بيت آخر مع مثل آخر فقال :

فآه منى بحجاج يزول به
ما كان من عجر عندى ومن بجر

والعرب تقول : لقى فلان فلانا فأتى له بعجره وبجره ، أى شكا اليه همومه وأحزانه(١٥٢) .

وهكذا استخدم ابن مقرب الأمثلة فى شعره بطريقة زادت من قوة هذا الشعر وجزالته وأضفت عليه طرافة وتنوعا وجمالا ، وهذه الأمثلة من ناحية أخرى دلتنا على مبلغ الضجر الذى كان يعتمل فى صدر الشاعر تجاه أنداده وشانئيه ، بحيث دعاه ذلك الى استخدام المثل فى شعره الوصول الى غرضه المقصود من أقصر سبيل وبأبلغ حجة .

الهجاء :

نصيب هذا الغرض فى ديوان ابن مقرب قليل ، وكل ما جاء منه على شكل قصائد مباشرة مستقلة بذاتها نحوا من ثلاث قصائد فقط ، بالاضافة الى مقطوعة مكونة من بيتين هجا بهما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا بعد ما ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة ، وهجا عامل (واسط) واسمه (ابن الدبيثى) بقصيدتين من هذه القصائد الثلاث لأنه سلط

---

(١٥٢) الديوان — الطبعة الثانية — دمشق جـ ١ ص ٣٩٦ — العجر والبجر : العيوب والأحزان .

عامله على المكوس كى يفرض ضريبة عالية على تجارة كانت للشاعر يحملها فى طريقه وهو عائد من أرض العراق .

والقصيدة الثالثة هجا بها أهل الغدر والنميمة فى بلاده البحرين والذين كان لوشاياتهم الدور الأول فى تعكير صفو العلاقات بينه وبين أبناء عمه ، وبين الأمراء بعضهم ببعض مما عاد على الدولة العيونية فيما بعد بأسوأ الأثر وأوخم العواقب .

على أن أكثر هجائه لهؤلاء الغادرين جاء موزعا ضمن قصائد الديوان بجانب الأغراض الأخرى المختلفة ، وعلى عكس قصيدة المدح وما تميزت به من مقدمات مطولة ، فان قصيدة الهجاء خلت من مثل هذه المقدمات ، وافتتحها الشاعر بالدخول الى غرضه مباشرة ، ومن الناحية الموضوعية فان ابن مقرب مسف فى هجائه أيما اسفاف ، ولا يتورع عن ايراد العبارات المخجلة والألفاظ النابية التى تذكرنا بالشاعر جرير وهو يسلط بذىء شعره ومقذع قوله على الفرزدق وأمه وعلى الأخطل وأمه، وينطبق هذا الكلام أكثر ما ينطبق على القصيدتين اللتين هجا بهما الشاعر عامل واسط ابن الدبيثى كما سنرى .

على أن هذه الناحية — وأعنى بها هجاء الشخص من ناحية المرأة — ليست جديدة على الشعر والشعراء ، فقد عرفوا منذ القدم أى عار وشنار يصيب المهجو اذا عير بأمه أو أخته أو حليلته ، فأسرفوا فى ذلك وأمعنوا فيه ، « وعرف الشعراء ذلك فألحوا أشد الألحاح حين الخصومة والمنافرة والقتال على تناول المرأة بألسنتهم ، يضعون منها ليضعوا من قدر أهلها وأسرتها وعشيرتها ، يصفونها بأسوأ الأوصاف ، ويبلغون بذلك حدا لا تسيغه الأذواق السليمة الحضرية اليوم ، يذكرون منها سوأتها ، ويصورون انحطاط عفتها بالحق أو بالباطل ، سواء أكانت زوجا أم أم شقيقة »(١٥٣) .

---

(١٥٣) سامى الدهان — الهجاء — سلسلة فنون الأدب العربى ص ١٢ .

وابن رشيق لا يعد هذا النوع من الهجاء جيدا ، ويرى أن أجود ما فى الهجاء أن يسلب الانسان من الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان فى الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم[١٥٤] ، وقال فى موضع آخر : « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح»[١٥٥] .

على أن مما دفع ابن مقرب للاقذاع والفحش فى هجاء (ابن الدبيثى) — بالاضافة الى ما قلناه — هو ما ذكرته كتب الأدب[١٥٦] عن هذا الشخص من خصال سيئة ، وما بلغه فى الطمع والظلم ومشاطرة قطاع الطرق ما يحصلون عليه حدا كبيرا ، اتخذ منه الشاعر ثغرة ينفذ منها لهجوه وهتك حجابه والتشهير به .

فمن ذلك قوله مخاطبا نفسه داعيا لها بالنأى وترك (واسط) مادام يسكنها هذا الشخص :

بـــع واسـطا بالنــأى والهجــر
ودع المــرور بهــا الى الحشــر

أرض يدبــرها (ابــن صــائبة)
شــابت مفارقهــا عــلى الكفــر[١٥٧]

ثم يهجوه ويهجو حايلته :

لــك لحيـــة كالتيــس مــا برحــت
مــن بــوله فى ناطــف تجــرى

---

(١٥٤) العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١٧٤ .
(١٥٥) المصدر السابق ص ١٧٢ .
(١٥٦) عمران العمران — ابن مقرب دراسة ص ١٢٦ .
(١٥٧) صبأ : خرج من دين الى آخر .

وبهـــا اذا حاضـــت خليلتـــك
ـــ الرعناء تعـرف أول الطهــر ـــ(١٥٨)

ويسخر منه لتلقيبه بالسديد وتسميته بالأديب :

لقبــت جهــلا بالســديد ومـــا
ســـددت فى نهـــى ولا أمـــر
ولقـــد تســميت الأديــب وفى
أدب الحمــار عجائــب الدهـــر
لـــو كنــــت يانــوتى ذا أدب
لخلعــت عنــك ملابســا تعــرى
يــا تيــس قرنـــك كــله نقـــد
فى النطــح لا يقوى على الصخر(١٥٩)

وبأنه أسرف فى ظلم العباد واعانة قطاع الطريق فهو بهذا قد خان الخليفة فى رعيتــه :

أســرفت فى ظــلم العبــاد أمــا
للبعــث فى نـاديــك مـن ذكــر
وأعنــت قطــاع الطريــق علــى
فقــر التجــار وخيبــة السـفر
نصــف البضــاعة حـين تظفــرها
مـكس لقـــد بالغــت فى النـــكر
خنــت الخليفـــة فى رعيتـــه
وعصيتــه فى الســر والجهـــر(١٦٠)

(١٥٨ ، ١٥٩) السديد : الموفق فى أموره ، النوتى : الملاح فى البحر، النقد : اكلان فى القرن وتقشر فى الحافر .

(١٦٠) ص ٢٢٧ ـــ السفر: الجماعة المسافرون، المكوس : الضرائب.

وعندما قيل له ان ابن الدبيثى شاعر مجيد ومن أهل العلم والأدب قـــال :

قالــوا : الدبيثـــى ذو قـــواف
محـــكمة النظـــم مســـتقيمة
فقلـت : بعـــدا لـــكم وسـحقا
فـــكل أفهامـــكم ســـقيمة
شـــعر الدبيثـــى لـــو عقـــلتم
أبـــرد مـــن أمـــه الائيمـــة
هـــو الـــذى تعلمـــون كالـــب
فهـل لنبـــح الـــكلاب قيمـــة(١٦١)

وامعانا منه فى هجائه والسخرية به صور المخازى وكأنها أصبحت بنات لهذا الرجل وهو لها أبا ، وعندما يموت تصرخ المخـازى وتولول بالشقاء واليتم والضياع ، وكل ذلك فى صورة طريفة فريدة أضفت على القصيدة نوعا من الحيوية والحركة :

متـــى يمـــت تصـــرخ المخـــازى
يـــا أبتـــا واشـــقا اليتيمـــة
بعـــدك حلـت بنـــا أمـــور
مقعـــدة الغـــوا مقيمـــة
راحـت جيـوش الضـلال فوضـى
قـد هزمـت أســـوأ الهزيمـــة
وأدرك الحـــق بعـــد ذلـــك
منـــا بآثـــاره المنيمـــة(١٦٢)

---

(١٦١) ص ٥٠٥ .
(١٦٢) ص ٥٠٦ .

أما بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل فلم يهجه الا ببيتين وذلك بعد أن ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة فقال فيه معيرا له بأصله الأرمنى :

تسلطن بالحدباء عبد بلؤمه
بصير بلا عن نيل مكرمة عم

اذا أيقظته لفظة عربية
الى المجد قالت أرمنيته نم(١٦٣)

على أن أكثر هجاءه كان فى أهل الفساد والغدر فى بلده أولئك الذين عملوا بوشاياتهم على ضعضعة أركان الدولة العيونية ، وأوغروا صدور الأمراء على بعضهم البعض ، فوقف ابن مقرب منهم موقفا اتسم بالحقد والمرارة لما يراه من شأنهم ومن أعمالهم ، فأكثر من وصفهم بالذل والمهانة والرضا بهوان العيش ، وأن فيهم جلد الجمل على تقبل هذا الهوان فقال :

جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء

واذا ابتذوا بحثوا البذا فكأنهم
دجج تباحث عذره بفضاء

عمى عن الاحسان الا أنهم
أهدى الى لؤم من الزرقاء

صم عن الحسنى ولكن طالما
سمعوا كلام الحكل فى العوراء(١٦٤)

---

(١٦٣) ص ٥٠٥ — الحدباء : الموصل ، تسلطن : أصبح سلطانا .

(١٦٤) ص ١٤ ، الدبا : الجراد ، البذا : الفحش ، الدجج : جمع الدجاج ، كلام الحكل : الغير مفهوم .

ويصرخ فيهم ويندبهم لترك ما هم فيه من أعمال ونذالة ، ولكن هيهات فلو كانوا أحياء لأجابوا ، وانما هم أموات ، ولا يرى منهم سوى أشباح متحركة تمشى مع الناس :

تا اللـه أقسـم لـو دعـوت بندبتـى
حيـا للبـى دعـوتى ونـدائى

لـكننى ناديـت مـوتى لـم تـزل
أشـباحهم تمشى مـع الأحيـاء

ألفـوا الهـوان فلـو تنـاءى عنهـم
لسـعوا لبغيتـه الـى صـنعاء(١٦٥)

وفى أبيات أخرى وصفهم وصفا دقيقا مزريا ، فشبههم بالخطاطيف التى تحمل الأباطيل بينما فى الأمور العظيمة كأنهم خشب مسندة لا يلبون النداء ولا يسمعون :

وغـظ باصـطناعى معشـرا أن دعوتهم
لنـائبة آبـوا ، وان أمنـوا نبـوا

خطاطيـف فى حمـل الأباطيـل بـل هم
أخف ، وفى الجلى كأنهم الخشـب(١٦٦)

ويحث نفسه ويدعوها الى مفارقة أرض يدبرها هؤلاء الأوباش الأنـذال :

وأهجـر دارا لـو يحـل ابن قاهـث
بهـا راح مسحوتا من المـال مجحـدا

---

(١٦٥) ص ١٦ ، صنعاء بلدة باليمن .

(١٦٦) ص ٣٣ — *آب : رجع ، نب : صاح عند الهياج ، الجلى : الأمـر العظيم .*

يدبرهــا أوبــاش قـــوم تنـــكبوا
عن الرشد حتى خلت ذا الغى أرشـــدا

اذا رضـــى الأعـــداء منهـم مهــانة
بأخــذ الجــزى عـدوه نصــرا مؤيدا

أقامــوا الأغــانى بالمغــانى وضيعوا
كــرام المساعى والثناء المخــلدا(١٦٧)

وحفل هجاؤه فيهم بصور كثيرة أخرى من التشبيهات والمفارقات التى تصور ما وصل اليه هؤلاء من مهانة وضعة كالذى رأيناه ؛ وسنورد شيئا من هذه التشبيهات والصور الشعرية فى الفصل القادم ان شاء الله عندما نتحدث عن الخصائص الفنية لشعر ابن مقرب •

* * *

الشـــوق والحنين :

كان من نتيجة مجافـــاة ابن مقرب لقومه بســـبب اضطهادهم له وحرمانه من حقوقه أن قضى شاعرنا حياته فى ســلسلة من الرحـــلات والتنقلات التى لا تنقطع الا لتبدأ من جديد ، وكان من نتيجة ذلك أيضا أنه اكتوى أشد ما يكون بألم الفراق ومضاضة البعد عن وطنه البحرين، وعن مرابع الصبا ومواطن الذكريات ؛ ونتيجة لذلك كان حتما أن يصدر عنه شعرا فى الشوق والحنين لهذه الربوع والديار ، أو لهذه الذكريات والأيام الخوالى الماضية المليئة بالمتعة والأنس ، وهذا اللون من الشعر لن نجده طبعا الا فى القصائد التى نظمها وهو فى الغربة بعيدا عن ربوع الاحســـــاء •

---

(١٦٧) ص ١٥٦ ــ ابن قاهث : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وهو من يضرب به المثل فى كثرة المال • مسحوتا من المال مجحدا : أى أصبح لا مال له ، الأوباش : السفلة ، تنكب عن الرشد : عدل عنه ، الجزى : جمع جزية .

وشعر الحنين عنده يأخذ عدة اتجاهات مختلفة ، فقد يكون حنينا الى الوطن، وقد يكون حنينا الى المحبوبة أو تذكرا لأيامه السعيدة معها فى ربوع الوطن ، وقد يكون حنينا لأيام الصبا والشباب وذكريات ذلك العهد الطرى وأماكن اللهو السعيدة .

١ ــ الحنين الى الأهل والديار :

فمن ذلك قوله فى شعر ينضح باللوعة والألم للبعد عن الوطن والأهل :

فيا راكبا تطوى به البيد جسرة
وتغتال غيطان الفلا والأخاشيا

اذا أنت ألقيت العصى مخيما
بالاحسا ، وجاورت الملوك الأطاييا

فيمم لجرعاء الشمال فان لى
بها خلة أشتاقها وملاعبا

وقف وقفة بالدرب غربى بابها
فثم تلاقى أسرتى والأقاربا

فتلقى ملوكا كالأهلة لم تزل
تهش الى الحلى وتأبى المعايبا

وان تأت قصر القرمطى تجد به
جماجم قومى والقروم المصاعبا

ذوى الملك والتيجان والمنصب
الذى سما فعلا فخرا فجاز الكواكبا

فقل لهم بعد السلام مقالة
تعم بها عنى شبابا وشائبا

ألا يا لقومى والفتى حين يرتمى
به الدهر يدعو قومه لا الأجانبا

كفى حزنا أنى ببغداد مفرد
عن الأهل ألقى كل يوم عجائبا

ويشتاقكم قلبى فأذكر دونكم
مهامه لا أشتاقها وسباسبا

فيسهل عندى خوضها فيعز لى
تذكر حالات أشبن الذوائبا(١٦٨)

ونلاحظ على هذا الشعر الذى ترجم به الشاعر أحاسيسه ومشاعره أنه امتزج بالافتخار بقومه الملوك ، فكأنه بذلك أضاف الى دافع شوقه اليهم دافعا آخر كما نستشف من ذلك ، كما نلاحظ حرصه على تعميم السلام عليهم جميعا فى قوله (نعم بها عنى شبابا وشائبا) وما يقطر به قوله : (كفى حزنا ..) من لوعة وأسى شديدين .

وله مقطوعة فى الحنين والتشوق الى أهله يقول فيها :

كتاب مشوق ما تغنت حمامة
من الورق الا حن شوقا اليكم

مقيم بأرض المجزرى وقلبه
رهين بجرعاء الشمال لديكم

يحن اذا هبت شمال لأنها
تؤدى اليكم أو تمر عليكم(١٦٩)

---

(١٦٨) ص ٣٨ — الجسرة : العظيم من الابل ، غيطان الفلا : المطمئن الواسع من ارضها ، الاخاشب : اسم جبال ، القرم : السيد .

(١٦٩) ص ٤٦٥ — المجزرى : لعله نسبه الى الجزيرة وهى ارض بالبصرة ، الجرعاء : موضع بالاحساء .

فصوت الحمام على الأشجار شوقه اليهم ، ورغم بعـده ونأيه عنهم ، الا أن قلبه معلق لديهم ويزيده حنينا هبوب ريح الشمال ، لأنها تذهب اليهن ، أو تمر بديارهم ، وهكذا صور ابن مقرب حنينه الى أهله بعبارات تفيض باللوعة والألم الممض الذى لا يسع من يقرأه الا التأثر به ، ومشاركة صاحبه فيه .

ويتشوق الى الحسا والثليم من أرض البَحرين فيقول :

يا حبذا بلاد الحساء فانه
لو ساءنى — بلاد الى محبب
بل حبذا درب (الثليم) وحبذا
ذاك القطين به وذاك الملعب(١٧٠)

وفى أبيات أخرى يذكر شوقه وحنينه الى بلاده وجمالها وجمال حدائقها الوارفة التى لو مر بها الشاعر ذو الرمة لأنسته حدائق نجد التى وصفها فى شعره :

ولا بأس لو عنيتمانى فقاتما
رعى الله بالجرعاء حيا ومألفا
بخفق المثانى فى ظلال حدائق
تظل على أغصانها الطير عكفا
دجيلية لو حط غيلان رحله
بها ساعة أنسته حزوى ومشرفا(١٧١)

---

(١٧٠) ص ٨٥ — القطين : القاطن أو اهل الدار .
(١٧١) ص ٢٨٤ — المالف : المكان المألوف ، المثانى من أوتار العود : ما بعد الأول ، عكفا : عاكفه ، دجيلية : نسبة الى دجيل اسم نهر ، وغيلان هو ذو الرمة الشاعر المعروف ، حزوى:موضع بنجد ، ومشرف رمل بالدهناء.

٢ — تذكر الأحبة والخلان :

من ذلك أنه رأى البرق يوما يلمح فى السماء ، فذكره بثغر الحبيبة اذا ابتسمت :

خليلى هبا من كرى النوم وانظرا
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد أن يستفزنى
أبوح بسرى فى الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
اذا ما تجلى ضاحكا وهو يمرح
ويا حبذا ذاك الجبين الذى غدا
يلوح عليه الزعفران المذرح
فكم ليلة قد كاد يخطف ناظرى
ونحن بميدان الدعابة نمرح(١٧٢)

وكان مرة يعبر نهر دجله ، وعن كثب ترامى الى سمعه هديل حمامة فأهاج صوتها فى فؤاده لواعج الشوق والفراق ، وأجرى على لسانه أغانى اللوعة والحنين الى أحبته :

صبا شوقا فحن الى الديار
ونازعه الهوى ثوب الوقار
وهاج له الغرام غناء ورق
هواتف فى غصون من نضار
صدحن غدية فتركن قلبى
وكان الطود كالشىء الضمار(١٧٣)

---

(١٧٢) ص ١٣١ — ذرح الزعفران فى الماء : جعل فيه منه شيئا يسيرا .

(١٧٣) ص ٢١٤ — الورقاء : الحمامة ، النضار : الاثل ، الغدية : تصغير الغداة ، والصود : الجبل ، والضمار : الشىء لا يرجى رجوعه .

ويخاطب الحمام بقوله :

رويـــدا يـــا حمـــام بمســـتهام
مشــــوق منـــه طـــول الســـفار
بـــراه الشـــوق بـــرى القـــدح جـــدا
فغـــــادره بقلـــــب مســــــتطار
فوا عجبـــا لـــكن تنحـــن خـــوف الفـــ
ـــراق ومـــا بـــدت خيـــل خيـــل المعار
ولـــم تصـــدع لـــكن عصـــا ببـــين
ولـــم تعبـــث لـــكن نـــوى بغـــار(١٧٤)

فيعجب من نوح الحمام لخوفها من الفراق مع أنها لم تعرف هذا الفراق ولم تجربه كما جربه هو ولم تصدعها عصا البين أو تعبث بهـا النوى كما قاساها وكابدها ، ثم يخاطبهن بقوله كيف بكن لو كابدتن ما أكابده ، وقاسيتن هذه الشجون التى تعلقت بى ونار الشوق ولفحها:

فـــكيف بـــكن لـــو نيطـــت شـــجونى
بـــكن ونـــار وجـــدى وادكارى(١٧٥)

وكان مسافرا مرة فرأى فى الطريق شجرة وارفة الظلال ، فدعا صاحبيه للجلوس تحتها ، والتفيؤ بظلالها ، لعل المقيل والاضطجاع يعيد الى قلبه المشتاق بعض الذكريات الجميلة :

لعـــل مقيـــلا تحتهـــا واضـــطجاعة
تـــرد عـــلى عـــين المشـــوق كـــراهـــا

---

(١٧٤) المرجع السابق ـ من السير فلانا : أضعفه ، القدح : السهم قبل ان يراش ، المعار : الفرس الذى يحيد عن الطريق براكبه ، صـــدع العصا : كناية عن التفرق ، البين : الفراق ، النوى : البعد .
(١٧٥) الشجون : الأحزان : الادكار : التذكر .

وبيتا وظلا بالديار وذكرا
ليالينا بالقصر واذكراها

فكم ليلة بتنا بها لو يباعها
أريب بشطرى عمره لشراها[١٧٦]

٣ — اشتاق الشاعر الى أيام صباه وذكريات شبابه فقال شعرا علة بذلك يستعيد — ولو فى خياله فقط — أيام لهوه ومرجه ، ويعوض بهذا الشعر ما يعانيه فى حاضره المر من شقاء وعناء ، ومن خلال هذا الشعر أمكننا الوقوف على الأماكن التى شهدت نشأته وشبابه مثل (حجر) و (اجله) وغير ذلك يقول ابن مقرب :

لله أيام الصبا اذ درانا
حجر القرى ولنا بأجلة معهد
اد لمتى تحكى الغداف وانما
أشهى الشعور الى العيون الأسود
والخد من ماء الشباب كأنما
فيه لأحداق الكواعب مورد
كم ليلة طالت فقصر طولها
شدو المزاهر والغزال الأغيد
وترنم الأوتار فى يد قينة
غنج يدين لها الغريض ومعبد[١٧٧]

فأيام شبابه كما نرى حافلة بالأنس والطرب فحق له أن يبكيها ويتحسر لفوتها :

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلابه

---

(١٧٦) ص ٦٤٤ .
(١٧٧) ص ١٦٠ .

وجـاد ديـار الحـى من أيمـن الحسا
مرب يـوارى الهضـب دانى ربابه[١٧٨]

ويدعو لهذه الليالى بالسقيا ، فقد تولت كالحلم ، وتحسر على نضرتها ومرحها ، وعدم دوامها ، فقد كان آنذاك شابا فتيا قويا لا تعيره الحسان بالشيب والكبر :

سـقيا لليـالى اللهـو لقـد
كانـت وتولـت كالحـلم
يـا خضـرتها يـا نضـرتها
يـا حسـرتها اذ لـم تـدم
اذ ليـس البيـض تؤنبنـى
بمشـيب لاح ولا عـدم[١٧٩]

وهكذا نرى أن شعر ابن مقرب يموج بالشوق والحنين الى ما فاته وما خلفه وراءه ، سواء كان وطنه وأهله ، أو كان ذكرياته مع الأحبة فى أيام الشباب والصبا ، وكما رأينا أيضا فقد امتزج هذا الشعر بلواعج الحسرة واللوعة ومشاعر الحزن الممض ، ولعل مما زاده لوعة على لوعة أن الظلم الذى وقـع عليه كان من ذويه وقرابتـه وليس من الغريب البعيد ، فلا حرج عليه اذا أن يحاول بهذا اللون من الشعر أن يخفف عن نفسه بعض آلامها ، ويروح عنها شيئا من مصابها ومتاعبها .

الوصـف :

الشعر الا أقله راجـع الى باب الوصف[١٨٠] ، وقد قصـد اليه الشعراء فاجادته دليل على عمق الشاعر ، وبعد الخيال وخصوبة الفكر ،

---

(١٧٨) ص ١٠١ ، الرباب : السحاب الأبيض .
(١٧٩) ص ٥٨١ .
(١٨٠) ابن رشيق — العمدة — ج ٢ ص ٢٩٤ .

ولكن هذا الغرض لم يكن له نصيب كبير فى الشعر العربى ، بل ورد عرضا فى ثنايا القصائد ، وشأن شاعرنا ابن مقرب فى ذلك شأن باقى الشعراء ، ولهذا فمن العسير أن نظفر بوصف متكامل لشىء فى شعره ، فكل ما هنالك أبيات قليلة وردت ضمن قصائد معدودة من شعره ، ولم يكن هذا الوصف القليل قد قصد اليه الشاعر ، بل جاء كما قلنا عرضا ضمن الموضوعات الأخرى التى تزخر بها القصيدة ، ومن الناحية الفنية فان هذا الوصف فى عمومته تنقصه جودة الحبك واحكام التصوير .

والوصف عند ابن مقرب يأخذ اتجاهين :

الأول : التفت فيه الشاعر الى البيئة البدوية فوصف منها ما شاهده أثناء رحلاته ، فوصف الصحراء وطبيعتها ، ووصف الابل ، ووصف البحر وأمواجه ، والسفينة التى سافر عليها أحيانا وشبهها بالناقة .

الثانى : الوصف الحضرى ، وهذا قليل فى شعره ، ومنه وصف مجلس الخمر والطرب فى افتتاحية بعض قصائده ، كما أنه وصف بعض المشاهد الحربية وصور فيها شجاعة الممدوح وبسالته واقدامه ، ووصفه للمعارك الحربية ينبئنا عن انسان قد جربها ، وخاض غمارها بنفسه وشاهد أهوالها .

فمن النوع الأول قوله يصف البحر والصحراء وغالبا ما يقرب بينهما :

فكم خضت رجو اليوم من لج مزيد
يظن اصطفاق الموج فيه مشاهلا

وكم جبت من موماة أرض ترى بها
مع الآل حق العين والأذن باطلا

تخال بها الحرباء فى رأس جذلة
شبيحا من البدوان للعرض ماثلا

وتحسب فيها الثعليان مجدلا
من الخيل اذ تعلو كثيبا مقابلا

وان عرضت فيها الرئال حسبتها
بخاتى تحسلن الروايا قوافلا(١٨١)

فأمواج البحر عند اصطفاقها وعلو زبدها الأبيض كأنها مشاعل ملتهبة ، والصحراء مقفرة لا ترى فيها العين ولا تسمع الأذن شيئا غير هذه الدواب والحشرات التى تبرز بين الحين والحين ، ونلاحظ أن أوصاف ابن مقرب لمخلوقات الصحراء لا تتعدى الى الجزئيات ، بل تقف عند التعميم والتشبيه الخارجى .

وغالبا ما يصف الصحراء بالتيه والخواء وبأنها تتعب سالكها ، والبحر بأنه مزبد الأمواج :

كم جبت دونك من تيهاء خاوية
يشكو الكلال بها النجاءة التعب

ومزبد يتراءى الموت راكبه
سلامة المتخطية له عجب(١٨٢)

ويحكى لنا عما يصيبه من الرعب فى وحشته بالصحراء المقفرة ، وما يتراءى له أحيانا من الجن وما تبثه من أضواء وما يسمعه من انتحاب وبكاء :

---

(١٨١) ص ٣٩٦ — رجوى اليوم : رجاء له وطلبا ، الموماة : المفازة المهلكة ، الآل : السراب ، الحرباء : دويبه تتلون بما حولها ، الجذل : أصل الشجرة ، الثعلبان : الذكر من الثعالب ، المجدل من الخيل : القوى ، الكثيب : المجتمع من الرمل .

(١٨٢) ص ٩٨ — المزبد : البحر كثير الزبد من شدة الموج ، والكلال : التعب ، النجاءة : الاسراع فى النجاة .

فكم لهذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب فى أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حينا وآونة
تبث أضواءها حولى وتنتحب(١٨٣)

أما وصفه للناقة فتتبدى فيه الروح البدوية لفظا ومعنى :

وقد قربوا للبين كل همرجل
أمون القرى ضخم العثانين تامك
قمطر درفس قيسرى كأنما
مناكبه جللن وشى الدرانك
رعى واجفا فالصلب من أجبل الغضا
بحيث استهلت كل وطفاء رامك(١٨٤)

فالناقة قوية متكاملة الخلقة والأعضاء ، وهذا يعنى أنها سريعة الجرى خفيفة ، ومن جمال فروتها كأن عليها ثياب موشاة ولبس فروا ، وما ذلك الا لأنها ترعى مراعى خصيبة لا ينفك المطر يهطل عليها .

ويصف ناقته بأنها تنحدر من سلالة قوية لذلك فهى سريعة لا تقف ولا تتمهل :

وحرة من بنات العيد ناجية
لا تعرف السير غير الشد والخبب

---

(١٨٣) ص ٩٣ — الدوية : البرية ، فلاة قذف : تتقاذف بمن سلكها ، يجب : يضطرب .

(١٨٤) ص ٣٠٦ ، الهمرجل : الجواد والناقة السريعة ، ناقة أمون : وثيقة الخلق ، القرى : الظهر ، العثنون : شعيرات تحت حنك البعير ، التامك : الناقة العظيمة السنام ، القمطر والدرفس والقيسرى : أوصاف للجمل العظيم ، والدرنوك : نوع من الثياب ، واجفا والصلب : أماكن استهل المطر : اشتد انصبابه ، الوطفاء : السحابة الممطرة ، الرامك : المقيمة .

تخالهــا بعــد خمس الركــب رائحـــة
دويــة فقــدت رألا بــذى نجــب[١٨٥]

وشبهها فى البيت الأخير بالنعامة التى فقدت ابنها فهى تعدو هنا وهناك بحثا عنه ، وهذا أدل على نشاطها وكثرة حركتها .

وفى معرض وصفه الناقة قد يصف سفينة البحر ويشبهها بسفينة الصحراء ، وينسب صفات هذه لتلك :

ليبعــدنى عنهــم شـــد ناجيـــة
وجنــاء غفــل مــن التوقيــع والوقــع
أو ذات قلــع من العينــاء مــا عرفــت
فى زجــرها بخــل يومــا ولا هــــدع
ولا رغت عنــد حمــل الثقــل من ضجر
ولا الى هبـــع حنــت ولا ربـــع
تجرى مع الريح ان هــونا وان مرحــا
فنعم مطلعــة من هــول مطــلع[١٨٦]

فبعد أن وصف ناقته بقوة السير ونفى عنها التمهل انتقــل الى وصف السفينة وشبهها بالناقة ، فهى لا تحتاج فى ســيرها لمن يزجرها كسفينة الصحراء ، وهى قوية شديدة التحمل ، لا ترغى ولا تضجر ، للاثقال المحمولة عليها ، بل انها تسير هادئة أحيانا وحثيثة أحيانا أخرى كى تصل الى هدفها المقصود ، ونلاحظ من هذا المثل ارتباط ذهن الشاعر

---

(١٨٥) ص ٧٦ — من بنات العيد : من نسل قوى ، الناجية : السريعة ، والشد : العدو والخبب : نوع من العدو ، الخمس : توقيت لرى الابل ، والروية : النعامة والرأل : ابنها ، وذى نجب : مرضع .

(١٨٦) ص ٢٧٦ ، الناجية والوجناء : الناقة الشديدة ، التوقيع : نوع من السير ، القلع : شراع السفينة ، الهدع : كلمة يسكن بها صغار الابل ، الهبع : الفصيل ، والربع أيضا ، المطلع : القوى .

بالبادية ومخلوقاتها حتى فى تشبيهاته وأوصافه للأشياء الأخرى ونجد فى مثل آخر مقارنة بين السفينة والناقة أيضا ونلاحظ فى كـلا المثلين ما قلناه سابقا عن وصف الشاعر وأنه يبتعد عن الوصف الجزئى ، ويكتفى بالوصف الخارجى العام ، وذكر حسنات الموصوف من قـوة وسرعة فيقول هنا :

بـكل مطـلى الملاطـين لـم
يجـرب ولـم يـرع بمرعـى السوام
تسـوقه الريـح وتحنثـه
الجـل وفى الوجعـاء منـه الزمـام
لا يعـرف الاعيـاء فى سـيره
ولا يبـالى أمضـى أم أقـام
وقـد تسـاوى عنـده فى المـدى
يـوم وأسـبوع وشـهر وعـام
اذا يمـس الأرض فى جريـه
خيف عـلى راكبـه الاصـطلام(١٨٧)

وقد يكون وصفه للسفينة بأنها (مطلية الملاطين) أى الجانبين ، الوصف الجزئى الوحيد فى هذه الأبيات ، بالاضافة الى قوله فى البيت الثانى أن زمام السفينة فى مؤخرتها (وفى الوجعاء منه الزمام) ، على أنه يعود بعد ذلك وينسب للسفينة صفات الناقة ، وما يصيب الأخيرة من جرب وأمراض جلدية ، ويقول انها لا تحتاج الى الكلأ أو الرعى كالناقة ، ولا تعرف الاعياء ، ولا تبالى بالرسو أو الانتقال ، ويتساوى عندها فى البعد الأزمان الطويلة والقصيرة ، لكن اذا مست الأرض فى

(١٨٧) ص ٥٧٣ ، الملاط : ما يملط به الحائط او الجنب ، يجرب : يصيبه الجرب ، الجل : الشراع ، الوجعاء : يعنى بها هنا مؤخر السفينة ، الاصطلام : الاستئصال .

أحد جوانبها ، فهناك مكمن الخطر عليها وعلى راكبها ، وكل هذه الأوصاف كما نرى أوصافا عامة ، ولكنها تؤكد قوة ارتباط نفسية الشاعر وذهنه بالصحراء ومخلوقاتها .

ويعود الى وصف الناقة بالسرعة ، ويشبهها بسرعة النعامة فيقول:

أو كـــل روعـــاء عزيزيـــة
تـزف بالرحـل زفيـف النعـــام(١٨٨)

ومن وصفه للفرس وهو قليل قوله :

يصـحبها أجـرد عـرض النســا
قصـير الأرساغ طـويل الحزام(١٨٩)

فوصفه بالشدة والصلابة وقوة التحمل :

ومن وصفه الذى أبدع فيه وأحسن قوله يصـف المطر وشـدة غزارته :

ملـث ، يظـل الجـآب فى عنفـــوانه
على النشــز وهــو السحسح المتمايــح
كمسترعف ، أحـذى ودنـح بعـــدما
غــدا طلقـا واسـتبدهته المطـاوح

---

(١٨٨) ص ٥٧٤ — الروعاء : الناقة الحديدة الفؤاء ، بنـو عزيز : قبيلة من العرب تنسب اليهم كرام الابل ، زفيف النعام : اسراعه فى عدوه.

(١٨٩) ص ٥٧٤ — عرض النسا : قوية صلبة ، والنسا : عرق من الورك الى الكعب ، الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوضيف من الرجـل .

وتمسى الرعان القود فيه كأنها
بعاليل فى آذى بحر طوافح(١٩٠)

فهذه الصورة مع جمالها نلاحظ أنها منتزعة من البيئة انتزاعا ، سواء فى ذلك من ناحية اغراق خيال الشاعر ، أو الألفاظ الغريبة التى استخدمها للدلالة والتعبير عن هذا الخيال ، فهو فى البيتين الأولين يقول : ان شدة المطر وغزارته ألجأت الحيوان العنيف الذى يرى غاديا رائحا فى هياجه ، ألجأته شدة المطر الى مرتفع أرضى كى ينجو من غزارة المطر ، فوقف منكمشا على نفسه مستسلما متخاذلا كأنه رأى المهالك وقد أحاطت به ، بعد أن كان يجرى هنا وهناك فى شدة وسرعة ، ومع أن هذا التشبيه ليس بكبير معنى الا أننا نحس بالجهد الذى بذله الشاعر لكى ينتزعه من خياله ، مما جعله تشبيها أقرب الى النحت منه الى التصوير ، وكأنما كثرة الماء وغزارته ذكرته بمنظر البحر وأمواجه فصور لنا فى البيت الثالث رؤوس الجبال بارزة من خلال الماء الغزير ، وكأنها رؤوس أمواج هائجه ارتفعت فى بحر طام ، ومع أنها مبالغة فى وصف غزارة المطر الا أننا نستدل من هذه الصورة والتى قبلها على بعد خيال الشاعر وبراعته فى الوصف والتصوير .

ووصف الشاعر بعض الوقائع الحربية فمن ذلك قوله يصف معركة شارك فيها أحد أبناء عمه وهو الأمير الفضل بن محمد العيونى :

سل القوم عنه يوم جاءت وأقبلت
تخب المذاكى تحتها وتناقل

---

(١٩٠) الملث : الدائم ، الجأب : الحمار الغليظ ، النشر : المرتفع ، السحسح : المطر الشديد ، المتمايح : المتمايل والمسترعف : المتقدم ، احذى التراب : حثاه ، استبدهته : فاجأته ، المطاوح : المهالك ، الرعن : انفه يتقدم الجبل ، البعلول : حباب الماء ، آذى البحر : موجه .

أغـــارت على درب الحنـــائد غـــارة
يطـير الحصـا من وقعهـا والجـراول

لهـا فيلـق بالجـو ذى النخـل كامـن
وريعانهـا للمسـجد الفـرد شـامل

وطاردت الفتيـــان فيهـا وأظهـرت
كناهـا وكـل عـارف مـن يجـادل

فولت حمـاة القـوم خيـلا ولـم تزل
بنـو الحرب فى يـوم التلاقى تحـاول

فراحـت عليهـا الخيـل فانبعثت لهـا
جحافـل جمـع تقتفيهـا جحافـل

فحاصت حـذار القتـل والأسـر خيـله
وسـمر القنـا فيهـن صـاد وناهـل

فأوردهـم صـدر الحصـان كأنمـا
لـه المـوت جنـد بالمعـادين كافـل

وعاجـل طعنـا سيد القـوم فافتـدوا
وقـد عـاف كل منهم ما يحـاول(١٩١)

ونلاحظ على وصف المعركة التسلسل والاتساق من البـداية الى النهاية فالخيل مقبلة فى شدة ، وسرعة ومن شدة وقعهـا على الأرض تتطاير الحجارة والحصى ، وغبارها يملأ الجو ويشمل المكان ، والفرسان

---

(١٩١) ص ٣٤٥ خب الفرس فى عدوه : راوح بين يديه ورجليه ، وناقل الفرس : أسرع فى نقل القوائم ، الجراول : الحجارة ، الجنادل : الصخور العظيمة ، الجـو ذو النخل : موضع ، ريعـان الشىء : أوله ، والمسجد : مسجد الجعلانية، وهو مسجد الأميرة بنت الأمير عبد الله بن على، الكنية : ما صدر بأب أو أم ، حاصت : عدلت وتراجعت .

فوقها كل يصاول عدوه ويعرف نفسه للذى يبارزه ، وهذا من عادات العرب فى المبارزة ، وعندما تتبع العدو خيل القوم ، برز لهم الأمير فى خيله ، وحاذر منهم أن يصيبوا منه مقتلا ، ثم أعمل فيهم السيف قتلا وتجريحا ، وأوردهم صدر حصانه مما يدل على شجاعته واقــدامه ، وعندما حانت له الفرصة عاجل سيدهم بطعنة مردية ، جعلت من وراءه يركنون الى الفرار ، ويعافون القتال •

عبر الشاعر عن كل هذا بكلمات ضخمة تناسب منظر القتال وما يجرى من شدة وأهوال كقوله : (أغارت ، فيلق ، جحافل) ، واستخدم الشاعر فاء التعقيب بكثرة فى أبيات متقاربة ، وذلك للدلالة على كثرة الكر والفر والمصاولة والمجاولة مثل (فراحت ، فحاصت ، فأوردهم) •

ومن أوصافه الحضرية ، وصفه للخمر ، وما تحدثه من آثار فى شاربها وذلك فى قوله :

قــم فاسـقنيها قبــل صــوت الحمــام
كرميـــة تجمــع شــمل الـــكرام
صــهباء ممـــا عتقــت بابـــــل
مزاجهــا الأرى ومـــاء الغمـــام
ممـــا أديــر الــكأس منهـــا عــلى
كســرى ونمــرود بن كــوش بن حــام
لــو احتســاها ابن الزبـــير اغتــدى
أكــرم مــن كعـــب وأوس بــن لام
تذهــب باليــأس وتــدنى المنـــى
وتنشــر اللهــو وتطـــوى الغـــرام

أو ذاقهــا المنــزوف ضــرطا لـما
هــاب ابن ذى الجدين يوم الزحام(١٩٢)

فالشاعر يصف الخمر بأنها كرمية أى مأخوذة من الكرم وهو العنب، وأنها معتقة جيء بها من بابل ، وطعمها مزيج من العسل والماء العذب ثم ينتقل الى وصف آثارها ؛ فيقول لو أن عبد الله بن الزبـير شربها لترك البخل الذى اشتهر به ، ولصار أجـود من كعب وأوس بن لام المعروفين بالكرم ، ولو شربها الرجل الذى مات ضرطا من شدة الخوف لصار شجاعا لا يهاب قتال أحد ولو كان ابن ذى الجدين الشـجاع ، وكل ذلك من تأثير الخمر وما تحدثه من آثار .

وكما لاحظنا فان وصف ابن مقـرب لأثر الخمر أكثر من وصـفه للخمر فى حد ذاتها ، وهذا ما يخرج به عن التخصيص الى التعميم ، وهذه الملاحظة الأخيرة تبقى ظاهره عامة فى أوصافه كما قلنا سابقا ، مما يجعل معظم وصفه يفتقد الوضوح وتحديد الصورة والالمام بجزئياتها، ولعل مرجع ذلك أن الشاعر لم يتفرغ لهذا الغرض بشكل يتيح له الاجادة والاكثار فيه نظرا لما اكتنف حياته من ظروف معاكسة جعلت هذا الغرض يأتى عارضا ضمن الأغراض الأخرى فى شعره ، ولعل الشاعر بعـدم التقصى والتفصيل فى وصفه يستلهم فى ذلك الروح العربى البيانى الذى يقول عنه الدكتور زكى المحاسنى: «انه انطوى منذ كان على الاختصار فى سرد الصور والزهد فى التقصى »(١٩٣) .

***

---

(١٩٢) ص ٥٧١ — كرميه : نسبة الى الكرم وهو شـجر العنب ، الأرى : العسل ، ونمرود : هو صاحب القصة مـع ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ابن الزبير ، هو عبد الله بن الزبير ، وقد شهر بالبخل ويشهد التاريخ إنه كان حريصا على أموال المسلمين غير مفرط فيها .
فى المثل : أجبن من المنزوف ضرطا : وقصته أن رجلين خرجا فى فلاة فلاحت لهما شجرة ، فقال أحدهما : أرى قوما قد رصدونا ، فقال الآخر : انما هى عشرة (بضم العين) فظنه يقول بفتحها فقال : وما غناء اثنين عن عشرة ويضرط حتى مات .

(١٩٣) د. زكى المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ٢٧ .

الخلاصـــــــــة :

نظم ابن مقرب شعرا فى معظم الأغراض الشـــعرية كما رأينا . وعلى الرغم من أن المديح والفخر يشكلان العمود الفقرى لديوانه من ناحية الأغراض الا أنه برع عموما فى معظم أغراضه ، واســتطاع أن يظهر لنا فنونه الشعرية فى قوالب بديعة وتصاوير جميلة خلدت هــذا الشعر ، وأبقته لنا رغم مرور السنين وبعد الشقة بيننا وبينه ، ومن خلال تحليلنا لهذا الشعر استطعنا أن نستظهر أهم صفات ابن مقرب النفسية ، من همة عالية ونفس طموح لا تقف عند حد ، كما وقفنا أيضا على مدى معاناته ومجالدته وتحمله لنوائب الزمن ، رغم مجافاة الأقرباء وابتعاد الأحبة ، ويبقى بعد ذلك أن نقف على أهم خصائص هذا الشعر من حيث اللغة والتراكيب والأخيلة وما الى ذلك ، وهــذا ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم ان شاء الله .

* * *

الفصل الخامس

« خصائص شعره »

أولا : الألفاظ والأساليب :

عاش ابن مقرب حياة قلقة غير مستقرة ، وكان دائم التنقل والارتحال بين بلده البحرين وبلاد العراق ، وبين الحواضر والبوادى وتبعا لذلك جاء شعره متنوعا مصورا لهذه الحياة الغير مستقرة أكمل تصوير ، وبالتالى اختلفت لغة شعره بين لغة بدوية جافة صور بها مشاهداته فى البادية ومخلوقاتها وبين لغة حضرية واضحة عبر بها عن مشاهداته فى الحواضر والمدن بلغة سلسة وأسلوب سهل ممتنع مزجه الشاعر ببعض الاقتباسات من القرآن الكريم والتراث الاسلامى ، ولذلك نستطيع القول بأن شعره جمع بين خصائص الأسلوبين : الجاهلى فى بداوته ، والعباس الاسلامى فى تحضره واقتباسه من كتاب الله العزيز .

تناول ابن مقرب كل ذلك بألفاظ قوية جزلة وعبارات متينة محكمة وأسلوب رصين حاكى به أسلوب الجاهلين ، حتى أتى بغريب الألفاظ التى وان كانت مألوفة للبدوى الا أنها غريبة لمن يسكن المدن والحواضر ، وهذا لا ينسحب على كل شعره ، اذ أن لشعره جانبا حضريا كما قلنا ، وفى هذا الجانب رقت عبارته وسلس أسلوبه ووضحت ألفاظه ، فجاء شعره مناسبا متآلفا خاليا من الابتذال والاغراب .

ومن غريب ألفاظه قوله :(1)

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك

عفت غير آرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك

---

(1) الديوان – ص ٣٠٥ .

ونــؤى كجذم الحــوض غــير رســمه
وجيف الحصــا بالموجفــات الحواشــك

وقوله حاكيا عن الصحراء :

وكــم جبت من مومــاة أرض ترى بهــا
مــع الآل حــق العــين والأذن باطــلا

تخــال بهــا الحــرباء فى رأس جذلــة
شــبيحــا من البذوان للعــرض ماثــلا

وتحســب فيهــا الثعلبــان مجــدلا
من الخيــل اذ تعــلو كثيبا مقابــلا(٢)

ومن أمثلة النوع الثانى من ألفاظه قوله :

زهــت هجــر من بعــد مــارث حالهــا
وعــاد اليهــا حســنها وجمــالها

وأضحت تبــاهى جنتى أرض مــأرب
ليــالى بنــو مــاء الســماء حلالهــا

فياحســنها حــين اســتقر قــرارها
وزايلهــا مــا كــان فيــه وبالهــا(٣)

وقوله : رويدا بعض نوحــك يا حمــام
أجــــدك لا تنيــم ولا تنــام

أكــل الــدهــر تــذكــارا ونــوحــا
أمــا فنــى اشــتياقك والغــرام

---

(٢) الديوان ، طبعة الاحساء — ص ٣٩٧ — انظر شرح الكلمات صفحة ٢٢٧ من هذا البحث .

(٣) المصدر السابق — ص ٣٥٩ .

هتفــت فهجت لــى شــوقا فقــل لــى
حمــام أنت ويحــك أم حمــام(٤)

وخلت تراكيب ابن مقرب من التكلف والصنعة ، وجاءت طبيعية تجانب المعاضلة والمعاناة والتعسف ، وتخضع للنسق الطبيعى ، فلا تعقيد ولا التواء ولا غموض ولا اضطراب ، اللهم الا فى القليل النادر، كالتعقيد اللفظى الخفيف فى قوله :

مــازال يجتــاب البــلاد مشــمرا
تشــمير لاوان ولا متحــــير(٥)

فوقوع (لا) فى هذا الموضع أدخل العبارة فى حكم التعقيد اللفظى وهو عند البلاغيين ضرب من ضعف التأليف للجمل • وعــدا ذلك فقد خضعت له التراكيب وانصاعت له الألفاظ ، حتى انها لتكاد تنظم نفسها بنفسها فى سمط لآلئه ، وتأخذ مكانها بين درره وجواهره •

بنــــاء القصــــيدة :

نهج ابن مقرب فى معظم قصائده نهج متقدمى الشعراء وسار على منوالهم ، فهو يبدأ القصيدة بغرض خارجى بعيد عن غرضها الأساسى الذى نظمت من أجله ، ثم ينتقل الى غرض آخر وربما الى أكثر ، حتى ينتهى به المطاف الى التخلص فى براعة وحسن من تلك الأغراض الى الغرض الرئيسى فى القصيدة ، هذا فى معظم قصائده على أنه قد لا يمهد لموضوع القصيدة بأى تمهيد ويبدأ بالغرض المنشــود رأســا وبدون مقدمات •

---

(٤) نفس المصدر — ص ٥٦٢ ، أجــدك : اســتخلاف بالحقيقة . والحمام : الموت .

(٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٣ .

ومثال النوع الأول قوله[٦] :

مــــن ذا أفتـــاك بســـفك دمـــى
يـــا غـــرة حـــى بنـــى جشـــم

فتعــــالى غـــير مدافعــــة
نقصـــص رؤيـــاك عـــلى حـــكم

أبنظــــــر عـــين عــن خطـــــأ
عرضـــت بالعمــــد يـــراق دمــــى

وبعد هذه المقدمة الغزلية يتحدث عن أيام اللهو ويصفها بالحسن ثم يتخلص من كل ذلك الى المدح ببراعة فيقول :

ساوت فى الحسن زمان الملك عماد الدين حيا الأمم
مسعود الخيل نقى الذيل سنى النيل لدى القحم

ومن أمثلة دخوله على الغرض المنشود مباشرة قوله فى المدح :

بنانـــك من معـــذ ودق المـــزن أهطـــل
وباعـــك من رضـــوى وثهـــلان أطـــول

ودارك دار الأمــــن مــن كــل حــادث
ومنزلـــك المعمـــور للمجـــد منـــزل

اذا عـــد أربـــاب النبـــاهة والعـــلى
فأنـــت على رغـــم المعـــادين أول[٧]

وعلى ذلك فان القصيدة لديه ليست وحدة قائمة بذاتها ، وانمـا البيت ــ فى الغالب ــ هو الوحدة ، فالبيت يجىء مســتقلا بذاته عما

(٦) المصدر السابق ــ ص ٥٨٠ .
(٧) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٤٢٧ .

قبله وعما بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب ، كما أن الطابع التقريرى هو الغالب على شعر ابن مقرب ، ولكن تقريريته غير مباشرة •

البـــــديـــــع :

جاء البديع فى شعر ابن مقرب عرضا ولم يقصد اليه قصدا شأنه شأن متقدمى الشعراء أيضا ، هذا على الرغم من أنه عاش فى أوج عصر الصنعة والاحتفال بالمحسنات البديعية يقول صاحب الوساطة: « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء فى الجود والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ،وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لها فى البيت على غير تعمد وقصد » •

ومن ألوان البديع التى جاءت ضمن شعر ابن مقرب « الجناس »، ومن أمثلته قوله :

نفســى الفــداء لمن غــدا رقــى لـــه
رقــا ولــم أسمح بــه لســـوائه[٨]

فالرق الأولى بمعنى الجلد والثانية بمعنى العبودية •

وقولــــه :

ذرينــى لا أبالـــك كيــف يرضـــى
بدار الهــون ذو الحســب النضـــار

---

(٨) الديوان — ص ١٩ .

فظــل الســدر عنــد الــذل أولــى
بأهــل المجــد من ظــل الســـدار[٩]

وكقوله فى الغزل : [١٠]

رويــــدا بعض نوحــك يا حمــام
أحــدك لا تنيــم ولا تنـــام
أكــل الدهـــر تــذكــارا ونـــوحــا
أمــا فنــى اشــتياقــك والغـــرام
هتفــت فهجـت لى شــوقا فقــل لــى
حمـــام أنــت ويحــك أم حمـــام

وقد يأتى بأكثر من تجنيس فى البيت الواحد كقوله :

أدن النجيبــــة للترحـــال وأرخ لهـــا
زمامهـــا ، واخــلط الروحــات بالبــكر
وخطهـــا الخــط ارقـــالا وأول قـــلى
أوال — لا نادما — واهجر قرى هجر[١١]

ويأتى (الطباق) فى شعر ابن مقرب كلون آخر من ألوان البديع ، كما فى البيت الأول من البيتين السابقين (الروحات والبكر) وكقوله فى الحماس :

دع الــدار بالبحرين تعفــو ربوعهـــا
وســقها ولــو لم يبــق الا نســوعها

---

(٩) المصدر السابق — ص ٢١٦ ، النضار : الذهب ، والسدر : شجر النبق والسدار : الحذر .

(١٠) نفس المصدر : ص ٥٦٢ ، والحمام : بالكسر ، الموت .

(١١) الديوان — ص ٢٤٢ ، خلط الروحات بالبكر : أى الدوام على السير ، الخط : التطيف ، والارقال : الاسراع ، والقلى : البغض ، وأوال : جزيرة بالبحرين الآن وهجر : قضبتها .

وخل أحاديث المطامع والمنى
ألا انما أشقى الرجال طموعها

ولا تحسدن فيها رجالا بشبعها
فخير لها من ذلك الشبع جوعها[١٢]

وقوله :

أحق ملوك الأرض بالملك من به
ينال الغنى الراجى وتحمى الحقائق

همام اذا ما هم ضاقت برحبها
مغاربها عن عزمه والمشارق[١٣]

وقد يأتى بأكثر من طباق فى البيت الواحد كقوله :

آليت أنفك من حل ومرتحل
أو أن تقول لى الآمال خذ ودع[١٤]

أما (المقابلة) فقد وردت فى شعر ابن مقرب كقوله :

وصاحبت أقواما ألا ليت أننى
تبدلت زنجا منهم وصقالبا

ظننتهم ظلا ظليلا وجنة
فكانوا سموما يوم صيف وحاصبا[١٥]

---

(١٢) المصدر السابق — ص ٢٥٢ ؛ النسع : سير عريض لشد الرحال .
(١٣) نفس المصدر ، ص ٢٩٨ ، الحقائق : ما يحق عليك أن تحميه .
(١٤) الديوان — ص ٢٧٣ ؛ آليت : حلفت .
(١٥) المصدر السابق — ص ٣٦ — الصقالب : جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر ، والحاصب : الريح الشديدة .

وقولـــــه :

يا ســاكنى الخط والأجــزاع من هجــر
هــل انتظــاركم شـيئا ســوى العطب

بحـحــت مما أناديـــكم وأنــدبــكم
لخـير منقلب عن شــر منقــلب(١٦)

وقولـــــه :

تبـــا لدنيـا كلمـــا وهبــت ثنــت
فاســترجعت منــا نفيس هباتهـــا(١٧)

وقولـــــه :

فمـــا من تنــأى بــه الــدار غائــب
ولا كل من تدنــو به الدار حاضــر(١٨)

وقد كان لثقافة ابن مقرب الاسلامية أثر واضح على شعره تجلى فى اقتباسه من آيات القرآن الكريم كقوله :

ولا تهنوا واستشــعروا الصــبر جنــة
وعزمـــا فمـــا للحــرب الا اعترامهـــا

فانـــكم ان تألمـــوا فعـــدوكـم
كذاك وللأمــر العظيم عظامهـــا(١٩)

---

(١٦) نفس المصدر — ص ٧٥ ، الأجزاع : جمع الجزع وهو منعطف الوادى ، والعطب : التلف . بححت : البحة خشونة وغلظ فى الصوت .

(١٧) نفس المصدر — ص ١١٠ .

(١٨) نفس المصدر — ص ٢١٣ .

(١٩) الديوان : ص ٤٦٣ ، لاتهندا : لا تضعفوا ، جنة : وقاية .

وقولـــــــه :

العـــابد المحيـــى قيامـــا ليـــلة
اذا ناشـــئات الليـــل أقـــوم قيـــلا[٢٠]

وقولـــــــه :

نـــكال لجـــان غـــيرهم فاذا جنـــوا
فبـــرد عليهـــم مـــا جنـــوا وسلام[٢١]

وقولـــــــه :

اذا خـــدم الأمـــوال باعـــت حظـــوظها
من الباقيـــات الصالحات شراها[٢٢]

وقولـــــــه :

محيـــى البـــلاد وقد أشـــفت على جرف
هـــار ومانعهـــا بالبيض والأســـل[٢٣]

ثانيا : المعانى والأخيله :

تتسم معانى ابن مقرب عموما بأنها واضحة تميل الى العمق ولكنها لا تدق دقة الفلسفة ، ولا تغمض غموضها ، الا أن أفكاره ليست ضحلة على كل حال بل تتميز بالبساطة والوضوح ، ومعانيه وأفكاره مستمدة

---

(٢٠) المصدر السابق — ص ٤٠٨ .

(٢١) نفس المصدر — ص ٤٧٥ ، والنكال : العذاب والعقاب .

(٢٢) نفس المصدر — ص ٦٤٦ .

(٢٣) نفس المصدر — ص ٣٨٦ ، الجرف الهارى : ما اكله النهر من أسفل ساحله مبذا مغلقا يوشك أن ينهار ، والبيض : السيوف ،والأســـل : الرمـــــــاح .

غالبا من البيئة التى تنقل خلالها الشاعر ، فهو عندما يكون عابرا الصحراء فى احدى سفراته يتحدث لنا عنها ، فيصفها بأنها مهلكة ومرعبة وأنه يسمع فيها أصوات الجن ، ثم يصف مخلوقاتها من ثعالب وذئاب وسحالى وغير ذلك من مشاهدات[٢٤] ، وعندما يسافر خلال البحر يصف لنا السفينة وصفا موجزا ، ثم يقارن بينها وبين الناقة سفينة الصحراء بشكل بسيط وغير عميق[٢٥] ، أما عندما يكون فى المدن والحواضر فنراه يحدثنا عن العمران الذى أحدثه الممدوح من جوانب ومشاريع وأسواق وغيرها ، وربما وصف بساتين البحرين وأشاد بجمالها وخضرتها[٢٦] .

أما الخيال العميق فى شعر ابن مقرب فلم يكن نصيبه وافرا وقد يكون ذلك بسبب طبيعة الحياة التى عاشها ابن مقرب وما صاحبها من عنت وارهاق فى سبيل استرجاع حقوقه المغتصبة مما صرفه عن اطلاق العنان لخياله والاسترسال فى استخراج الصور المنمقة للتعبير عن معانيه ، ولكن ذلك لا يعنى أنه لم يكن قادرا على ذلك فشعره الذى بين أيدينا يدل فى قوته وجزالته على أن الشاعر يملك من المواهب الشعرية الشيء الكثير ، ثم ان شعره لم يخل من صور خيالية جميلة وان كانت قليلة ، وهذا القليل اعتمد فيه الشاعر على التشبيه والاستعارة والكناية كغيره من الشعراء .

ومن أمثلة (استعاراته) قوله فى المدح :

أخذت بأعضاد العشيرة بعدما
هوت وعلت منها الرؤوس الأسافل

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) انظر الديوان على التوالى ص ٣٩٧ ، ص ٩٨ ، ص ١٨٨ .

وأنقـذتها مـن بعـد مـا لعبـت بهـا
يـد الدهر ، واستولت عليها الزلازل[٢٧]

وقولـــه :

رفعـت عمـاد المجـد من بعد ما وهى
ورث وأضحـى ركنـه وهـو مائـل
وأحييت روح الجـود من بعـد ما قضى
ورد عليـه التـرب حـاث وهائـل[٢٨]

وقولـــه :

وداويت قرحـا كـان فى كبـد العـلى
تبطنـه داء مـن الغـل قاتـل[٢٩]

وقوله فى الفخـر :

فيالـك من مجـد تداعـت فروعـه
ومـال ذراه وانقعـرت أسـافله[٣٠]

وقولـــه :

صـداق المعـالى مشـرفى وذابـل
وسابغة زغف وأجـرد صـاهل[٣١]

(٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) الديوان ص ٣٤٢ ، أخذ بأعضاد العشيرة : قواها وعززهـا .

(٣٠) المصدر السابق — ص ٣٣١ . انقعرت : ستقطت .

(٣١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

وقولـــــه :

فقـلت لهـا والنفـس فى غلوائهــا
تجيش ، وأفــكارى تغــور وتتهــم
ذريـنى فان الحـــر لا يألــف الأذى
وقــد أكثر النسل الجـديل وشدقم(٣٢)

وقوله يهجو قوما بالبخل :

ولــو درهــم يــوما دعــاهم لأقبـلت
رجــال وخيــل تملا الجــو قسطلا(٣٣)

ومن استعاراته الطريفة قوله :

محيــى البــلاد وقــد أشفت على جرف
هــار ، ومانعهــا بالبيــض والأســل
وباعــث العــدل حيــا بعــدما صرخــت
وأعلنــت أمــه بالويــل والثـــكل(٣٤)

وأما أسلوب (الكناية) فلابن مقرب فيه صولات وجولات عديدة، فمن ذلك مثلا قوله يصف جو معركة :

ويــوم يــوارى الشــمس ريعــان نقعه
ويحول قبـل الطـرف فيـه الحمالــق
وتمشــى نســور الجـو فــوق عجاجه
وتبنــى بــه أوكــارهن اللقــالــق

(٣٢) الديوان ص ٤٥١ .
(٣٣) الديوان ص ٣٦٧ .
(٣٤) الديوان — ص ٣٨٦ .

ويكنى عن شدة القتال بقوله :

ولـم يبـق يثنـى من عنـان جـواده
أب لابنـه والمـوت للقـوم خافق[٣٥]

وقوله معبرا عن سرعة حركة الخيل :

أغـارت عـلى درب الحنـائد غـارة
يطـير الحصـا من وقعها والجراول[٣٦]

ويفتخر بعزة قومه فيقول :

ولا يمنعنـى ذاك بيـت بنـاؤه
أنـاف على هـادى الثريا وأشـرفا[٣٧]

وكقولـه :

وفى عـلى عـض الليـالى بقيـة
وان قطعـت من راحتى الأنامـل[٣٨]

فالتعبير فى الشطر الثانى كناية عن قلة المساعد والنصير .

ويكنى عن كثرة كيد أعدائه فيقول :

وأصـفح عن جهـال قومـى حميـة
وان أسرجوا فى هـدم عزى وألجموا[٣٩]

---

(٣٥) الديوان — ص ٣٠٠ .
(٣٦) الديوان — ص ٣٤٥ — الجراول : الأرض ذات الحجارة .
(٣٧) ص ٢٨٩ — أناف : أشرف .
(٣٨) ص ٣٤٧ .
(٣٩) ص ٤٤٩ .

وقوله فى المدح أيضا :

منيع الحمى لا يذعر القوم سرحه
ولا نتقى غاراته بالمآلك[٤٠]

وقوله :

وتبيت جاراته ولم يرفع لها
كسرا بعلة قائل متضلل[٤١]

وقوله :

فلا عدم الاسلام أيامه التى
أقامت بدار المشركين التلهفا[٤٢]

أما (التشبيه) فكثير فى شعره ، وحسبنا أن نورد الأمثلة لذلك ، وسنلاحظ أن معظم تشبيهاته مستمدة من البيئة التى حوله ، فمن ذلك قوله يصف معركة حربية :

ويوم نحس يوارى الشمس عثيرة
حتى يخال الضحى قد غاله الأصل

كأنما البيض راحت وهى مصلتة
فيه بوارق غيث رعده زجل

والسمر قد جعلت تحكى أسنتها
كواكب القذف والفرسان تتصل

---

(٤٠) ص ٣١٠ ، والمآلك : الرسائل .
(٤١) ص ٤١٥ ، والكسر : جانب الخباء .
(٤٢) ص ٢٨٧ — التلهف : التحسر .

والنبـــل فى الجـــو يحـــكى بالمشـــبهه
الكبريت فى روسه النـــيران تشـــتعل(٤٣)

ونلاحظ أن هذه التشبيهات أضفت على وصف المعركة شيئا غير قليل من سرعة الحركة والاضطراب ، فالسيوف فى لمعانها كأنها البرق الذى يسبق المطر ، ورؤوس الرماح كأنها كواكب مقذوفة فى سرعتها ، وطيران النبل فى الجو كأنه الكبريت والنيران مشتعلة فى رأسه .

ومن تشبيهاته الجميلة قوله يصف شجاعة ممدوحه :

ولطـــالمـــا خـــلى الرؤوس كأنهـــا
للبعـــد ساخطة على الأجســـام(٤٤)

وقوله معبرا عن هيبة الخليفة فى صدور أعدائه :

تبيـــت طواغيـــت النفـــاق لهمـــه
كأن حشـــاياها ظهـــور الشياهم(٤٥)

والشياهم هى ذكور القنافذ التى عظم شوكها ، فهؤلاء المنافقون، كأن همومهم قد تحولت الى شوك عظيم يجرح أمعاءهم وأحشاءهم ، فما أبلغه من تشبيه !!

وقد يقوده خياله الى الاتيان بصور تمثيلية طريفة للدلالة على المعنى الذى يريد توصيله للسامعين ، كقوله يصف قوما باللؤم والخسة والبخـــــــل :

يـــرى جـــوادهم العـــافى فتحســـبه
رأى هزيـــرا هريـــت الشـــدق طيـــانا

---

(٤٣) الديوان — ص ٤٤٤ ، العثير : الغبار ، والأصيل : ما بين زوال الشمس الى غروبها .
(٤٤) ص ٥٠١ .
(٤٥) ص ٤٩٥ — الشياهم : العظيم من ذكور القنافذ .

يخـــال ســـائلهم من صـــر أوجههـــم
بالملـــح يعـــرك آنافـــا وآذانـــا(٤٦)

فهؤلاء القوم بلغوا من البخل مبلغا كبيرا حتى أن جوادهم لو رأى سائلا آتيا أصابه الرعب كما لو رأى أسدا عظيما بلغ به الجوع كل مبلغ فاضطرب منه وفزع ، ويخيل لمن يراهم حين يسألهم سائل فينقبضون ويصرون وجوههم ، ان هذا السائل يعرك أنوفهم وآذانهم بالملح لشدة وقع السؤال عليهم ، وهذه كما نرى صورة طريفة دلل بها الشاعر على بخل هؤلاء القوم وشدة لؤمهم .

ومثل آخر فيه تصوير طريف يمثل فيه لأحد المهجوين وشدة لؤمه وخسته بأن المخازى أصبحت بنات له ، وأنه حينما يموت ستصرخ بناته حزنا عليه وتولول لانتصار الحق واندحار الباطل فقال :

متـــى يمـــت تصـــرخ المخـــازى
يـــا أبتـــا واشـــقا اليتيمـــة

بعـــدك حـــلت بنـــا أمـــور
مقعـــــدة للغـــوى مقيمـــــة

راحـــت جيـــوش الضـــلال فوضى
قـــد هزمـــت أســـوأ الهزيمـــة

وأدرك الحـــــق بعـــــد ذل
منـــا بآثـــار المنيمـــة(٤٧)

ونلاحظ طرافة الصورة من حيث تمثيل المخازى بأنها بنات هذا اللئيم ، وبالتصاقها به لدرجة أنه لو مات ، لولوات عليه وندبته كما تندب

---

(٤٦) الديوان ص ٦٠٤ ، هريت : واسع الشدق ، العليان : الجائع .
(٤٧) الديوان — ص ٥٠٦ .

البنات أبيها الميت ، وكيف أن الشاعر صور الحق بالذل فى حياة هـذا الرجل الظالم ، فلما مات ظهر الحق وانمحت المخازى واختفت .

كل هذه المعانى أظهرها الشاعر فى صورة طريفة مبتكرة لم نسمع بها من قبل اذ هى هجاء رثائى أو رثاء هجائى .

وعلى العموم جاءت صور ابن مقرب وأخيلته تقليدية فى الغالب نهج فيها نهج القدماء ، ففيها السيوف والنصال والأسود ونحو ذلك من مألوف التشبيهات .

أهمية شعر ابن مقرب التاريخية :

لديوان ابن مقرب أهمية أخرى لا تقل عن أهميته الشعرية ، فان القارىء لهذا الديوان يخرج منه بفكرة شاملة للحياة السياسية بالبحرين فى ذلك العهد ، كما يمكن للباحث فى شعر ابن مقرب أن يتلمس من خلاله بعض صور الحياة العامة المعاصرة له ، ان شعر ابن مقرب يكاد يكون وحده — بالنسبة لتاريخ الدولة العيونية خاصة وتاريخ الجزء الشرقى من بلاد العرب عامة — هو أحد المصادر المباشرة التى أمدتنا بوصـف كامل للصراع على السلطة والحكم فى تلك الحقبة من الزمن ، وسجل لمعظم الحوادث التى وقعت فى ذلك الجزء ، مما نجزم معه أنه لولا شعر ابن مقرب لضاع ذلك التاريخ أو معظمه .

ومن شعر ابن مقـرب نستخلص فوائد تاريخية دقيقة أهملهـا المؤرخون ولم يتطرقوا اليها من قريب أو بعيد مثل وصفه لمعارك الأمراء العيونيين ، ووصف غارات البدو على مـدن البحرين ، وحـديثه عن الاصلاحات التى أحدثها الأمير باتكين فى البصرة فى ذلك الوقت كقوله :

بنـى بالبصـرة الفيحـاء سـورا
يضـاهى السـد سـبكا وانعقـادا

وأيـــده بمثـــل اللهـــب تأبـــى
علـى الأيـام صـــفته انهـدادا
وزينهـــا بأســـواق أرنـــا
بهـا كـل البـلاد لهـا ســـوادا(٤٨)

ومن ذلك أيضا ذكره لقبيلة (هتيم) فى معرض الضعة والتحقير ، والكتب القديمة التي بين أيدينا لا تمدنا بما نحتاج اليــه من معلومات كافية عن هذه القبيلة ، بل لا تذكر حتى اســمها ، ولكن ابن مقــرب وابن المشد من شعراء القرن السابع ذكراها .

يقول ابن مقرب :

وكيف مقـــامى بـــين أوباش قـــرية
أرى الرأس منهـــا من بها كان أســـفلا
بنـــى عم من أمســـى كثـــيرا ســـوامه
ولو كان أدنـــى من (هتيم) وأرذلا(٤٩)

وعرض ببعض عاداتها الذميمة فى مكان آخر فقال :

فان (هتيمـــا) لو حـــوت مـــال طـــيىء
(هتيم) ، فـــلا يغـــررك طيف خيـــال
ســـترجع فيمـــا عـــودت مـــن حمـــيرها
وتحـــريق « اشـــنان » وخصف نعال(٥٠)

ولا تزال بعض أحياء هتيم معروفة عند قبائل العرب بالخمــول وسوء القدر وضعة الحال وبالتقهقر الاجتماعى والمعيشى ، وتبرز لنـــا

---

(٤٨) الديوان — ص ١٨٨ ، السد : المراد به سد يأجوج ومأجوج الذى بناه ذو القرنين . وصفته : حجارته المصفوفة .
(٤٩) الديوان — ص ٣٦٤ ، والسوام : الابل والمقصود هنا المال .
(٥٠) المصدر السابق ص ٣٧٥ ، والاشنان : نوع من الشجر .

هذه الأهمية التاريخية لشــعر ابن مقرب حينما نرى أحــد الباحثين المعاصرين يستعين بشعر ابن مقرب حينما يتحدث عن قبيلة (هتيم) فيقول :[٥١] (ولا نجد فيما بين أيدينا من الكتب ذكرا يوضــح لنــا ما نحتاج توضيحه عن هذه القبيلة) ويقول : كما نجد فى شعر ابن مقرب المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ••• ثم يورد البيتين السابقين لابن مقرب •

ومن ناحية أخرى نعرف من خلال شعر ابن مقرب بعض أنواع اللبس والأكل المستحبة وغير المستحبة فى زمنه فيقول :

ومن (مــروذى) بالقطيــف و (لالس)
(عبــاء) بوادى طــىء و (نطوعهــا)

ومن لحم (صاف) فى أوال و (كنعــد)
(ضباب) و (جرذان) كثير خدوعها[٥٢]

واحتفظ لنا شعر ابن مقرب ببعض المسميات السائدة فى زمنــه لبعض المواقع ، وان ذكره لأسماء كثير من الأمكنة والمواضع فى زمانه لما يساعد على تحقيق المواقع الجغرافية ومعرفة مدى التقدم العمرانى، وخاصة ما كان فى البحرين وساحل الخليج العربى •

فمن ذلك قوله يصف غارات البدو على الاحساء وما ألحقوه بها من أضرار ونكبات :

أخذوا (الحساء) من (الكثيب) الى (محا
ديث العيــون) الى نقــا (حــلوان)

---

(٥١) مجلة العرب ــ دار اليمامة بالرياض ربيع الأول ــ ص ٨٦١ .

(٥٢) الديوان ــ ص ٢٥٥ ــ مروزى : ثوب منسوب الى (مرو) وهى بلدة بفارس ، واللالى : جنس ناعم من الثياب ، والنطع : ثوب يصنع من الجلد ، الصافى والكنعد : صنفان من السمك الجيد فى الخليج العربى ، خدع الضب فى حجره ــ دخله .

و (الخط) من (صفواء) جازوها فمـا
أبقـوا بهـا شـبرا الى (الظهـران)

والبحـر فاسـتولوا على مـا فيـه من
صـيد الـى در الـى مرجـان

وأمـض شـىء للقـلوب فضـائع
« بالمرزوان » لهـم و « كرزكان »[٥٣]

وقال فى معرض افتخاره بالأمير فضل بن عبد الله بن على :

منـا الذى حـاز من (ثاج) الى (قطر)
وصير (الرمل) من مال العدو حمى[٥٤]

وقال :

يا ساكنى « الخط والجرعاء » من «هجر»
هـل انتظاركم شيئا سوى العطب ؟[٥٥]

وورد فى شـعره ذكر بعض عيون الاحسـاء ، ومن ذلك عـين (الجوهرية) المعروفة فقال :

فخـير لعمـرى من بسـاتين (مرغم)
على ذى المجارى طلح « نجد » وشوعها

ومن مـاء نهر « الجوهرية » لـو صـفا
ذبابـة حسـى لا يرجـى نبوعهـا[٥٦]

---

(٥٣) المصدر السابق ص ٦٣٨ ما بين الأقواس كلها أسماء مواضع بالبحرين .
(٥٤) الديوان — ص ٥٤١ — ما بين الأقواس أسماء مواضع .
(٥٥) ص ٧٥ ، العطب : التلف .
(٥٦) ص ٢٥٤ ، الذبابة : بقية الشيء ، والحسى : سهل من الأرض ، يستنقع فيه المـاء .

ومن أسماء الأمكنة والمواضع الواردة فى شعره فى غير الخليج العربى :

منا الذى صحب المجتاز من « حلب »
الى العراق ، الى نجد الى « أدما »(٥٧)

وقال يفخر بعشيرته :

أطاعت لهم ما بين «مصر» الى «القنا»
الى حيث تلقى دارها «الشحر» و «النقب»(٥٨)

وقال :

ولو نام سيف « بالحصيب » ولم يلج
على الهول لم يدع المليك المجدا
ولم ينشع الأحبوش كأسا مريرة
ويجمع فى « غمدان » شملا مبددا(٥٩)

وقال فى أحد مطالعه :

ألا رحلت نعم وأقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان(٦٠)

---

(٥٧) ص ٥٤٨ — أدم : موضع فى عمان .

(٥٨) ص ٢٩ — القنا : موضع باليمن ، الشحر : ساحل بين عمان وعدن ، والنقب : بلدة باليمامة .

(٥٩) ص ١٥٣ — وسيف : هو سيف ابن ذى يزن ، والحصيب موضع باليمن ، ينشع : ينزع ، الاحبوش : الاحباش وغمدان : قصر بصنعاء .

(٦٠) الديوان — ص ٥٨٥ ، نعمان : اودية قرب الكوفة .

وقــــال :

أمن دمنــة بــين اللــوى والدكـــادك
شغفت بتذراف الدمــوع الســوافك[٦١]

وقــــال :

مــلك تحمــل مــا لا يســتطيع لـــه
حمــلا « ثبير » و « ثهلان » فيحتمل[٦٢]

وقال فى العتاب :

فخبــر من الاحســـاء ان دام عتبــكم
« أشــىء ووادى » ماهم « ونعام »[٦٣]

وقال فى المدح :

يهز حســاما صــارما لو رمــى بـــه
شماريخ«رضوى» لا نزوى عنهضابه[٦٤]

مآخــذ على شــعره :

مع ما قلناه عن شعر ابن مقرب وما فيه من جودة اللغــة ومتانة الأسلوب وجزالة الألفاظ فانه مع هذا قد تعتوره بعض الهنات ولكنها هنات هينات ، فهى لا تضيره ولا تنال من شاعريته عــلاوة على كونها قليلة ومعدودة ، وكفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه كما قيل •

(٦١) ص ٣٠٥ ـ والدكادك : الغليظ من الأرض .
(٦٢) ص ٤٤٣ ـ وثهلان وثبير : اسم جبلين .
(٦٣) ص ٤٨٠ ـ ما بين الأقواس اسماء مواضع باليمامة .
(٦٤) ص ١٠٢ ـ شماريخ الجبل : أعلاه ، ورضوى : جبــل بين المدينة وينبع .

وهذه الهنات أو المآخذ منها ما يتنافى مع مفهوم الفصاحة ، ومنها ما يخالف القواعد العامة فى النحو والصرف ، ومنها ما لا تقره أصول علم القافيـــة .

من هذه الأخطاء مثلا قول الشاعر :

والبصــرة الفيحـــاء لا تتخــافــن
عنهـــا ، ولا تتجاوزنهــا ميـــلا[٦٥]

فادخال نون التوكيد على هذا البيت مرتين هو من دأب النظامين من العلماء والنحاة لا الشعراء .

وكقولـــــه :

فبحـــرك للـــوراد ذو متغطمــط
وربعــك للوفــاد ذو ســعة رحــب[٦٦]

فكلمة (متغطمط) عسيرة على النطق والمخرج ، ثقيلة على السمع واللســـــان .

ومثلها كلمة (محبنطئا) — أى ممتلىء غضبا — فى قوله :

فــلا تقعــدن محبنطئا خــوف ميتـــة
ستأتى ، فمــا تلقى جــوادا مخلدا[٦٧]

ومن مبالغاته فى المدح قوله :

لــولا النبـــوة بالنبـــى محمـــد
ختمت ، لقلت أرى نبيــا مرســـلا[٦٨]

---

(٦٥) الديوان — ص ٤٠٧ .
(٦٦) ص ٣٥ — متغطمط : متحرك مضطرب .
(٦٧) ص ١٥٢ .
(٦٨) ص ٤٢٥ .

على أن أمثال هـذه المبالغات يمكن حملها على القاعدة النقـدية المعروفة عند العرب وهي : أجود الشعر أكذبه .

وكالاقواء فى قوله :

أنـخ فهـذى قبـاب العـز والـكرم
وقـل فـكل العـلا فى هذه الخيم(٦٩)

فحرف الروى كما نرى جاء بالكسر ، ولكن الشـاعر ما لبث أن تحول عن الكسر الى الضم وذلك فى البيت الرابع والأبيات الثلاثة التى تليه فقـال :

هـم المـلوك وسـادات الملـوك همـم
ومـا ربـى المـلك الا فى بيوتهـم
وقـد نزلـت بأسـراهم وأنبـاهم
عـلى سـراواتهم فينـا ونبـلهم
فانظـر بعينـك هـذا فهـو سـيدهم
طـرا وسـيد عدنـان وغـيرهم
هـذا الهمـام عمـاد الدين أكـرم من
يدعـى ويرجـى وخير الناس كلهم(٧٠)

ثم عاد الى الروى المكسور واستمر عليـه حتى البيت الخامس والخمسين حيث جاء الروى فيه مضموما ، وبعده عاد مرة أخرى الى الروى فاستمر عليه حتى نهاية القصيدة .

ومهما يكن من شىء فان هذه المؤاخذات لا تؤثر شيئا فى شـعر ابن مقرب ، وقل أن يخلو شاعر من مآخذ تؤخذ عليه .

---

(٦٩) ص ٥٥٤ — قل وقت القيلولة .
(٧٠) الديوان — ص ٥٥٥ — ربى الملك : زاد وعلا .

آراء النقــاد فى شعره :

لابن مقرب كشاعر منزلة رفيعة فى نفوس الأدباء والنقاد قدامى ومحدثين ، فمن النقاد القدامى :

(أ) (ابن ماكــولا) : الذى وصــف ابن مقــرب بأنه شــاعر محسن(٧١) .

(ب) كما وصفه بعض المتقدمين بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره ، حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمــه كثير الأمثال فى نظمه)(٧٢) .

(جـ) وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شــاعرا مجيدا مليــح الشعر)(٧٣) .

(د) وقال عنه ابن الفــوطى : (كان شــاعرا مســترفدا جزل الألفاظ)(٧٤) .

(هـ) وقال عنه ابن الشعار الموصلى : (كان شاعرا مجددا منتجعا، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهر فى عصرنا المعروفين) .

أقر له الحذف أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ ، وابداع المعانى(٧٥) .

---

(٧١) الاكمال — لابن ماكولا .

(٧٢) نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية — رقم ٦٣٧ تاريخ .

(٧٣) التكملة لوفيات النقلة — عند سرد وفيات ٦٢٩ هـ .

(٧٤) تلخيص مجمع الآداب — لابن الفوطى .

(٧٥) قلائد الجمان فى شعراء الزمان — لابن الشعار الموصلى .

(و) أما ياقوت الحموى : فقد أورد فى ترجمته لابن مقرب شيئا من شعره ثم قال :

وليســت بالطايل عندى (٧٦) .

ومع احترامنا لياقوت كجغرافى الا أننا نختلف معه فى رأيه الأدبى فى شعر ابن مقرب ، فان كل من قرأه شهد له بالتفوق والسبق وبالحسن والجودة ، وعلى كل حال فكل انسان له رأيه ، وان كان ياقوت لم يعلل لرأيه الذى قال به .

أما النقاد المحدثين فقد أجمعوا على جــودة شــعره ووضعه فى منزلته الصحيحة .

١ — فمنهم د. محمد جابر الانصارى : الذى وصف ابن مقرب بأنه ظاهــرة فريدة فى عصره ، ووصف شــعره بالحيــوية والصراحة والقوة(٧٧) .

٢ — أما الأديب المحقق عبد الفتاح الحلو فقد وصف ابن مقرب بالنبوغ وبأنه شاعر ذائع الصيت فى الجزيرة العربية(٧٨) .

٣ — وقال عنه الباحث عمران العمران : ان ابن مقرب كان بعثــا للشعر ويقظة للأدب وحيوية للغة ، وان انتاجه الجيد يرفعه الى مصاف كثير من أعيان الشعر العربى وفحوله(٧٩) .

٤ — أما الأديب « مقبل العيسى » : فيصف انتاج ابن المقــرب الشعرى بالوفرة وبأنه بلغ المستوى الرفيع من الجودة التى تؤهله لأن يكون مشهورا منذ زمن بعيد(٨٠) .

---

(٧٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان — جـ٦ ، ص ٢٥٩ .
(٧٧) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ٣١ .
(٧٨) عبد الفتاح محمد الحلو — ديوان ابن المقرب — طبعة الاحساء ص ٣ .
(٧٩) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ٦ .
(٨٠) مجلة البيان الكويتية — العدد ٣٧ — ابريل ١٩٦٩ .

٥ — ويقول الباحث الأديب « درويش المقــدادى » : انه على الرغم من عدم شهرة ابن المقرب الا أنه من أعظم شعراء الخليج العربى، وهو يشابه المتنبى فى الروح الشعرية ، وخصوصا فى الفخر والحماس والمطالبة بالحق[٨١] .

٦ — أما الأديب المؤرخ « محمــد سعيد المســلم » فيقول : ان ابن مقرب نظم الشعر فى سن مبكرة ، وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، وبعد أن يقارن الباحث بين سيرة ابن مقرب وسيرة المتنبى ، يصف شعر ابن المقرب بأنه ثروة أدبية [٨٢] .

ويكفينا هذا القدر من آراء النقاد والأدباء قدامى ومحدثين لاظهار مكانة ابن المقرب ، ومنزلته الشــعرية فى النفوس ، مما جعــل الناس يرددون أشعاره ويتداولونها بينهم على الرغم من مرور فترة طويلة من من عمر الزمن على وفاة الشاعر ، وليس تعدد طبعات ديوانه الا الدليل الأكبر على ذلك .

---

(٨١) مجلة العربى — الكويت ، عدد ابريل ١٩٦٠ .
(٨٢) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود — ص ٢٧٦ — طبعة بيروت ..

الفصل السادس

« بين المتنبي والعيوني »

باديء ذي بدء أود أن أبين السبب الذى دفعنى الى عقد هــذا الفصل وموازنة المتنبى بالعيونى ، ذلك أنى رأيت كثيرا ممن كتبوا عن ابن مقرب شبهوا شعره بشعر المتنبى وقارنوا سيرة حياته بحياة هــذا الشاعر العظيم .

فمنهم مثلا د. محمد جابر الأنصارى ، الذى يقول عنه : « وتراه فى معظم أشعاره قوى العاطفة ، متوقد الفكر ، جزل الأسلوب ، ينتمى الى الطبقة الوسطى من شعراء العربية ، فكأنه أبو الطيب المتنبى فى ثورته وصراحته وفى نفسه الشعرى المتين »[1] ويقول الباحث مقبــل العيسى : « ان ابن مقرب لم ينل حظا من الشهرة مثل غيره من الشعراء الذين عاصروه فى الأقطار العربية الأخرى ، أو الذين عاشــوا بعده ، بالرغم من وفرة انتاجه الشعرى وبلوغه المستوى الرفيع من الجــودة والأصــالة ، فمن يقرأ ديوانه يتذكر بعض الشعراء الذين ملأوا سمع الدنيا دويا كأبى الطيب المتنبى .. »[2] .

وقال عمران العمران : « ان لابن مقرب ولا غرو بعض قصــائد ومقطعات لا تقــل فى أهميتها وفى قيمتها الفنية والموضــوعية عن بعض قصائد أبى الطيب المتنبى .. »[3] .

أما عن سيرة حياة الشاعرين وتشابههما الى حد ما فقال الباحث درويش المقدادى : « وهو — أى ابن مقرب — يشبه المتنبى من هذه الناحية ، المتنبى حاول بشعره وأسفاره واتصاله بأمراء مصر والشام

---

(١) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى ص ٣٣ .
(٢) مقبل العيسى — مجلة البيان — عدد ٣٧، ابريل ١٩٦٩ — الكويت.
(٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ، ص ٧ .

أن يكون ذا ولاية وملك فلم يفلح ، كذلك فعل ابن المقرب بالخليج العربى والعراق فلم يحقق أمنيته »[٤] وكتب الأديب محمد سعيد المسلم مقارنا سيرة حياة الشاعرين ببعضهما قائلا : « وسيرة الشاعر ابن المقرب تشابه الى حد كبير سيرة أبى الطيب المتنبى ، كلاهما طموح للملك ، حاول ابن المقرب الوصول الى الملك فى وطنه فأبعده أقاربه ، فسجن وصودرت أملاكه ، كما حاول المتنبى التوصل الى الملك بادعائه النبوة فوشى به وسجن ، ولما أطلق سراحه حاول الوصول الى غاياته عن طريق الشعر ، فوفد على سيف الدولة الحمدانى فمدحه دون طائل ، فجافاه ، وقصد كافور الأخشيدى ملك مصر ، وعقد عليه الأمل فى تحقيق آماله فلما فشلت هجاه ، كذلك كان ابن المقرب حين أطلق سراحه حاول الوصول الى غاياته عن طريق الشعر ، فطاف بأنحاء البلاد ، ومدح أمراءها ، كما حاول الاتصال بالملك الأشرف ، وانتهى به المطاف الى أمير الموصل الذى كان مملوكا أرمنيا فمدحه ، فلما لم ينل منه مبتغاه عمد الى هجائه »[٥].

وكما نلاحظ فانما ذكره هؤلاء الأدباء والنقاد انما هو اشارات خاطفة عابرة ونظرات بسيطة لم يتعمقوا فيها ولا تشبع نهم الدارس . لذلك اتخذتها مفتاحا للتفصيل فى الموازنة بقدر الامكان ، ورأيت أن الواجب العلمى يحتم على عقد مقارنة فيها شيء من التوسع بين الشاعرين لبيان أوجه الشبه بين سيرة حياتهما وموازنة بعض ما اشتهروا به من أغراض شعرية علنى بذلك أخرج بجديد يفيد الدرس الأدبى .

ولقد أعلم أن هذه الموازنة بين المتنبى والعيونى — لكى تكون أصيلة قويمة — ينبغى على الأقل أن تقوم على دراسة مفصلة لشعر المتنبى والبيئة التى عاش فيها ، ومعنى ذلك أن أنهض بأعباء دراسة أخرى لشاعر آخر توازى دراستى لابن مقرب لأستطيع أن أعقد هذه

---

(٤) درويش المقدادى — مجلة العربى ، عدد ابريل ١٩٦٠ الكويت .

(٥) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود ، ص ٢٧٦ .

الموازنة على أساس من الدرس الشخصى الذى أنهض به ، والواقع أن ذلك عسير ، لأنه من جهة يستنفد الكثير من الوقت ، ومن جهة أخرى فان طبيعة الموازنة التى سأعقدها هنا تقوم على الايجاز والاختصار وليس على الاستطراد والتطويل ، ثم ان التعاون بين الدارسين والباحثين من جهة ثالثة يعفينى من المبالغة وعناء الدراسة ، اذ الواقع أن الباحث يمكنه بل يجب عليه الى حد ما أن يعتمد على النتائج العلمية المقررة التى انتهى اليها غيره من المختصين فيما يتصل بموضوعه ثم يضع بجانبها أو يربط بها ما انتهى هو اليه من بحثه الخاص ، وهنا تبدو النتائج العلمية متكاملة منسقة ، وعلى هذا الأساس أتقدم للموازنة بين المتنبى والعيونى ، فما أكثر الدراسات والأبحاث التى كتبت عن المتنبى ، فهو الشاعر الذى يوصف بأنه قتل بحثا ، وهذه الدراسات والأبحاث الكثيرة لها نتائج ومقررات يمكننا أن نطمئن ونرتاح اليها .

أولا : حياة الشاعرين

أبو الطيب المتنبى : (٦)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندى ، ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة تسمى كنده فنسب اليها ، ويقال ان والده كان سقاء بالكوفة ، وأنه رحل بابنه الى الشام فشب فيها مولعا بفنون اللغة ، حريصا على طلبها ، ساعيا الى أهلها فى البادية والحضر حتى نال منها أوفر نصيب وينسب لأبى الطيب أنه ادعى النبوة فى بادية « السماوه » ، فأغوى كثير من قبيلة « بنى كلب » وغيرهم ، حتى خرج اليه لؤلؤ أمير «حمص» من قبل الأخشيديين ، فأسروه ، وفرق أصحابه ، وحبسه طويلا حتى تاب فأطلقه ، وفى سنة ٣٣٧ هـ ، اتصل ببلاط سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وظل يمدحه سنوات بأبدع الشعر وأروعه ، فيكافئه بأعظم العطايا والمنح ، حتى وقعت بينهما جفوة قضت على الشاعر أن يفارقه الى دمشق ، والرملة فمصر ، وقد دخلها سنة ٣٤٦ هـ ، واتصل بواليها كافور ، ومدحه طمعا فى أن يوليه احدى الامارات ، ولكن كافورا خيب ظنه حين رأى طموحه وسعة آماله ، فحنق عليه المتنبى وهجاه أشنع الهجاء ، وفر غاضبا سنة ٣٥٠ هـ الى بغداد مقر الخليفة العباسى ، فلم تطل بها اقامته اذ تمالأ عليه حساده ومنافسوه من الشعراء والأدباء ، وائتمروا به ، فتظاهر أول الأمر باحتقارهم وعدم المبالاة بهم ، ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغداد ، وقصد الكوفة ثم « أرجان » حيث ابن العميد الأديب العالم المشهور وزير ركن الدولة ، فأقام عنده فترة كانت من أطيب فترات حياته ، ولقى من عطفه ورعايته ما أنساه كثيرا من متاعبه ، ثم غادرها الى « شيراز » قاصدا أميرها الديلمى « عضد الدولة بن بويه » فأغدق عليه وأرضاه بالعطايا الكثيرة ، ثم اشتاق الى بلاده فاستأذنه فى العودة فأذن له ، فاتجه الى بغداد ثم

---

(٦) العكبرى ج ١ ، ويتيمة الدهر .

الكوفة ، وفى طريقه اليها قابله رجل يقال له « فاتك الأسدى » فى جماعة من أصحابه (وكان المتنبى هجا أخته أقذع هجاء وأفحشه ، فحقد عليه فاتك وأسرته وأضمر له الشر حتى حانت هذه الفرصة ، فخرج عليه وقتله وقتل ابنه محسد وغلامه مفلح وأخذ جميع ما معه وفرق أصحابه، وكان ذلك فى رمضان سنة ٣٥٤ هـ ، بالقرب من موضع يقال له «الصافيه» بالجانب الغربى من بغداد عند « دير العاقول ») .

وبمقارنة سيرة المتنبى بسيرة ابن المقرب[٧] يتضح لنا أوجه الشبه بينهما فيما يلى :

(أ) كلا الرجلين صاحب طموح وهمة عالية واعتداد بالنفس وتبعا لذلك فان كلا منهما حاول الوصول الى الملك والامارة، فلما لم يفلحا حاولا الوصول الى غايتهما عن طريق الشعر .

(ب) مدح المتنبى كافورا عله يصل الى مبتغاه ، لكنه فشل فهجاه هجاء مقذعا ومدح ابن مقرب ، أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فلما لم ينل منه ما يريد هجاه أيضا .

(ج) كلاهما عاش حياة غير مستقرة ، وأكثرا من التنقل من مكان الى مكان بغرض مدح الملوك والأمراء ، وكانت حياتهما أشبه بسلسلة من الرحلات التى لا تنقطع .

(د) كلاهما نقم على الحياة وعلى الناس وصرحا بذلك فى شعرهما. قال المتنبى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

---

(٧) راجع حياة الشاعر ص ٣٣ من هذا البحث .

فـــليس بمرحـــــوم اذا ظفـــــروا بـــه
ولا فى الردى الجــارى عليهـــم بآثم[٨]

وقال ابن مقرب :

واعص الذليـــل اذا أشـــــار ولا تثـــق
فى الـــكائنات بـــكل مـــن تســـتصـــحب

واعـــــلم بـــأن النـــاس قـــد جربتهـــم
فاذا صـــحيح الـــود منهـــم عقـــرب[٩]

---

(٨) ديوان المتنبى ص ٢١٠ ؛ طبعة صادر بيروت .

(٩) ديوان ابن المقرب ص ٩٠ .

ثانيا : الناحية الشعرية

أما ناحية الشعر فسأحاول أن أكشف عن وجوه الشبه بينهما فى الأغراض الشعرية والنواحى الفنيـــة التى تقرب بينهمـــا وتربط بين اتجاهيهما فى هذا المجال •

١ ــ الحـــــكمة :

وصف القدماء المتنبى بأنه حكيم ، اذ لا تكاد تخلو قصيدة له من حكمة ومثل ، بل حكم وأمثال ، وهذه الحكمة فى معظمها توحى بالقوة بل وتطالب بها ، وبالعنف والشدة فى ادراك الغايات واسترجاع الحقوق ، ودفع المظالم ، ولا ترى فى هذا السبيل ملاينة ومسالمة ، ولا تجنح الى مهادنة وصفح ، كل ذلك مصوغا فى قالب رصين ، متين الأداء ، قــوى السبك ، مما أدى الى شيوع هذه الحكمة وتداولها على الألسنة فى كل مكان وزمان •

يقول المتنبى :

عش عــزيزا أو مــت وأنــت كـــريم
بــين طعــن القنــا وخفــق البنـــود

فرؤوس الرمــاح أذهـــب للغيـــظ
وأشــفى لغــل صــدر الحقـــود

لا كمــا قــد حييــت غــير حميـــد
واذا مــت مــت غــير فقيـــد

فاطلب العـــز فى لظــى وذر الـــذل
ولــو كــان فى جنــان الخلـــود(١٠)

---

(١٠) ديوانه ــ طبعة صادر ص ٢١ . البنود : الأعلام ، الغل : الحقد، لظى : جهنـم .

٢ — ومن قصيدة له فى المدح يقول :

لا افتخـار الا لمـن لا يضـام
مـدرك ، أو محـارب لا ينـام

لبس عـزما مـا مـرض المـرء فيـه
لبس همـا مـا عـاق عنه الظـلام

واحتمـال الأذى ورؤيـة جانيـه
غـذاء تضـوى بـه الأجسـام

ذل مـن يغبـط الذليـل بعيـش
رب عيـش أخـف منـه الحمـام

كـل حـلم أتـى بغـير اقتـدار
حجـة لاجـىء اليهـا اللئـام

مـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه
مـا لجـرح بميـت ايـلام(١١)

٣ — ومن قصيدة له فى الهجاء نرى له الحكم التالية :

ولقـد رأيـت الحادثـات ، فـلا أرى
يقعـا ، يميـت ، ولا سـوادا يعصـم

والهـم يختـرم الجسـيم نحافـة
ويشـيب ناصيـة الصـبى ويهـرم

ذو العقـل يشـقى فى النعيـم بعقـله
وأخـو الجهـالة فى الشـقاوة ينعـم

(١١) ص ١٦٤ ، مرض بمعنى قعد ، الهم : حديث النفس ، تضوى ، تهـزل .

والنـاس قـد نبذو الحفـاظ فمطـلق
ينسى الذى يـولى وعـاف ينـدم

لا يخدعنـك مـن عـدو دمعـه
وارحـم شبابك مـن عـدو تـرحم

لا يسـلم الشـرف الرفيـع من الأذى
حتـى يـراق عـلى جوانبـه الـدم

يـؤذى القليـل من اللئـام بطبعـه
من لا يقـل ، كمـا يقـل ويلـؤم

والظـلم من شـيم النفوس فـان تجد
ذا عفـة فلعـله لا يظـلم(١٢)

٤ ــ ومن قصيدة فى المدح يقول :

من الحلم أن تسـتعمل الجهـل دونـه
اذا اتسـعت فى الحـلم طرق المظـالم

وأن تـرد المـاء الـذى شـطره دم
فتسقى ، اذا لم يسـق من لم يزاحـم

ومـن عـرف الأيـام معرفتـى بهـا
وبالناس ، روى رمحـه غـير راحـم

فليـس بمرحـوم اذا ظفـروا بـه
ولا فى الردى الجـارى عليهـم بآثم(١٣)

---

(١٢) ديوانه ــ ص ٥٧٠ ، اليقق : البياض ، ويقصد به بياض الشعر ، يخترم : يهلك ، نبذوا : طرحوا ، الحفاظ : المحافظة على الحقوق ، العافى: من العفو . القليل : الخسيس .

(١٣) ص ٢١٠ .

٥ ـ ومن قصيدة فى مدح سيف الدولة جاءت فيها حكم كثيرة متفرقة :

ومن صحب الدنيا طويلا تقابت
على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ومن تكن الأسد الضوارى جدوده
يكن ليله صبحا ، ومطعمه غصبا

ولست أبالى بعد ادراكى العلا
أكان تراثا ما تناولت أم كسبا

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه
حريصا عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفسى أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ويختلف الرزقان والفعل واحد
الى أن يرى احسان هذا لذا ذنبا(١٤)

ومن حكمه الأخرى :

كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول ، وباقى عمره مثل ذاهب

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله
فما الذى يغنى كرام المناصب(١٥)

---

(١٤) ديوانه ص ٣٢٥ .

(١٥) ص ٢٢٦ النسيب : الشريف ، المناصب : الأصول .

وقولـــــه :

وكـل امـرئ يولــى الجميــل محبب
وكــل مـكان ينبـت العــز طيـب[١٦]

ابن المقـــــرب :

عاش ابن مقرب حيـــاة صعبة مريرة حافـــلة بالتجارب والمواقف العسيرة أكسبته كثـير من التجارب والحنكة ، لذا فقد انثالت أبيـات الحكمة على لسانه سلسة فياضة معبرة عن خلاصة تجارب صاحبها فى الحياة وفى معاملة الناس ، وهى من الناحية الفنية قوية الصياغة جيـدة السـبك .

ولنسمع له وهو يقول :

من ســالم النــاس لم تسـلم مقـاتله
منهم ومن عـاث فيهـم بالأذى سـلما

لا يقبـل الضـيم الا عاجـز ضــرع
اذا رأى الشـر يغـلى قـدره وجمـا

وذو النبــاهة لا يرضــى بمنقصـــة
لو لـم يجـد غـير أطراف القنا عصما

وذو الدنـــاءة لـو مزقــت جـــلدته
بشــفرة الضـيم لم يحسس لهـا ألمـا

ومن رأى الضـيم عـارا لم تمـر بـه
شـرارة منـــه الا خالهـــا أطمـــا
وكـل مجـد اذا لـم يـبن محتــده
بالبأس نقـرة الأعـــداء فانهدمـا

---

(١٦) ص ٤٦٨ .

لا يضبط الأمـر مـن فى عـوده خـور
ليس البغاث يسـاوى أجـدلا قطما(١٧)

٢ — وهذا ما عرفه ابن مقرب بعد مخالطة الناس :

ولقـد حلبـت الدهـر أشـطر نابـه
وعرفـت مـا يبـدى ومـا يتغيـب
فاذا مـودة كـل مـن أصـفيته
ودى لـدى الحاجـات بـرق خلب(١٨)

٣ — وقولـه :

لا تركـنن الـى العـدو ولا تطـع
آراء من فى حبـل غـيرك يحطـب
واعص الذليـل اذا أشـار ولا تثـق
فى الـكائنات بـكل مـن تسـتصـحب
واعـلم بأن النـاس قـد جربتهـم
فاذا صـحيح الـود منهم عقـرب(١٩)

٤ — وعن رأيه فى أهمية المال للانسان يقول :

ألسـت تـرى أن المقـل بمجـه
أخـو الرحم القـربى وتبـدو معايبـه
اذا المـرء لـم يمـلك من المـال ثروة
رمتـه عـداه واجتـوته أقـاربـه
ومن يجعـل العجـز المطيـة لـم يـزل
يمر عليـه الدهـر والفقـر صـاحبه
فقـم واركب الأهـوال جـدا فطالمـا
أفـاد الغنى بالمركب الصـعب راكبه(٢٠)

---

(١٧) ص ٥٢٧ وسبق شرح الكلمات فى ص ١٨٧ .

(١٨ ، ١٩ ، ٢٠) انظر شرح الأبيات ص ١٩١ من هذا البحث .

٥ — وأخيرا فان ابن مقرب يلخص لنا رأيه فى كثـير من مفاهيم الحياة حسب تجربته :

العـز مـا خضـعت لهيبتـه العـدا
وأقـام بالفـكر المـلوك وأقعـدا

والمـال مـا وقـاك ذما أو بنـى
عليـاك أو أبقـى لقـومك سـؤددا

والجـود مـا بلت بـه رحـم ومـا
أوليـت ذا أمـل أعـدك مقصـدا

واللـؤم اكـرام اللئيـم لأنـه
كالذئـب لـم يـر عـدوة الا عـدا

والعـزم مـا تـرك الحـديد مفلـلا
والخيـل حسـرى والوشـيج مقصـدا

والنبـل فتـكك بالمعـادى غـادرا
أو وافيـا مستنجـدا أو منجـدا(٢١)

وبالنظر الى غرض الحكمة عند الشاعرين يتضح لنا ما يلى :

— كلاهما يؤمن بطريق القوة والسيف ، وترك اللين والمسالمة •

— أن حياة العز هى الحياة ، وما عداها فهو الموت والذل •

— أن المجد لا يحفظ الا بالسيف والا تداعى وانهار •

— ومع أنهما يشتركان فى ترديد هذه المعانى دائما ، الا أن الأسبقية فى ذلك للمتنبى دون شك وما توالى حكم ابن مقرب الا ترديد لمعـانى

---

(٢١) ص ١٦٧ — وانظر شرح الكلمات ص ١٩٢ من هذا البحث .

للمتنبى فى كثير منها ، حتى أنه يبدو تأثر ابن مقرب بالمتنبى فى كثير من معانيه الحكمية ، فقوله :

وذو الدنـــاءة لـــو مزقـــت جـلدتــه
بشفرة الضــيم لــم يحسس لها ألمــا

يشبه قول المتنبى :

مــن يهــن يســـهل الهـوان عليـــه
مــــا لجـــرح بميـــت ايـــلام

وقولـــــه :

وكـل مجـد اذا لـم يـبن محتـــده
بالبـأس نقـره الأعـداء فانهـدما

يشبه قول المتنبى :

لا يســـلم الشـرف الرفيع من الأذى
حتـى يـراق عـلى جوانبـه الـــدم

وغـــير ذلــك •

ــ وأخيرا فلا شك ــ كما لاحظنا ــ أن الروح الشعرية أقوى عند المتنبى ، ويبتدى ذلك فى قوة سبكه واحكام صياغته •

٢ ــ الفخــر بالنفس :

أكثر كل من الشاعرين من الافتخار بنفسه ، وبقوة شاعريته ، فى أسلوب رصين قوى ؛ ولعل نصيب المتنبى من الفخر الذاتى أوفر نصيب بين شعراء العربية ، وامتاز فخره بأنه وجدانى رصين ، ونمت كلماته فى هذا الجانب عن ثورة داخلية عميقة ، وشعور نفسى قوى صادق ، وجاء تصوير هذا الشعور قويا صادقا كذلك :

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

الخيــل والليــل والبيـــداء تعرفنــى
والضرب ، والطعن ، والقرطاس ، والقلم

كــم تطــلبون لنــا عيبــا فيعجــزكــم
ويــكره اللــه مــا تأتــون والـــكرم

مــا أبعد العيب والنقصــان عن شــرفى
أنــا الثريا ، وذان الشــيب والهرم[٢٢]

٢ — ويقـــــول :

ردى حيــاض الــردى يا نفس واتركى
حيــاض خــوف الردى للشــاء والنعم

ان لــم أذرك عــلى الأرمــاح ســائلة
فــلا دعيــت ابن أم المجـــد والــكرم

أيمــلك المــلك — والأســياف ظامئـــة
والطــير جائعــة — لحــم على وضــم

من لـــو رآنـــى مــاء مــات من ظمـــأ
ولــو مثلت لــه فى النــوم لم ينم[٢٣]

٣ — ويقـــــول :

أى محـــــــل أرتقـــــــى
أى عظيــــم أتقـــــــى

(٢٢) ص ٣٣٢ — الكرم : أى وكرمكم يكره ذلك .

(٢٣) ص ٣٨ ، روى : أمر من الورود ، الردى : الهلاك ، الحياض : جمع حوض وهى مجمع المياه . والوضم : خشبة يقطع الجزار عليها اللحم .

وكـل مـا خـلق اللـه
ومـا لـم يخـلق
محتقـر فـى همتـى
كشـعرة فـى مفرقـى(٢٤)

٤ — وقولـه :

مـا مقـامى بأرض نخـلة الا
كمقـام المسيح بـين اليهـود
مفرشـى صهـوة الحصـان ولـكـ
ن قميصـى مسـرودة من حـديد(٢٥)

ومنهـا :

لا بقـومى شرفت ، بـل شـرفوا بـى
وبنفسى فخـرت ، لا بجـدودى
وبهـم فخـر كل من نطـق الضـاد
وعـوذ الجـانى ، وغـوث الطـريد
ان أكـن معجبـا فعجـب عجيـب
لـم يجـد فـوق نفسـه من مزيـد
أنـا تـرب النـدى ورب القـوافى
وسـمام العـدى وغيـظ الحسـود

---

(٢٤) ص ٤٠ .
(٢٥) ص ٢٠ ، وارض نخلة : قرية عند بعلبك ، الصـهوة : مقعد الفارس من الفرس ، المرودة : المنسوجة .

٥ — ويقول مخاطبا سيف الدولة :

وما أنا الا سمهرى حملته
فزين معروضا ، وراع مسددا

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما
بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى(٢٦)

وقوله :

أمط عنك تشبيهى بما ، وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى(٢٧)

٦ — وقوله :

فلما أنخنا ركزنا الرماح
فوق مكارمنا ، والعلا

وثبنا نقبل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدا

---

(٢٦) السمهرى : الرمح الصلب ، المعروض : المحمول بالعرض ، المسدد : الموجه للطعن ، المشمر ، المجد .

(٢٧) ص ١٤ — امط : ازل .

لتعـــلم مصـــر ، ومـــن بالعـــراق
ومـــن بالعواصـــم أنـــى الفتـــى

وأنـــى وفيـــت وأنـــى أبيـــت
وأنـــى عتـــوت عـــلى من عتـــا[٢٨]

ابن المقـــرب :

شغل افتخاره بنفسه حيزا كبيرا من فخره عمـوما ، وامتاز هذا الفخر بالكثرة والقوة ، وتطرق فيه الشاعر الى كثير من معان الشجاعة والكرم والسمو للعلا والهمة العاليـــة ، وكذلك الفخر بقوة الشـــاعرية وذيوع الصيت .

ومن أمثلة فخره بنفسه قوله :

١ ـ عـــلى م وفى م ظلمـــا تلحيـــانى
ذرانـــى لا أبالـــكما ذرانـــى

وحســبكما فمـــا ســمعى بمصـــغ
ولا واع لمـــــا تتحـــــــدثان

فـــلى همـــم اذا جاشـــت أرتنـــى
قـــرى عمـــان ميـــلا من عمـــان

اذا ســـولتما فتنـــا ســـيانى
وان أســـــلمتما فتذكـــرانـــى

فمثـــلى من يقيـــم صـــغى الأعـــادى
ويســـتعدى على نـــوب الزمـــان

---

(٢٨) ص ٥١١ ، انخنا : نزلنا ، العواصم : اسم بلاد ، الفتى : الحر الكريم ، ابت : امتنعت ، عتوت : تجبرت .

وما ذكر المنية عند أمر
أحاوله بشان من عمان (٢٩)

٢ — وقوله :

أتدرى الليالى أى خصم تشاغبه
وأى همام بالرزايا تواثبه

تجاهل هذا الدهر بى فتكتبت
على بأنواع البلايا كتائبه

وظن محالا أن أدين لحكمه
اتبك على عقل المعنى نوادبه

وانى وان أبدى اصعرارا بخده
وأوجف بى وازور للبغض جانبه

لأغضى على بغضائه وازوراره
وأعجب من حر كريم يعاتبه

وأستقبل الخطب الجليل بثاقب
من العزم يعلو لاهب النار لاهبه (٣٠)

ورأى متى جودته وانتضيته
وجدت حساما لم تفلل مضاربه

ولست بيهفوف يرى رأى عرسه
متى أركبته مركبا فهو راكبه

يظل اذا ما نابه الأمر محجرا
يخاطبها فى شأنه وتخاطبه

---

(٢٩) انظر شرح الأبيات ص ١٥٤ .
(٣٠) انظر شرح الأبيات ص ١٥٣ ، من هذا البحث .

٣ — ويقـــول :

فـــلا يتوهـم الســـفهاء أنـــى
أحـــن الـــى غـــوان أو مغـــان

ولا أنـــى أرى والمـــوت حتـم
بعـــين جـــلالة مـــن لا يرانـــى

عظيــم النــاس فى عينـــى حقـــير
اذا بالمقـــالة الخوصـــا رآنـــى

محـــال أن أواصـــل من جفـــانى
وأســمح بالـــوداد لمـن قـــلانـــى[٣١]

ومنهــــا :

ولســت اذا تشـــاجرت العـوالى
بغمـــر فـــى اللقـــاء ولا جبـــان

ولكننـــى حـديـا كـــل يـــوم
تـــلاقـــى عنـــده حـــلق البطـــان

٤ — وقال فى مجال افتخاره بشعره :

ودونـــك من تيـــار بحـــر اذا طمـــى
أراك بحـــار الأرض جمعـــا صـــلاصلا

وأنفـــذتهـــا فى حـــكمـــة وبـــلاغـــة
كســت حـــلة من بعد عهدك عاقـــلا[٣٢]

---

(٣١) الأبيات مذكورة أيضا ص ١٥٥ من هذا البحث .

(٣٢) انظر شرح الكلمات ص ١٦١ ، من هذا البحث .

وبالنظر الى هذا الغرض عند الشاعرين يتضح لنا ما يلى :

ـ كلاهما أكثر من الافتخار بنفسه وبشعره والأمثـــلة على ذلك كثـــــيرة .

ـ اشترك الشاعران فى معظم معان الفخر كالشجاعة والاقــدام وعلو الهمة والأنفة من الذل ، واظهار قوة الشاعرية .

ـ وعلى الرغم من أن ابن مقرب افتخر بنفسه بقوة وبراعة . وأتى فى ذلك بمعان كثيرة ؛ الا أن المتنبى فاقه فى هذا الجانب من حيث التفرد بالمعانى والصور الفذة ، ومن حيث صياغة هذه المعانى باحكام وأسلوب قوى رصين أضفى عليها كثير من الفخامة والروعة .

٢ ـ وصف المعارك :

يتجلى المتنبى فى وصف المعارك شاعرا قويـــا فى عباراته ومعانيه وأخيلته ، وبدائع افتنانه ، لا يكاد يسبقه فى هذا الميدان أحد من شعراء العربية ، فقد اقتحم ميدان الحرب بنفسه ، وكابد أهوالها ، ورأى ببصره وسائلها ودخائلها ، وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه الا الخبراء، ومن أمثلة أوصافه الحربية قوله مخاطبا سيف الدولة ومعرضا بالروم :

١ ـ صـــــدمتهم بخميـــس أنـــت غرتـــه
وســــمهريته فـــى وجهــــه غمـــم

فـــكان أثبـــت مـــا فيهـــم جســـــومهم
يســـقطن حـــولك والأرواح تنهـــزم

والأعوجيـــة مـــلء الطـــرق خلفهـــم
والمشـــرفية مـــلء اليـــوم فـــوقهم

اذا توافقـــت الضـــربات صـــاعـــدة
توافقـــت قـــلل فى الجـــو تصـــطدم

وأسلم ابن شمشقيق أليته
الا انثنى ، فهو ينأى وهى تبتسم

لا يأمل النفس الأقصى لمهجته
فيسرق النفس الأدنى ويغتنم

ترد عنه قنا الفرسان سابغة
صوب الأسنة فى أثنائها ديم

تخط فيها العوالى ، ليس تنفذها
كأن كل سنان فوقها قلم

ألقت اليك دماء الروم طاعتها
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

يسابق القتل فيهم كل حادثة
فما يصيبهم موت ولا هرم(٣٣)

٢ — وقال فى مدح سيف الدولة :

رمى الدرب بالجود الجياد الى العدا
وما علموا أن السهام خيول

فما شعروا حتى رأوها مغيرة
قباحا ، وأما خلقها فجميل

سحائب يمطرن الحديد عليهم
فكل مكان بالسيوف غسيل

وأمسى السبايا ينتحبن بعرقة
كأن جيوب الثاكلات ذيول

---

(٣٣) ص ٤٢٣ — الغمم : كثرة شعر الناصية ، الأعوجية : خيل منسوبة الى أعوج وهو فرس كريم القتل : الرؤوس ، اسلم : ترك ، الصوب : الانصباب ، أثنائها : طاقاتها .

تسايرها النيران فى كل مسلك
به القوم صرعى ، والديار طلول

ورعن بنا قلب الفرات كأنما
تخر عليه بالرجال سيول

يطارد فيه موجه كل سابح
سواء عليه غمره ومسيل

تراه كأن الماء مر بجسمه
وأقبل رأس وحده ، وتليل(٣٤)

٣ — ومن ذلك أيضا قصيدته فى وصف القلعة التى بناها سيف الدولة فى بلاد الروم وسماها « الحدث » ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وفيها يقول :

هل « الحدث » الحمراء تعرف لونها
وتعلم أى الساقيين الغمائم

سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم

بناها فأعلى ، والقنا تقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم

---

(٣٤) ص ٣٥٦ — قباحا : اى بالنسبة لفعلها بهم ، والحديفد : السيوف ، عرقه : بلد بالشام ، الجيب : ما انفتح من القميص على النحو ، السابح : الفرس ، الغمره : معظم الماء ، المسيل : مجرى النهر ، التليل : العنق .

وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحداث الا التراجم

فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق الا صارم أو ضبارم(٣٥)

ابن المقرب :

برع كذلك فى أوصافه الحربية ، وأتى فيها بصور وأخيلة قوية تدل على سعة اطلاع ، وخبرة فى مضمار المعارك وميادين السلاح ، ومن أمثلة أوصافه الحربية قوله يصف معارك الملك الأشرف مع الأفرنج :

١ — ويوم يوارى الشمس ريعان نقعه
ويحول قبل الطرف فيه الحمالق

وتمشى نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أوكارهن اللقالق

كأن العجاج عارض وكأنما
به المشرفيات المواضى عقائق

---

(٣٥) ص ٣٨٥ — فأعلى : اى فأعلاها ، التمائم : جمع تميمه وهى العوذة يتوقون بها مس الجن . الخميس: الجيش ، الجوزاء : نجمان معترضان فى وسط السماء ، الزمازم جمع زمزمه وهو صوت الرعد ، اللسن : اللغة ، الحداث : القوم ، لله : كلمة تقال عند التعجب ، الغش : ما يدخل على المعادن الثمينة ، وأراد به هنا الرجال والسلاح ، الضبارم : الشجاع .

وتحسب من رأى الأسنة أنها
قواذف قذف صوتت وصواعق

وقد أبطل الضرب القسى وألقيت
فلم يبق الا ضارب ومعانق

مشى نحوهم مشى السبنتى فداحض
بشكته ، أو طائش اللب زاهق

بنصل يقول الموت حين يشكه
بزوجه من يعلى به : أنت طالق

فصك به الأبطال صكا به التقت
لقاء قلى أقدامها والعنافق(٣٦)

٢ — ومنها قوله :

ومالوا لقذف المال فى اليم بالضحى
وبالليل ثارت فى الرحال الحرائق

وأزعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بأمس ، وهل يستعذب الموت ذائق

فولوا فمنكب على أم رأسه
لدن ذاك لم ينفق وآخر نافق

ومستعصم بالبحر منه وعائد
بأخلق تنبو عن صفاه المطارق

---

(٣٦) ص ٢٩٨ ، ريعان الشىء : شدته ، والنقع : الغبار ، اللقلق : طائر ، العارض : السحاب الممتلىء . العقيق : خرز أحمر ، السبنتى : الجرىء ، العنفقة : شعيرات بين الشفة والذقن .

ولـم يبـق يثنـى من عنـان جـواده
أب لابنــه والمـوت للقـوم خافـــق

فســال دم لو ســال فى الأرض لاستوى
بهـــا ردغ ، مـا عمــرت ومزالــق

جـرى منه فــوق البحــر بحر فموجه
الى الآن من بعــد الأقاحــى شــقائق

فصــار نئيمــا ذلك الــزأر واغتـــدت
بغــاما لفــرط الخــوف تلك الشــقائق

ولــم ينــج منهــم لج بحــر ولا حمت
حصــون أديــرت حـولهن الخنـــادق

ولا منعـــت فى ملتقـــاها ملوكهـــا
قرابتهـــا صـــهب اللحى والبطـــارق(٣٧)

٣ ــ وقال أيضـــا :

وأقبــل ليــث الغــاب أغنــى محمــدا
يفتــش عــن أشـــباله ويســـائل

فقيــل لــه تحـت العجـــاجة دأبهــم
طعــان العــدا فى حيث تخفى المقــاتل

فأوردهــم صــدر الحصـــان كأنـــه
بأخــذ نفــوس القــوم بالسيف كافــل

---

(٣٧) ص ٣٠١ ــ الصفا : الحجارة الصلدة ، الردغ : الوحل الشديد، الاقحوان : نوع من النبات ، شقائق النعمان : نبات أحمر الزهر ، النئيم : الصوت الخفيف والبغام بنفس المعنى ، وشقشق الجمل : هدر ، صهب اللحى : فى لحاهم شقرة ، والبطريق : القائد من قواد الروم .

فطـــاروا ســـلالا من أســـير وهـــارب
ومن هـــالك تبـــكى عليـــه الثواكـــل

ولـــم يبـــق الا خائـــف مترقـــب
حمامـــا ســـريعا أو نزيـــل منـــازل (٣٨)

وبالنظر الى أوصافهما الحربية يتضح لنا ما يلى :

(أ) وصف المعارك لدى كل منهما يموج بالحركة والحيوية ، وكأنما يسمعنا قعقعة السيوف وصهيل الخيول .

(ب) كلاهما يدل فى أوصافه الحربية على خبرة وتمرس فى ميادين القتال والمشاهد الحربية ؛ وان كان المتنبى أصدق تصويرا وأسبق لما له من باع طويل فى هذا المضمار .

(جـ) ومن الناحية الفنية نلاحظ أن المتنبى أكثر دقة وتحديدا فى وصفه لمراحل المعركة وسيرها ، وأن ابن مقرب يميل الى التعميم وبيان الآثار الناجم عن الموقعة الحربية .

٤ ــ الجزالة والقـــوة :

اذا كان كل من الشاعرين قد امتاز شعره بالقوة والجزالة وروعة السبك ، حتى ساغ لنا أن نشبه ابن المقرب بالمتنبى فى هذا المجال ، فمما لا شك فيه أن المتنبى يعتبر أسبق من ابن المقرب فى هذا المجال روعة وقوة وأداء ، وذلك يرجع الى قوة المتنبى وفحولته فى الفصاحة والبلاغة وقربه من عهد الجزالة والقوة .

ومن أمثلة ذلك قوله فى المدح :

١ ــ ذى المعـــالى فليعـــلون من تعـــالى
هـــكذا هـــكذا والا فـــلالا

---

(٣٨) ص ٣٥٧ ، انسل وتسلل : انطلق فى استخفاء .

شـرف ينطـح النجـوم بروقيـ
ـه وعـز يقـلقـل الأجبـالا

حـال أعـدائنا عظيـم وسـيف الـ
ـدولة ابن السـيوف أعظـم حـالا

كلمـا أعجـلوا النـذير مسـيرا
أعجلتهـم جيـاده الاعجـالا

فأتتهـم خـوارق الأرض مـا تحـ
ـمـل الا الحـديد والأبطـالا

خافيـات الألوان قـد نسـج النقـ
ـع عليهـا براقعـا وجـلالا

حالفتـه صـدورها والعـوالى
لتخـوضـن دونـه الأهـوالا[٣٩]

ومنهـا قولـه :

نزلـوا فى مصـارع عرفـوها
ينـدبون الأعمـام والأخـوالا

تحمـل الريـح بينهـم شـعر الهـام
وتـذرى عليهـم الأوصـالا

تنـذر الجسـم أن يقـوم لديهـا
فتريـه لـكل عضـو مثـالا

أبصـروا الطعـن فى القـلوب دراكـا
قبـل أن يبصـروا الرمـاح خيـالا

---

(٣٩) ص ٤٠٩ — النذير : الذى ينذر قومه من الأمر قبل وقوعه ، خوارق : التى تخرق الصحراء ، الجلال : جمع جـل وهو ما تلبسه الدابة لتصـان به .

واذا حـاولـت طعـانك خيـل
أبصـرت أذرع القنـا أميـالا

بسط الرعب فى اليمين يمينا
فتولوا وفى الشمال شمالا

ينفض الروع أيديا ليس تدرى
أسيوفا حملن أم أغلالا[٤٠]

٢ — وقوله فى مدح سيف الدولة :

قاد الجياد الى الطعان ولم يقد
الا الى العادات والأوطان

كل ابن سابقة يغير بحسنه
فى قلب صاحبه على الأحزان

ان خليت ربطت بآداب الوغى
فدعاؤها يغنى عن الأرسان

فى جحفل ستر العيون غباره
فكأنما يبصرن بالآذان

يرمى بها البلاد البعيد مظفر
كل البعيد له قريب دان

ومنها قوله :

نظروا الى زبر الحديد كأنما
يصعدن بين مناكب العقبان

وفوارس يحيى الحمام نفوسها
فكأنها ليست من الحيوان

(٤٠) ص ٤١١ .

مـازالت تضـربهـم دراكا في الـذرى
ضـربا كـأن السـيف فيـه اثنـان

خص الجمـاجم والوجـوه كأنمـا
جـاءت اليـك جسـومهم بأمـان

فرمـوا بما يرمـون عنـه وأدبـروا
يطـأون كـل حنيـة مرنـان

يغشـاهم مطـر السـحاب مفصـلا
بمهنـد ومثقـف وسـنان

حرمـوا الـذى أمـلوا وأدرك منهـم
آمـاله من عـاد بالحرمـان(٤١)

ابن المقـرب :

تظهر الجزالة والقوة فى ثنايا شعره بكل وضوح ، وان كان يغلب عليها طابع البداوة والخشونة أكثر من السلاسة والمرونة .

١ — ومن الأمثلة على ذلك قوله :

خليـانى مـن وطـاء ووسـاد
لا أرى النـوم عـلى شـوك القتـاد

وارحـلا من قبـل ألا ترحـلا
فالبـلايا كـل يـوم فى ازديـاد

---

(٤١) ديوان المتنبى — ص ٤١٦ ، دار صادر — بيروت ، الى العادات: اى الى ما تعودته من الغارات ، سابقه : اى فرس سابقه ، والمظفر : هو سيف الدولة ، زبر : جمع زبره وهى القطعة من الحديد والمراد بها السيوف، دراكا : متابعا ، الذرى : جمع ذروه وهو أعلى كل شىء ، الحنية : القوس، المرنان : كثيرة الرنين ، يغشاهم : يغطيهم ، مفصلا : يعنى ان السيوف والرماح تعمل فيهم هذه مرة وتلك اخرى .

واتركاني من أباطيل المنى
فهو بحر ليس يروى عنه صادِ
وابذلا في العز مجهود كما
لا يلام المرء بعد الاجتهاد
انما تدرك غايات المنى
بمسير أو طعان أو جلاد[٤٢]

٢ — وقوله في المدح :

وكأن أطراف الأسنة أنجم
شهب وداجي النقع ليل غيهب
في معرك عاث الردى في أهله
فمعفر ، ومضرج ومقعضب
ألف الحروب جواده فكأنه
من ماء هامات الفوارس يشرب
يهوى انقضاضا في المكر كما هوى
لقنيصة حجن المخالب أشهب
ما صبحت دارا هوادي خيله
الا وقام الموت فيها يخطب[٤٣]

---

(٤٢) الديوان — طبعة الاحساء ص ١٧٦ .

الوطاء : خلاف الوساد ، والوساد : المخدة ، والقتاد : شجر صلب له شوك كالابر . الصادى : من بلغ به العطش مبلغه .

(٤٣) الديوان — ص ٨٧ — القعضبة : الشدة والاستئصال ، حجن المخالب : معوجها ، هوادى الخيل : متقدماتها .

٣ — وقوله :

ومـا الفخـر الا الطعن والضرب والندى
ورفض الدنايـا واغتفـار الجـرائم

ونـف السـرايا بالسـرايا تخـالها
حـرار الحجـاز أو بحـار اللواطم(٤٤)

٤ — وقولـه :

لأطلبن العـلا جهـدى طـلاب فتـى
يـدوس بالعـزم هـام السبعة الشـهب

فـان أنـل فبسـعيى مـا أتيـت بـه
بدعـاء والا فقـد أعذرت فى الطلب(٤٥)

وبالنظر الى هذا الجانب من شعر الرجلين نخرج بما يلى :

(أ) امتاز شعر الشاعرين بالجزالة والقوة فى معظمه ، وظهر ذلك واضحا جليا فى أبيات شعرهما .

(ب) يمتاز المتنبى بالجزالة والقوة حتى فى غزلياته ، رغم أن هذا الغرض يتطلب عادة الرقة والليونة .

(حـ) تواءمت الجزالة والقوة مع السلاسة والرقة فى شعر المتنبى بشكل عجيب ، مما أضفى على شعره كثيرا من العذوبة والجمال .

---

(٤٤) ص ٥١٢ — اللواطم : الأمواج .

(٤٥) ص ٧٧ .

(د) افتقد شعر ابن مقرب العنصر السابق فى بعض قصائده مما جعل جزالته تأخذ طابع الخشونة والبداوة •

الخلاصـــــــة :

وهكذا يتضح لنا أن تشبيه ابن المقرب بالمتنبى ليس أمرا غريبا ، فقد حذا حذوه فى كثير من معانيه وأساليبه وأغراضـــه ، وانطبع فنـــه بطابـــع المتنبى فى كثير من مظـــاهره ، واذا كان لم يبلغ مرتبة المتنبى فحسبه أنه تعلق به وساماه ودنا منه حتى قرن اسمه باسمه •

الخاتمة

... درست فيما مضى حياة ابن مقرب وشعره :

في البداية ألقيت الضوء على حالة عصره من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية ، وبينت مدى تأثر ابن مقرب بها ايجابا وسلبا ، وفيما يتعلق بحياته تحدثت عن نشأته وأوضحت قلة المصادر التى بين أيدينا عن هذه الفترة من حياته ، ثم تطرقت فى الحديث عن شخصيته وقلت ان أبرز ما تميزت به هذه الشخصية هو الطموح البعيد والهمة العالية ، وتكلمت عن رحلاته وثقافته وأثر الحرمان فى شعره .

وفى حديثى عن ديوانه قلت ان تعدد طبعات الديوان ما هو الا دليل على قوة شعره ، وتعلق الناس به مما أدى الى خلوده وصموده لعوامل النسـيان .

أما فيما يتعلق بشعره فقد ذكرت أهم الأغراض والفنون التى قال فيها شعرا وحللت هذا الشعر واستعرضت أهم الظواهر التى تميز بها ، ثم أوضحت أن أهم خصائص هذا الشعر هى الجزالة والقوة ، فهو بذلك يصور روح صاحبه الممتلئة بالحماس والثورة والطموح ، ورغم أن هذا الشعر لا يتميز بالعمق فى كثير من الأحيان ، الا أنه على كل حال لا يهبط الى درجة السطحية والابتذال .

ونظرا لوجه الشبه الكبير بين ابن مقرب وشـاعر العربية الكبير المتنبى فى كثير من الجوانب فقـد خصصت الفصل السادس من هـذا البحث لمقارنة أهم أوجه الشبه بين شعر الشاعرين وخرجت بنتائج لهذه

المقارنة من أبرزها التشابه الواضح فى الروح الشعرية بين الشاعرين من ناحية الجزالة والقوة والحماس والاندفاع .

فالى أبناء المنطقـــة التى عاش فيها ابن المقـــرب ، والى المهتمين بأدبها وتاريخها واحياء تراثها ، والى المكتبة العربية أهدى هذا الجهد المتواضع عسى الله أن ينفع به ، وهو تعالى من وراء القصد وهو يهدى الســـــبيل .

المصادر والمراجع

١ ــ الأدب فى العصر الأيوبى :
د. محمد زغلول سلام ، القاهرة .

٢ ــ الاعـــلام :
خير الدين الزركلى ــ مطبعة كوستا تسوماس ــ جـ ٥ دمشق .

٣ ــ ابن الرومى حياته من شعره :
عباس محمود العقاد ــ دار الهلال ــ ١٩٦٩ .

٤ ــ الأدب ومذاهبه :
د. محمد مندور ، القاهرة .

٥ ــ أصـــول النقـــد :
د. محمد عبد المنعم خفاجى ــ القاهرة ــ مطبعة عيسى الحلبى .

٦ ــ الأدب العربى المعاصر فى الخليج العربى (قسم الشعر) :
د. عبد الله المبارك ، ط القاهرة ١٩٧٣ .

٧ ــ الأدب القطرى الحديث :
محمد عبد الرحيم كافود . ط . القاهرة ١٩٧٩ .

٨ ــ ابن طباطبا الناقـــد :
د. محمد عبد الرحمن الربيع ــ الرياض ١٩٧٩ .

٩ ــ أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله :
د. عمر فروخ المكتب التجارى ــ بيروت .

١٠ ـ البحرين فى صدر الاسلام :
عبد الرحمن عبد الكريم النجم ـ مطبعة الجمهورية ـ بغداد ، ١٩٧٣ .

١١ ـ البحوث الأدبية ـ مناهجها ومصادرها :
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، د. محمد عبد المنعم خفاجى .

١٢ ـ ابن رشيق ونقد الشعر :
د. عبد الرؤوف مخلوف ـ الكويت ١٩٧٣ .

١٣ ـ ابن مقرب ـ دراسة :
عمران محمد العمران ـ الرياض ١٩٦٨ .

١٤ ـ النقد المنهجى عند العرب :
د. محمد مندور ـ القاهرة ١٩٦٩ .

١٥ ـ النقد والنقاد المعاصرون :
د. محمد مندور ، القاهرة .

١٦ ـ التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية :
محمد خليفة النبهانى ـ ١٣٤٢ هـ .

١٧ ـ التكملة فى وفيات النقلة :
(مخطوط) للحافظ المنذرى ـ القاهرة .

١٨ ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه :
للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، على محمد البجاوى ، القاهرة ـ ١٩٦٩ .

١٩ ـ الوافى بالوفيات ـ للصفدى (مصور) :

٢٠ ـ الحركة الأدبية فى المملكة العربية السعودية :
د. بكرى شيخ أمين ، ١٩٧٢ .

٢١ ـ المستدرك على ابن ماكولا :
لابن نقطة ـ (مخطوط) .

٢٢ ـ الموازنة بين الشعراء :
د. زكى مبارك ـ مطبعة المقتطف ـ القاهرة ـ ١٩٢٦ .

٢٣ ـ الموازنة بين أبى تمام والبحترى :
أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى .

٢٤ ـ المتنبى وشوقى :
عباس حسن ، ١٩٧٣ ـ دار المعارف ، القاهرة .

٢٥ ـ المتنبى ـ سلسلة نوابغ العرب :
د. زكى المحاسنى عدد ١٥ دائرة المعارف ١٩٥٦ ـ القاهرة .

٢٦ ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده :
أبو على الحسن بن رشيق القيروانى (جزءان) .

٢٧ ـ القرامطة :
عارف تامر ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٢٨ ـ القرامطة :
محمود شاكر ـ المكتب الاسلامى ـ بيروت ١٩٧٩ .

٢٩ ـ الكامل فى التاريخ :
أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، (الأجزاء ١٠ ، ١١ ، ١٢) ـ القاهرة .

٣٠ — الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى :
حافظ أحمد ، دار الفكر العربى — القاهرة •

٣١ — ابراهيم ناجى — (الاعــلام) :
القاهرة ، د• على محمد الفقى — ١٩٧٧ •

٣٢ — جرير — حياته وشعره :
د• نعمان أمين طــه ، القاهرة •

٣٣ — دراسات فى النقد الأدبى :
د• حسن جاد حسن — القاهرة ١٩٧٧ •

٣٤ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر :
د• شوقى ضيف ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩•

٣٥ — دراسة فى مصادر الأدب :
د• الطاهر أحمد مكى ، ط ، القاهرة ١٩٧٧ •

٣٦ — دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده :
د• محمد غنيمى هلال ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة •

٣٧ — ديوان الأبيوردى :
تحقيق ودراسة عمر محمد الأسعد ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ •

٣٨ — ديوان ابن مقرب :
تحقيق وشرح : محمد الحلو ، طبعة الاحساء •

٣٩ — ديوان ابن مقرب :
طبعة دمشق ، الطبعة الأولى والجزء الأول من الطبعة الثانية •

٤٠ — ديوان ابن مقرب :
(مخطوطة مكتبة الاسكندرية) •

٤١ — ديوان ابن مقرب :
(ثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية) .

٤٢ — ديوان المتنبى :
نشر دار صـــادر — بيروت .

٤٣ — ديوان المتنبـــى :
شرح عبد الرحمن البرقوقى ، بيروت ، لبنان ، نشر دار الكتاب العربى ١٩٧٩ .

٤٤ — زكى مبارك ناقـــدا :
كريمة زكى مبارك ، دار الشعب ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، القاهرة .

٤٥ — حصـــاد الهشـــيم :
ابراهيم عبد القادر المازنى ، دار الشروق القاهرة ١٩٧٦ .

٤٦ — حول الأدب فى العصر السلجوقى :
د . محمد التونجى ، بنغازى ، ليبيا ، ١٩٧٤ .

٤٧ — لمحات من الخليج العربى :
د . محمـــد جابر الأنصـــارى ، الطبعة الأولى ، ابريل ١٩٧٠ — البحــــرين .

٤٨ — معجم المـــؤلفين :
عمر رضا كحالة ، جزء ٧ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٥٨ .

٤٩ — معجم الأدبـــاء :
ياقوت الحموى ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة .

٥٠ — معجم البـــلدان :
ياقوت الحموى ، الجزء ٦ ، القاهرة .

٥١ ــ من قضايا الشعر والنثر فى النقد العربى القديم :
د. عثمان موافى ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر .

٥٢ ــ مهيــار الديلمى ، حياته وشعره :
د. عصام على ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، ١٩٧٦ .

٥٣ ــ مصطفى وهبى التل ، حياته وشعره :
أحمد عطية أبو مطر ، جامعة الكويت ، كلية الآداب ١٩٧٤ .

٥٤ ــ نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر :
تحقيق وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجى ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

٥٥ ــ ساحل الذهب الأسود :
محمد سعيد المسلم ، الطبعة الثالثة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بــــيروت .

٥٦ ــ على بن الجهــم ، حياته وشعره :
عبد الرحمن الباشا ، القاهرة .

٥٧ ــ فصول فى الشعر ونقده :
د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .

٥٨ ــ فى نقد الشــعر :
د. محمود الربيعى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعــة الرابعة ، ١٩٧٧ .

٥٩ ــ فصول الأدب والنقد :
د. طــه حسين ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة .

٦٠ ــ من حديث الشعر والنثر :
د. طــه حسين ، دار المعارف ، القاهرة .

٦١ ــ تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء فى القديم والجديد :
(الجزء الأول والثانى) محمد عبد الله الاحسائى ، طبعة الرياض ١٩٦٠ •

٦٢ ــ تاريخ الأدب العربى :
كارل بروكلمان ، دار المعارف بمصر •

٦٣ ــ تلخيص مجمع الآداب :
لابن الفوطى (مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة) •

٦٤ ــ تاج العروس من جواهر القاموس :
الامام محب الدين المرتضى الزبيدى ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ •

٦٥ ــ تاريخ الدولة الاسلامية :
المستشرقة يوجينا غيانه ، المكتب التجارى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ •

٦٦ ــ تاريخ البحرين العام :
محمود بهجت سنان ، بغداد •

٦٧ ــ تاريخ الدولة الاتابكية :
أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ •

٦٨ ــ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى :
عباس محمود العقاد ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٥ ، القاهرة •

٦٩ ــ شعر الحرب فى أدب العرب :
د• زكى المحاسنى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ •

٧٠ — شعراء هجـر :

عبد الفتاح محمد الحلو ، الاحساء •

٧١ — قلائد الجمان فى شعراء الزمان :

ابن الشعار الموصلى ، (مصور بمعهـد المخطوطات العربيـة بالقاهرة) •

٧٢ — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام :

عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة •

* * *

(المجـــــلات) :

١ — مجلـة العربى — ابريل — ١٩٦٠ ، الكويت •

٢ — مجـلة البيان — عدد ٣٧ ، ابريل ١٩٦٩ ،الكويت •

٣ — مجلة العرب — جزء ربيع الأول ، ١٣٨٩ — دار اليمامة بالرياض•

فهرس الكتاب

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　صفحة

المقدمة ٣

الفصل الأول

عصر الشاعر ٧
— الحياة السياسية ٩
— الحياة الاجتماعية ٢٠
— الحياة الأدبية ٢٨

الفصل الثانى

جياة الشاعر ٣٧
— اسمه ونسبه ٣٩
— ولادته ٤٠
— رحلاته واتصالاته ٤٨
— ثقافته ٥٨
— شخصيته وخلقه ٦٠
— معتقده ٦٦
— وفاته ٧٠
— نبذة تاريخية عن وطن الشاعر وأسرته ٧١

الموضوع | صفحة

الفصل الثالث

مصادر شعره ٩١

الفصل الرابع

أغراض شعره وتحليلها ١٠١
— تمهيد ١٠٣
— المديح ١٠٥
— الفخر الذاتى ١٥٣
— الشكوى والأنين ١٦٣
— العتاب والنصح ١٧٠
— الرثاء ١٧٨
— الحكم والأمثال ١٨٦
— الهجاء ١٩٦
— الشوق والحنين ٢٠٣
— الوصف ٢١٠

الفصل الخامس

خصائص شعره ٢٢٣
— الألفاظ والأساليب ٢٢٥
— البديع ٢٢٩
— المعانى والأخيلة ٢٣٣
— أهمية شعر ابن مقرب التاريخية ٢٤١
— مآخذ على شعره ٢٤٦
— آراء النقاد فى شعره ٢٤٩

الموضـــوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　صفحة

الفصـــل السادس

بين المتنبى والعيونى ٢٥٣
ـــ حياة الشاعرين ٢٥٨
ـــ الناحية الشعرية ٢٦١
١ ـــ الحكمة ٢٦١
٢ ـــ الفخر بالنفس ٢٦٨
٣ ـــ وصف المعـــارك ٢٧٥
٤ ـــ الجزالة والقوة ٢٨١
الخاتمــــــــة ٢٨٩
المصـــادر والمراجـــع ٢٩١

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٤٢٢